اســــم الكتـــــاب: نحو القلوب الصغير والكبير
اســــم المؤلــــف: زين الإسلام عبد الكريم القشيري
اسم المحقـق وغيـره: أحمد علم الدين الجندي
بلــــد النشــــــر: مصر
الناشــــــــــــــر: الهيئة المصرية العامة للكتاب
رقــــم الطبعــــة: بدون
تـــاريخ النشــــر: 2008 م
عــــدد الصـــفحات: 700 صفحة

نحو القلوب



القشيري، عبد الكريم بن عوازن بن عبد الملك
ابن طلحة النيسابوري، 986 – 1072 هـ
نحو القلوب الصغير / لعبد الكريم القشيري
(زين الإسلام، مستعار) تقديم وتحقيق وتعليق
أحمد علم الدين الجندي. _ القاهرة: الهيئة
المصرية العامة للكتاب. 2008.
708 ص: 24 سم.
تدمك 8 366 420 977 978
1 – اللغة العربية – النحو
(أ) الجندي، أحمد علم الدين (محقق ومعلق)
2 – العنوان
رقم الإيداع بدار الكتب 13213 / 2008

—
I.S.B.N – 978 – 977 - 420 – 366 - 8
ديوي 415.1



نحو القلوب الصغير

للإمام زين الإسلام عبد الكريم القشيري

قدم له وحققه وعلق عليه
دكتور أحمد علم الدين الجندي

الهيئة المصرية العامة للكتاب
2008

أشرف على هذه الطبعة

سلوى مصطفى

أعد الفهارس

سميرة مصطفى كمال

سمية حسني

راجعها

أحمد حسن

الإخرج الفني

عمر حماد علي

التنفيذ

مادلين أيوب فرج

تصميم الغلاف

رشيدة رشاد

الخطوط

أوس السنوسي



مدخل

لم يخل القرآن الأقدس من لمحات صوفية [1]، وليست التزكية في قوله تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ** ﴾ [2]، إلا لمحة صوفية تتم بعلم وعمل ومتابعة.

فالتزكية تحلية بالفضائل، وتخلية عن الرذائل، ثم بالتجلية في جلال الملكوت وجماله، وكشف أعماقه وأسراره.

وكذلك كان سائر الأنبياء والرسل مثالًا للصوفية، فمحمد > استمر سنوات يتردد على غار حراء متعبدًا متجردًا متنسكًا حتى هبط عليه الوحي وهو في ذروة تصوفه، وعيسى — يعتزل الناس في خلوته يتأمل مع نفسه ...

وحين سئل الرسل > عن الإحسان أجاب: **« أن تعبد كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »** وصدر الحديث يصل بك إلى مقام المشاهدة، ونهايته تمنحك مقام التقوى والمراقبة، وما دامت هذه الرؤية ملء السمع والبصر والفؤاد لم يعد يرى الإنسان ذاته إلا من خلال « الله » فتعبده وكأنك تراه **!!** ثم تجد الهدف الأسمى يقرره الرسول >: **« لي وقت مع الله لا يسعني فيه إنس ولا جن ولا ملك ولا شيطان »**.

فالتصوف علم أصيل في الإسلام مستمد من الكتاب والسنة وليس بدعًا في الدين. وفيه يقول الجنيد [3]: لو علمت أن لله علمًا تحت أديم

(1) ففي كثير من آياته ﴿ عبادي ﴾ البقرة: 186، إبراهيم: 31، و ﴿ عبادنا ﴾ يوسف 24، ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ المائدة: 54، ﴿ رضي الله عنهم ورضوا عنه ﴾ التوبة: من آية 100، ﴿ أولئك حزب الله ﴾ المجادلة: 22، ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ البقرة: 115.

(2) الجمعة: 2.

(3) سيد هذه الطائفة وإمامهم، أصله من نهاوند ت 297 هـ، وكان الكتبة يحضرون مجلسه لألفاظه، والفقهاء لتقريره، والفلاسفة لدقة نظره ومعانيه، والمتكلمون لتحقيقه، والصوفية لإشاراته وحقائقه (الرسالة: 105).

السماء أشرف من هذا العلم الذي نتكلم فيه مع أصحابنا وإخواننا لسعيت إليه [4]، لأن موضوعه يدور حول النفوس والقلوب والأرواح: تصفية، وتهذيبًا، وسلوكًا، ومناجاة، ومشاهدة. ومن عرف نفسه عرف ربه.

فالتصوف لباب الشريعة ومنهاج الطريقة وجماع علوم الدين، وهو متصل بالله، وقائم به وله، وسمى الغزالي التصوف (العلم الأعلى الأشرف) وقد أشار الرسول > في حديثه إلي تدرجه حيث قال: **« أعوذ بعفوك من عقابك »**، فهذه ملاحظة الفعل. ثم قال: **« وأعوذ برضاك من سخطك »**، وهذه ملاحظة الصفات، ثم قال: **« وأعوذ بك منك »**، وهذه ملاحظة الذات، فلم يزل يترقى إلى القرب درجة بعد درجة، ثم عند النهاية اعترف بالعجز فقال:: **« لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك »** [5].

– 2 -

وإذا كان التصوف كذلك فلا يؤخذ من الأوراق ومطالعة الكتب، وإنما يؤخذ من أهل الأذواق، والوجدان، والتحقيق، والعرفان، فلا يكون الإنسان صوفيًا حتى يعلم، ولا يكون عارفًا بالله حتى يعمل، ولا يكون قريبًا منه حتى يصبح ذا حال إيماني وخلق رباني، فمبناه علم ثم عمل ثم حال [6]. وذلك مصداق قوله >: **« من عمل بما علم، رزقه الله علم ما لم يعلم، ووفقه فيما يعمل حتى يستوجب الجنة، ومن لم يعمل بما يعلم، تاه فيما يعلم، ولم يوفق فيما يعمل حتى يستوجب النار »**، والصوفي بهذا المعنى يتجاوز حياته ليرى (الله) في كل شيء في: الزهرة والبسمة، والومضة والظلمة، والخوف والرجاء، والأرض والسماء. قال محمد بن واسع: ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله فيه!

---

(4) الرسالة القشيرية 734 تحقيق د / عبد الحليم محمود.
(5) جواهر القرآن للغزالي 24 ط 2. الرحمانية بمصر.
(6) ص 23 المدخل إلى التصوف الإسلامي. السيد الفيضي. ط الدار القومية – مصر.

واستمع إلى الفطرة السليمة في ذلك يصورها لك جعفر الصادق حين جاءه رجل يسأله عن (الله)، فقال له جعفر: ألم تركب البحر؟ قال: بلى. فقال جعفر: هل هاجت بكم الريح عاصفة؟ قال: نعم. فقال جعفر: فهل خطر ببالك أن هناك من يستطيع أن ينقذك إن شاء؟ قال: نعم. قال جعفر: فذلك هو « الله » [7].

وهذا هو الفناء الذي صوره الحديث القدسي: **« كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به »**.

فالإنسان يرتفع ببشريته، ويسمو حتى يتخلق بأخلاق الله.

والصوفي عندما يبحث عن الحقيقة، إنما يبحثها في إطار الشريعة، ليزيدها قوة وعمقًا، وثباتًا ونقاء، وصفاء واصطفاء، فلا دخول لحقيقة إلا من باب الشريعة، والشريعة باب الحق، والحقيقة بيت الحضرة، والشريعة أن تعبده، والحقيقة أن تشهده!

ومن هذا المقام مقام (المشاهدة) و (الكشف) بوصول النفس إلى مرتبة شهود الحق بالحق، وانكشاف العوالم والأسرار، يؤمن الصوفي إيمانًا كاملًا (بالغيب) وتلك ميزة الديان كلها عن العلوم والفلسفات والماديات ﴿ **ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ** ﴾ [8]، فالذي لا يؤمن بالغيب يجد نفسه كافرًا بالدين كله.

ومن هنا كان اتجاه (مدينتنا المعاصرة) إلى المادة لتجد فيها الدائرة الثابتة التي تتكشف فيها الحقائق وما عدا ذلك من (الغيب)، زيف وسراب، وكان هذا أول مدخل علمي إلى الكفر يضعه أقطاب الإلحاد والفلسفات الوجودية الداعرة، والشهوات المسعورة السافرة، وذلك أن « التفسير

---

(7) من مقالنا: قضايا إسلامية في مجلة (الرأي) الليبية. العدد 42.
(8) البقرة: 2، 3.

اللاهوتي للأحداث والواقع لا يمكن إثباته بالوسائل العلمية، والدين قام على حقيقة لا سبيل إلى مشاهدتها وفحصها عمليًا، فالدين باطل زائف لا حقيقة له [(9)]، والفلسفة الشيوعية ترى أن الدين خدعة تاريخية، بل ذهب أستاذ أمريكي في طب الأعضاء إلى أن الدين كان أقسى وأسوأ خدعة في التاريخ [(10)]، ومن أجل هذا حكموا على المؤمن بالله والغيب بأنه – في ميزانهم – رجعي، وفي منطقهم متخلف.

وكارثة هذه المبدئ والأفكار – التي تحيط بعالمنا الإسلامي وتتسلل إليه _ أنها تعتبر التقدم قد جب ما قبله من مناهج الفكر، وأحل محلها المنهج العلمي، كما يرون أن تطور حركة التاريخ نسخت الإسلام نسخًا نهائيًا، ولا بد من الاعتماد على موقف علمي عقلاني تجاه الحياة المعاصرة، وهم يعتمدون على التاريخ، والوجود، والعقل، أما الله والروح والخلود فهي في نظرهم غير ذات موضوع [(11)].

وتلك المبادئ التي نادى بها هؤلاء قادت قطعانًا من البشر في وادي الإلحاد حيث ألَّهوا المادة وعبدوها، ومن المؤسف حقًا أن بعضًا من شبابنا في العالم الإسلامي قد استهواهم هذا الانتماء إلى تلك الأفكار الماركسية المسمومة والاتجاهات العلمية البحتة.

ثم هل يمنحنا العلم والعقل الإيمان بالغيب وما وراءه؟ - إن بحث قضايا التصوف والأديان من خلال الإيمان بالغيب - وهو قاعدة التفكير والاعتقاد – يبدد أمامنا جحافل الظلام، ويمزق أمام أعيننا ركام الشك، ويبلغ بنا مطالع النور، ويهدينا إلى أنوار الحقيقة.

---

(9) ص 26. الإسلام يتحدى: تأليف: وحيد الدين خان وتعريف ظفر الإسلام خان، ومراجعة وتقديم د. / عبد الصبور شاهين.
(10) ص 30: الإسلام يتحدى.
(11) الإسلام وتحديات العصر: 29 د. / حسن صعب، بيروت ط 2.

ومن حسن الحظ أن نفرًا من العلماء حينما تعمق في أسرار المادة والطاقة، شردت المادة منهم وأفلتت الطاقة من أيديهم، وارتدت كثير من الملاحظات والتجارب المعملية المادية إلى الروحانية، وما وراء هذا العالم، وهذا واحد من علمائهم (أينشتين) يرى أن الإنسان الذي لم يختبر وقفة من وقفات الصوفية حيال ذلك العالم، ولم يشعر نحوه بالروعة فهو حي حكمه حكم الميت [12].

وذلك عالم روسي (برديف Beryaef) اختبر أزمات أوروبا كلها، وشهد أزمات القيصرية في روسيا، كما شهد أزمة الشيوعية، ولم تزده هذه المواقف المحيرة إلا اعتصامًا بالضمير الروحاني وساء ظنه بالثقافات والحضارات الغربية، لأنها تستغرق النفوس بالشواغل الدنيوية التي تنحصر في السطوة والمال، ويبشر بصوفية وروحانية جديدة ؛ لأن الصوفية في نظره أعمق من الديانات ويجب أن تنتصر الصوفية على أباطيل الدعوات الاجتماعية المتشبهة بها، كما يجب أن تنتصر دولة الروح على دولة القيصر [13].

ومعنى هذا أن مناهج البحث عن (الحقيقة) قد أفلست، حين اتخذت من المادة وحدها تجربتها وتفسيرها، وهذا يتنافى مع الإنسان والخلق والدين، فالعالم الذي نعيش فيه على شفا جرف هار مع انطلاق الماديات وسيطرة العلوم، وصرامة قبضة الإنسان في الكون، وهذا يعني أن العالم لن تحل مشاكله بالوقوف على علوم المادة ونظرياتها، وتفسيراتها وحتميتها، والاحتمالات الرياضية، وحقيقة الوجود، ونظريات التطور العضوي، والكشوف الحديثة، والسنن الكونية، بل إن مشكلات هذا العالم منبعها عجزه عن إشباع روحه، لا من عجزه عن إشباع جوفه.

---

(12) عقائد المفكرين في القرن العشرين 97 وما بعدها: العقاد. الناشر (الأنجلو مصرية).
(13) عقائد المفكرين: 135.

وقد استطاع الإسلام أن يوفق بين الروح والمادة، والدين والعلم لأنه مدنية كاملة، وذلك سر خلوده وبقائه. واستمع إلى الأستاذ بروم (Broom) [14]، حيث يقرر بأنه لم تقنعه مباحثه في دراسة الحفريات الفقرية طيلة خمسين سنة بأن أنواع الحياة الأخيرة قد جاءت من طريق التطور وكفة، بل أقنعته كذلك بأن هذا التطور لم يحدث جزافًا ولا عرضًا، ولكنه حدث بهداية أو هدايات روحانية.

ومن هنا نرى أن الصوفية قد طوت هذه الأبعاد والمسافات، وصححت الانحرافات والنتوآت، ووصلت إلى النهاية من أقصر طريق حين ابتدءوا سيرهم من عالم غير عالم الشهادة، وهو عالم الوعي الروحي، على حين ضل غيرهم ضلالًا بعيدًا حين اعتمدوا على تجاربهم وأجهزتهم، ومعادلاتهم ومعاملهم.

– 3 -

إن الميزان الدقيق في الإسلام هو أن نتجه بأعمالنا إلى الله، لتصبح الحياة كلها عبادة: ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [15]، فنسمو بها وتسمو بنا، ونحولها إلى طريق الحق والخير، والحب والرحمة، وبهذا ينتقل الإنسان من الأرض إلى السماء، وإلى هذا تدعو الصوفية: إلى عبادة مخلصة لله، مع عبودية صادقة له، نتقرب إليه لنيل محبته، ومعاملة للخلق بإحسان، فالتصوف الحق: عبادة وعرفان وأخلاق، وهو: التهذيب علمًا، وتخلقًا، وتحققًا. وفي ذلك أعلى مراحل التدين، وعلينا نحن المسلمين أن نعمق هذا الاتجاه الصوفي بإبراز هذا المنهج الإسلامي الروحي، وننشر أهدافه ومعالمه – بالقدوة والسلوك والتأثير، لا بالتزييف والوعظ والشعارات والمباهاة.

---

(14) عضو الجمعية الملكية الإنجليزية: 88: عقائد المفكرين.
(15) الأنعام: 162.

وتلك هي الروحانية الصادقة _ وهي سمة الإسلام _ التي تؤهل الإنسان لخلافة الأرض، وتميزه عن غيره من الأدعياء.

فليس التصوف كلامًا لا روح فيه، وتفيهقًا لا عمل معه، وليس شططًا وخصامًا، ولا تعصبًا وجدالًا، ولا خمولًا وانهزامًا، ولا تواكلًا وهوانًا.

وليس من التصوف في شيء من يرى الله من خلال هذا الكون رؤية خداع يقول (الله) ويقنع بها هتافًا حرفيًا، ونداء ظاهريًا، لا يصل إلى روحه وكيانه، ولكن الصوفي الصادق يقولها، وما في الكون كلمة أحب إلى قلبه منها، فالعبد في حنين دائم، وشوق عريض، يراه (الجنيد) بأنه عبد ذاهب عن نفسه، متصل بذكر ربه، والحب الإلهي عند الصوفي من أكبر همومه، وهو معرفة وتمكين وتحقيق، والعبادة عند الصوفي ليست طقوسًا ولا رسومًا، وإنما هي حب أولًا وأخيرًا. يقول أبو يزيد البسطامي « توهمت أني أذكره (أي الله) وأعرفه، وأحبه، وأطلبه. فلما انتهيت رأيت ذكره سبق ذكري، ومعرفته سبقت معرفتي، ومحبته أقدم من محبتي، وطلبه لي أولًا حتى أطلبه » [16].

والتصوف هو اليقين الذي يضئ الحياة وما بعد الحياة، ويرتفع بالإنسان إلى أعلى كفاحه، وأسمى نضاله، ليجاهد النفس، ويقتلع جذور الشر، وفوق هذا كله: إخبات لله، وتعلق به، ومحبة له.

إنه حركة بعث ...

إن أمل الصوفي أن يصبح (الله) في حس العالم كله واقعًا محسوسًا، نعته الحب، ونظامه الحكمة، وبهذا يسمو الإنسان حتى تصبح أعماله وأقواله: صلاة وتسبيحًا، ويصبح الكون محرابًا يلتقي فيه مع الإنسان:

---

(16) الرسالة القشيرية: 189 (التقدم العلمية 1346 هـ مصر).

الجمادات والنباتات وعالم الطير والماء، ثم ينطلق هذا الحشد في مواكب الحياة: دعاء وعبادة ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [17].

واستمع إلى قول د / تشارلس ستانيمتز « لسوف يحول علماء الدنيا معاملهم إلى معرفة الله والصلاة، وعندما يأتي هذا اليوم، سيشاهد العالم في جيل واحد من التقدم أكثر مما شاهده في الأجيال الأربعة السابقة » [18].

إن مفهوم التصوف الذي نريده لعالمنا المعاصر، ألا نرى غير الله سيدًا، فلا خضوع إلا لله، ولا عبادة للأبطال والقادة، ولا عبودية للمال والاقتصاد والدولة، ولا عبودية للتقاليد والعادات.

هذا نظامنا الذي أبدعه المسلمون عزة واقتدارًا.

على أننا لا ننكر أن هنا وهناك بيئات صوفية وجدت في كل مكان وزمان مشوهة الخلق تؤمن بالمظاهر والأشكال، ولم يستقيموا على الطريقة، فضلوا وأضلوا، ويتحدث الإمام القشيري عن هذه الأوضاع المنحرفة من بعض الصوفية في زمنه في مفتتح رسالته: « ثم اعلموا، رحمكم الله، أن المحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم، ولم يبق في زماننا هذا من هذه الطائفة إلا أثرهم، كما قيل:

أما الخيام فإنها كخيامهم * وأرى نساء الحي غير نسائها

... مضى الشيوخ الذين كان بهم اهتداء، وقل الشباب الذين لهم بسيرتهم وسنتهم اقتداء، وزال الورع وطوي بساطه، واشتد الطمع وقوي

(17) الإسراء: 44.
(18) مجلة الرأي: العدد 42.

رباطه، وارتحل عن القلوب حرمة [19] الشريعة، فعدوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة [20]، ورفضوا التمييز بين الحلال والحرم، ودانوا [21] بترك الاحترام، وطرح الاحتشام، واستخفوا بأداء العبادات، واستهانوا بالصوم والصلاة، وركضوا في ميدان الغفلات، وركنوا إلى إتباع الشهوات، وقلة المبالاة بتعاطي المحظورات ... ولعل الله سبحانه يجود بلطفه في التنبيه لمن حاد عن السنة المثلى في تضييع آداب هذه الطريقة » [22].

وإن كل تطرف في التصوف الإسلامي، مرده إلى أثر وافد غريب، أما الجانب المتزن فهو من عمل الإسلام.



إن الصوفية تحمل وأعباء، وتضحية وابتلاء، وفتوة [23] ووفاء، وقد كان

(19) احترامها.
(20) أقوى وسيلة يصلون بواسطتها إلى مآربهم.
(21) تدينوا بعدم احترام الشيوخ.
(22) الرسالة ص 20 فما بعدها. تحقيق د. عبد الحليم محمود وزميله، وانظر اللطائف: 5 / 413.
(23) وقد أشاد القرآن بخلق (الفتوة) عندما وصف أصحاب الكهف بأنهم ﴿ فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ﴾ (الكهف: 13) وهم فتية، لأنهم آمنوا بربهم بلا واسطة (الرسالة القشيرية 473 تحقيق د. عبد الحليم محمود).
وقد وصف بهذا الخلق إبراهيم —، ففي سورة الأنبياء: 60 ﴿ قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ﴾، أو ليس من الفتوة أنه كسر أصنامهم وجعلها جذاذًا؟
ثم أخذت الفتوة تعبر التاريخ، وتمخر الآماد متطورة حتى اكتملت في سيدان رسول الله >، يقول القشيري: سمعت الأستاذ أبا علي الدقيق يقول « هذا الخلق (أي الفتوة) لا يكون كماله إلا لرسول الله >، فإن كل أحد في يوم القيامة يقول: نفسي نفسي، وهو - > - يقول: أمتي أمتي. (الرسالة 472. تحقيق د. عبد الحليم محمود).
وبهذا نجد أنفسنا أمام فتوة إسلامية تختلف عن الفتوة العربية الجاهلية، ففتوة الإسلام تسمو على فتوة الجاهلية وترتفع، وتصرع أنانيتها بالإيثار والبذل، والصدق والمروءة، وتقوم على مبدأين مهمين: الإيثار والجهاد، ولهذا يعرف الجنيد الفتوة بقوله « فضيلة تأتيها ولا ترى نفسك فيها »، والفتى عندهم: من لا يدخر ولا يعتذر، وقال عنها الحارث المحاسبي « أن تنصف ولا تنتصف » الرسالة 273. وقيل: الفتى – يطيع مولاه، ويخالف هواه، ويراقب الله ويخشاه، ويستحي منه كأنه يراه. أما جانب الجهاد، فقد رابط هؤلاء الفتيان في الثغور الإسلامية في: تركستان، وعلى الحدود بين الأناضول
=

منهم في الصدر الأول فدائيو الإسلام والصناديد الذين قاموا بالفتوحات الإسلامية شرقًا وغربًا يقتلون ويُقتلون، حتى جعلوا ظلام الأرض نورًا، وحولوا جهلها علمًا، وقلبوا ظلمها عدلًا، فكتائبهم موصولة بالله، وألويتهم حول راية القرآن معقودة، ومواقفهم في الثغور الإسلامية لصد غارات الأعداء والطارئين معروفة، فأعينهم ساهرة في (الرباطات)، لا تعرف للنوم طعمًا، ولا للراحة سبيلًا، ومثلهم الأعلى سيدنا محمد رسول الله > الذي تحمل أثقل الصعاب وأشق الكفاح: « إنا سنلقي عليك قولًا ثقيلًا» كما نشروا الفكر الإسلامي في ربوع المعمورة، فكان منه المعلمون والأساتذة والرواد الذين حملوا مشاعل الثقافة في كل اتجاه يعلمون ويربون ويهذبون.

وإليك صورًا متألقة من حياتهم ومجاهداتهم ومذاقاتهم، للاهتداء والاقتداء:

* يقول الشبلي: « أنا المأخوذ بجرائم الخلق » وهذا جانب من الفتوة الصوفية حيث يتحمل وحده أخطاء مجتمعه.

* وكان أكثر دعاء إبراهيم بن أدهم وهو من أبناء الملوك: « اللهم انقلني من ذل معصيتك إلى عز طاعتك ».

= وبلاد ما بين النهرين، وفي أسبانيا، لصد غارات المغول والبيزنطيين والإفرنج ولم يكن (الرباط) مركزًا حربيًا فحسب، بل كان دينيًا أيضًا، لا سيما بعد أن امتزجت الفتوة بالصوفية، ومن هنا وجدنا الفتوة تتلاقى وتتصافح مع الصوفية وذلك في كثير من: خصالها، وتعاليمها، وقوانينها. (انظر: الفتوة. تأليف ابن عمار البغدادي. تحقيق د. فؤاد حسانين. القاهرة 1959) بدليل وجود مؤلف سنة 612 هـ / 1216 م لأحمد بن إلياس النقاش، يسمى (تحفة الوصايا) عالج فيه (الفتوة) من الجانب الصوفي، كما أن القشيري عقد بابًا في رسالته الصوفية المشهورة سماه (باب الفتوة).
هذا، وقد تلقفت أوروبا في العصور الوسطى نظام الفتوة من المسلمين حين تم الاتصال بيننا وبين الإفرنج والنورمنديين والصليبيين في إسبانيا وصقلية وفلسطين حيث نقل شباب الإفرنج واستعار نظام الفتوة الإسلامية ومثلها العليا وطبقوه عندهم باسم (فروسية الإخوان) حتى صار الغرب يزهو بهذا الخلق ويدل على جميع الحضارات – وهو أصل من تراثنا وأمجادنا.

وقيل له مرة: إن اللحم قد غلا !!!

فقال: أرخصوه. أي: لا تشتروه. وأنشد:

وإذا غــلا شـــيء علـــيَّ تركتـــه * فيكون أرخـص مـا يكـون إذا غـلا

وكان يعمل في الحصاد، وحفظ البساتين، وينفق على أصحابه.

وقال سهل بن إبراهيم: صحبت إبراهيم بن أدهم، فمرضت، فأنفق عليّ نفقه، فاشتهيت شهوة، فباع حماره وأنفق عليّ ثمنه.

فلما تماثلت، قلت: يا إبراهيم، أين الحمار، فقال: بعناه، فقلت: فعلى ماذا أركب؟ فقال: يا أخي على عنقي. فحملني ثلاث منازل [24]!!!

* وقيل لبشر بن الحارث الحافي ت 227 هـ: بأي شيء تأكل الخبز؟

فقال: أذكر العافية وأجعلها إدامًا. وقد استشفع الخليفة المأمون بأحمد بن حنبل في أن يأذن بشر بن الحارث للمأمون في زيارته. فأبى بشر [25]!!!

وقال بشر: أشد الأعمال ثلاثة:

الجود في القلة، والورع في الخلوة، وكلمة الحق عند من يخاف منه ويرجى.

وقيل: جاءت أخت بشر الحافي إلى أحمد بن حنبل وقالت: إنا نغزل على سطوحنا فتمر بنا مشاعل الظاهرية، ويقع الشعاع علينا، أفيجوز لنا الغزل في شعاعها؟ فقال أحمد: من أنت؟ عافاك الله تعالى. فقالت: أخت بشر الحافي. فبكى أحمد وقال: من بيتكم يخرج الورع الصادق. لا تغزلي في شعاعها [26].

---

(24) الرسالة القشيرية: 1 / 53.
(25) المرجع السابق: 1 / 71.
(26) الرسالة: 1 / 286.

* والحارث المحاسبي ت 243 هـ ورث من أبيه سبعين ألف درهم فلم يأخذ منها شيئًا، قيل: لأن أباه كان يقول بالقدر [27]، فرأى من الورع ألا يأخذ من ميراثه شيئًا. ويقول الغزالي: « المحاسبي خير الأمة في علم المعاملة ».

* ودخل رجل على داود بن نصر الطائي ت 166 هـ، فرأى أمامه جرة ماء انبسطت عليها الشمس، فقال له: ألا تحولها إلى الظل؟ فقال: حين وضعتها لم يكن شمس، وأنا استحي أن يراني الله أمشي لما فيه حظ نفسي [28].

* ويقول أبو زيد البسطامي ت 261 هـ: « لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتقي في الهواء، فلا تغتروا به، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود، وأداء الشريعة [29].

* وهذا أبو تراب النخشبي ت 245 هـ يقول: ما تمنت نفسي عليّ شيئًا قط، إلا مرة واحدة: تمنت عليَّ خبزًا وبيضًا، وأنا في سفري، فعدلت عن الطريق إلى قرية، فوثب رجل وتعلق بي، وقال: كان هذا مع اللصوص، فبطحوني وضربوني سبعين خشبة. قال: فوقف علينا رجل صوفي، فصرخ وقال: ويحكم هذا أبو تراب النخشبي، فخلوني واعتذروا إليّ، وأدخلني الرجل منزله، وقدم إلي خبزًا وبيضًا، فقلت (في نفسي لنفسي): كلها بعد سبعين جلدة [30].

* ومن حكمه، الناس يحبون ثلاثة وليست لهم: النفس والروح، وهما لله، والمال وهو للورثة. ويطلبون اثنين ولا يجدونهما: الفرح والراحة، وهما في الجنة.

---

(27) كان ينكر القدر. الرسالة القشيرية: 1 / 82.
(28) المرجع السابق 1 / 76.
(29) الرسالة القشيرية: 1 / 82.
(30) الرسالة: 1 / 98.

وكان لهؤلاء الأخيار الأبرار كراماتهم – وهم خيار خلقه « لهم ما يشاءون عند ربهم ». فخبيب } حين استشهد أصحابه، وكانوا في حرب لرسول الله > ووقع هو أسيرًا، سجنه الحارث في بيته. تقول بنت الحارث هذا، لقد كنت أدخل عليه محبسه، فأجده يأكل العنب، وما بمكة كلها يومئذ ثمرة عنب واحدة، وما كان هذا إلا رزقًا رزقه الله إياه.

* ومن مبادئهم:

1 – الصوفي: لا يكدره شيء، ويصفو به كل شيء.

2 – من زاد عليك في الأخلاق زاد عليك في التصوف.

3 – إذا قلت يا رب أين الطريق إليك؟ جاءك النداء: فارق نفسك وتعال.

4 – أنين المذنبين أحب إلى الله من زجل المسبحين التياهين.

5 – الأوقات: لأصحاب القلوب. والأحوال: لأرباب الأرواح. والأنفاس: لأهل السرائر.

* ومن تعاريفهم:

1 – سئل ذو النون المصري عن العارف. فقال: كان ههنا. فذهب [31] وعرفه القشيري: بأنه كائن بائن [32].

2 – الوجد: المصادفة، والمواجيد: ثمرات الأوراد [33].

3 – التواجد: يوجب استيعاب العبد. والوجد: يوجب استغراق العبد. والوجود: يوجب استهلاك العبد، فهو كمن شهد البحر، ثم ركب البحر، ثم غرق في البحر [34].

---

(31) 1 / 193.
(32) اللطائف: 2 / 253.
(33) الرسالة: 1 / 202.
(34) المرجع السابق: 1 / 204. فالتواجد: بداية، والوجد: واسطة، والوجود: أعلى درجات الشهود. اللطائف: 6 / 115.

4 – الخلوة: صفة أهل الصفوة، والعزلة: من أمارات أهل الوصلة [35].

5 – حقيقة المحبة أن تهب كلك لمن أحببت، فلا يبقى لك منه شيء [36].

تلك هي الصوفية التي أريدها، وأدعو لها [37]، وأعتز بها – عقيدة وسلوكًا، قوةً وعملًا، أملًا وعزمًا، تذوقًا ووجدًا، إشراقًا وفيضًا، إنها يقظة في الوجدان، والشعور والحس، وإن في غيبتها عن العالم الإسلامي يغيب عنا كل شيء، ونعيش في فراغ روحي أخلاقي رهيب، وندفع غرم الحضارات المادية الزائفة التي نعيش فيها، ولا يصيبنا من غنمها شيء، وإذا كان الأمر كذلك فهل عالجنا كل مشكلاتنا وقضايانا على أرضنا، ولم يبق منها إلا الهجوم على التصوف والصوفية ونسينا معسكرات الكفر والإلحاد، والتخريب والهدم التي تحيط بنا، من بين أيدينا ومن خلفنا، وهي مهما غيرت أشكالها وأسماءها وطقوسها – تقف للإسلام بالمرصاد، وتتربص به وبأهله الدوائر! لتنهشنا أنيابها المسعورة الحاقدة، وتنوشنا أقلامها المسمومة الجائرة! « إن الاحتشام، والاحترام، والسخاء، وعظمة الأخلاق، والقيم، والمشاعر السامية، وكل ما يمكن اعتباره « نفحات إلهية » - لا يمكن الحصول عليها من طريق الإلحاد [38].

فارفعوا أيديكم عن (رجال الله) وانظروا ما وراءكم ... إلى الخطر الداهم الذي تسلل إلى بلاد المسلمين بليل، ليبدد نورها ظلامًا، وسلامها قتالًا، وكبرياءها ضعة، ووحدتها فرقة.

---

(35) الرسالة: 1 / 271.
(36) الرسالة: 2 / 615.
(37) لا أريد بالدعوة إلى الصوفية أن تشمل أفراد المجتمع كله، فهذا تكليف بما لا يستطاع، وإنما أرجو أن نسعى إليها ما استطعنا، ليكون في مجتمع الإسلام نماذج وطلائع لها.
(38) الإسلام يتحدي: 188 (من كلمة رئيس أكاديمية نيويورك سابقًا).



وإلى اللائمين، والمتغامزين، والشانئين، والمشوهين للمثل العليا التي دعت إليها الصوفية [39] الحقة – عن جهل أو عمد – أقول لهم جميعًا ما قال الشاعر العربي:

أقلوا عليهم – لا أبا لأبيكم – من اللوم أو سدوا المكان الذي سدوا.

ولا أنسى في خاتمة هذا الكتاب أن أذكر صديقي وأخي الأستاذ الدكتور إبراهيم بسيوني أستاذ الأدب الصوفي بجامعة عين شمس، لما له من فضل على الكتاب وصاحبه.

وللأستاذ محمد بلحاج المدرس بجامعة الفاتح تقديري، لما أسدى إلي من يد، وقدم من عارفة.

و « الحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ».

طرابلس الغرب.

في 18 جمادي الأولى 1396 هـ الموافق 17 مايو 1976 م.

أحمد علم الدين الجندي

---

(39) عندما أقول: التصوف أو الصوفية – فإنما أقصد النقاء الإسلامي. فليس من التصوف إذًا أولئك الأدعياء المضللون الذين يقومون بحركات مريبة باسم الإسلام، دون أن يكون في قلوبهم إيمان، وفي سلوكهم صدق. فهؤلاء محتالون منافقون، والطريقة منهم براء، وقد حمل على أمثال هؤلاء ابن خلدون في مقدمته ص 372.

الفصل الأول

عبد الكريم القشيري

بين مولده ووفاته

1 – حياته وعصره وأخباره:

عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد النيسابوري. الأستاذ أبو القاسم القشيري الملقب زين الإسلام. ولد } سنة: ست وسبعين وثلاثمائة، في شهر ربيع الأول، في بلدة: أستوا [1]، وكان سكانها من العرب الذين قدموا من خراسان. أما (نيسابور) فكانت في هذا الوقت عاصمة خراسان، وهي مركز العلماء ومهد العلوم والفنون.

نشأ القشيري يتيمًا، وكانت تظهر عليه النجابة في صغره، ولما شب ونما لزم عتبة باب أبي علي الدقاق، فأشار عليه أستاذه بأن يشتغل بعلوم الشريعة أولًا. فخرج إلى درس أبي بكر محمد بن أبي بكر الطوسي ت 405 هـ. وأخذ عنه الفقه، ثم انتقل بإرشاد أستاذه إلى الإمام أبي بكر بن فورك ت 406 هـ فأخذ عنه علم الأصول وبرع فيه، ثم اختلف بعد وفاته إلى مدرسة الأستاذ أبي إسحاق إبراهيم بن محمد الإسفراييني ت 418 هـ. ودرس بها، وهي مدرسة منقطعة النظير تخرج منها أئمة العلماء كأبي بكر البيهقي الحافظ ت 458 هـ وغيره، ثم نظر بعد ذلك في كتب القاضي أبي بكر الباقلاني ت 403 هـ، ومع ذلك كله كان لا يفارق مجالس أبي علي الدقاق.

وقد ذكر القشيري سلسلة بيعته بلسان شيخه الدقاق [2].

---

(1) بضم الهمزة وسكون السين المهملة وضم التاء المثناة من فوقها أو فتحها وبعدها واو ثم ألف.
(2) طبقات الشافعية 5 / 157 ط الحلبي.

أمـا شـيوخه: فهـم كثـر نـذكر مـنهم: أبـو علـي الـدقاق، وأبـو إسـحاق إبـراهيم (الإسفراييني) وأبو نعيم أحمد المهرجاني، وأبو الحسن أحمد بن محمد الخفاف، وأبـو عبد الله الحسن البزار ...

أما تلاميذه: فهم كثير، منهم: أبو بكـر أحمـد بـن علـي الخطيـب البغـدادي، وأبـو إبراهيم إسماعيل العلوي، وأبو عبد الله الفراوي.

وعقد القشيري مجلس الإملاء في الحديث سـنة سـبع وثلاثيـة وأربعمائـة، وكـان يحضر مجلسه آلاف من الناس. وقد اشتغل بالتدريس في: نيسابور، وبغـداد، ومـرو، ونسا، كما قضى معظم وقته في التأليف والتنسك، والاجتماع بالأصحاب والمريـدين، ومجالس الذكر والسماع.

وكان عديم النظير في مجالس التذكير، وقد شرع في عقد هذه المجالس في حياة شيخه الدقاق وهو في الثلاثين من عمره، وكانت تعقد في المسجد المطرز.

ذكره أبو الحسن الباخرزي في كتابه « دميـة القصـر » فقـال: « جـامع لأنـواع المحاسن، تنقاد له صعابها ذلل المراسن، فلو قرع الصـخور بصـوت تحـذيره لـذاب، ولو ربط إبلـيس فـي مسـجد تـذكيره لتـاب، ولـه فصـل الخطـاب، فـي فصـل المنطـق المستطـاب، ماهر في التكلم على مذهب الأشـعري، خـارج فـي إحاطتـه بـالعلوم عـن الحد البشري، كلماته للمستفيدين فوائد وفرائد، وأعقاب منبره للعارفين وسائد » [3].

هذا مجمل ما رددته المصادر [4] عن الإمام القشيري، ولكن بقي في

(3) دمية القصر 194 فما بعدها، طبقات الشافعية 3 / 243 فما بعدها.
(4) وانظر في ترجمته: تاريخ ابن الأثير 8 / 118 ط الاستقامة.
- البداية والنهاية لابن كثير 12 / 107 ط السعادة.
- وفيات الأعيان لابن خلكان 2 / 375.
- مرآة الجنان لليافعي 3 / 91 فما بعدها.
=

شعوري وخاطري صورة عن هذا الإمام أسجل جوانب منها مـن خـلال قراءتـي فـي مؤلفاته لتكتمل هذه النماذج الرفيعة، وتلك اللفتات الآسرة، وذلك العطاء المتجـدد مـن تاريخه العطر، حياةً ومماتًا:

** عربي النسب، قشيري الأب، سلمي الأم، شافعي أشعري سني.

** شـيخ المشـايخ وأسـتاذ الجماعـة، ومقـدم الطائفـة، وإمـام لأمـة، أجمـع أهـل عصره، على انه سيد زمانه، وقدوة وقته، وبركة المسلمين في عصره.

** كان يقف بين رجال الإسلام في عصره بقامته الفارعة فلا يطاوله أحد.

** وكان ثمرة لنتاج دراسات عقلية لغوية أدبية دينية واسعة واكبتهـا الفيوضـات والإلهامات، وباركها بعد هذا كله الاصطفاء الإلهي فكان من رجـال الله الـذين يعـدهم

ويصنعهم قبل أن يختارهم.

** لم يكن القشيري فقيهًا أو متكلمًا أو سنيًا أو كاتبًا أو شاعرًا فحسب ولكنه كان كل هذا أو أكثر من هذا.

** وكان جانب الربانية في القشيري مهيمنًا عليه، فتجرد من عبودية الدنيا إلى عبادة الله، ومن إرادتها الجامحة إلى إرادته، ومن رغباتها الهادرة إلى رغبته، فأصبح الحضور عنده لله ولا سواه، والكلمة لله ولا سواه.

= - شذرات الذهب 3 / 318 فما بعدها لابن العماد الحنبلي ط بيروت.
- دمية القصر للباخرزي 194 _ 196.
- النجوم الزاهرة 5 / 91.
- طبقات الشافعية للسبكي 3 / 243 فما بعدها، ط أولى. الحسينية مصر.
- طبقات المفسرين للسيوطي 21 / 22.
- مفتاح السعادة لطاش كبرى زاده 2 / 188.
- كشف الظنون 520، 882.

** جند قلمه وكلمته للدعوة إلى الله حتى تصل إلى ضمير الأمة المسلمة، كما جرد حياته للدفاع عن مبادئه ومثله العليا، فنصر الحق واستقام على جادته، ودعا إليه، وتمسك به، فلم يكن سلبيًا مثل غيره، بل زج بنفسه في دروب الحياة، وكثيرًا ما كان يغمز أصحاب السلطان الذين لا يحسنون سياسة الرعية (لطائف الإشارات 5 / 294).

** وكان من أعدل الصوفية مذهبًا، وأصحهم منهجًا، وأقومهم مسلكًا، فلم يندفع إلى المذاهب الجامحة، والتيارات الطائشة، ولم يتجه كما اتجه غيره إلى القشور والطقوس والرسوم، يدور حولها ومن وراء ذلك باطن هواء، وضمير خواء.

** وكانت له في معاناته إشارات خفية لطيفة تصل به إلى تصوير النفس وخلجاتها، والروح ومساراتها، وهو في هذا يخترق حجب الماديات مترقيًا إلى المقامات الروحية، والفيوضات الربانية، والمكاشفات والأسرار.

** أقام القشيري صوفيته على أصل من القرآن وركيزة من السنة، وأكبر آماله أن يتم لقاء بين الشريعة والحقيقة [5]. فمراعاة الحقيقة عنده لا تتم إلا بمراعاة الشريعة.

** وكان صادقًا في بدايته ووسيلته وغايته، فطهر قلبه من كل سانحة، وصفى نفسه من كل كدورة، والصادقون في الصوفية هم: الذين صدقوا في الطلب فقصدوا [6]، ثم صدقوا حتى وردوا، ثم صدقوا حتى شهدوا، ثم صدقوا حتى وجدوا، ثم صدقوا حتى فقدوا (اللطائف 1 / 237).

---

(5) اللطائف 1 / 276، 166.
(6) يشير القشيري إلى مراتب أهل الحق، وغاياتهم في كل مرحلة من مراحل معراجهم الروحي.

** كل عمل عنده للعبد مرتبط بالعناية الإلهية لا بالمجهود الإنساني [7].

** على العبد أن يكون فانيًا بحقوق ربه عن حظوظ نفسه، « وشتان بين عبد صباحه مفتتح بعبادته، ومساؤه مختتم بطاعته، وبين عبد صباحه مفتتح بمشاهدته، ورواحه مفتتح بعزيز قربته » (اللطائف 5 / 111).

** العبادة الحقة هي المجردة عن الطمع، والثواب والعقاب [8].

** كل شيء ناطق بالوحدانية إما نطق مقالة كان في حال الإنسان وإما نطق دلالة _ كما في الجمادات [9].

** الصوفية اجتماعيون غير منعزلين كما يظن بهم بعض الناس.

** التصوف لا ينافي العمل والحركة.

** التصوف لا يمكن إن يسود المجتمع كله، بل هو محصور في طائفة مخصوصة [10] أو كما جاء في الرسالة القشيرية ص 127: « هم أهل بيت واحد لا يدخل فيهم غيرهم »، ولهذا كانت لغتهم رمزية أكثر منها معجمية، فهي لغة كشف وذوق.

** العقل آلة لتصحيح الإيمان في البداية والالتجاء إليه للوصول يعد قاطعًا من القواطع ؛ لأن العقل يستمد أحكامه من المحسات فلا يدرك الغيب، وإنما يجب أن يعتمد على الملكات الأعلى: كالروح والسر وسر السر في العروج نحو القمم الشواهق [11].

** غاية التصوف تحقيق الاتصال المباشر بالخالق الأعلى.

---

(7) اللطائف 1 / 62.
(8) اللطائف 5 / 230.
(9) اللطائف 5 / 290.
(10) اللطائف 3 / 73.
(11) اللطائف 1 / 43، 279، 6 / 134.



** أما المحنة القاسية والفتنة التي طار شررها بين السلطان (طغرل) ووزيره وبين القشيري بخاصة والأشاعرة بعامة حتى شملت (خراسان) كلها وكثيرًا من البلاد العربية، وكان القشيري وأصحابه ضحيتها حين هجم الأوباش عليه وراحوا يجرونه في الطرقات حتى قبض عليه من قبل السلطان، ولكن الشعب خلصه من جور السلطان بعد معارك ضارية تم النصر فيها للشعب على السلطان ووزيره، ولكن القشيري الصامد المؤمن غادر المشرق كله في سبيل عقيدته وترك أهله وبيته وأولاده عشر سنوات كاملة يسيح في الأرض يتعبد وينحني صلبه على أجزاء القرآن، وسوره، ويقرأ، ويدرس، ويجلس أمام مصباح نحيل خافت يؤلف ويكتب ويلتمس الهداية والفتح.

وفي أثناء قيامه بشعيرة الحج التقى بأصحابه الذين فروا من ديارهم وأخرجوا منها بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، وخطب فيهم على المنبر، وما هي إلا لحظة حتى أطرق ثم صاح « يا أهل خراسان ... بلادكم، إن (الكندري) غريمكم يقطع الآن إربًا إربًا، وإني أشاهده الساعة! »، يقول السبكي في طبقاته: « ضبط التاريخ فكان ذلك اليوم بعينه وتلك الساعة بعينها قد أمر السلطان بأن يقطع (الكندري) إربًا أربًا، وأن يرسل عضو منه إلى كل مكان » (12).

أقول: أما المحنة القاسية فقد صهرته في بوتقتها، وجعلت من رجلًا صابرًا محتسبًا صامدًا لا يلين ولا ينحرف على الرغم من قسوة النفي والتشريد، وظلمة الطغيان والتهديد.

ولهذا يقرر القشيري ضرورة السفر إن نبا بك المكان واشتد الجور، وتعرضت العقيدة للمحنة بشرط أن يصحب السفر عن المكان سفر عن النفس (13).

---

(12) طبقات الشافعية للسبكي 2 / 272.
(13) اللطائف 2 / 236، 5 / 9، 6 ، 158.

** أما أستاذه الروحي فهو أبو علي الدقاق، لسان وقته وإمام عصره، وقد ملك عليه الدقاق قلبه وعقله حتى توثقت بينهما الصلة الروحية فاختاره لكريمته وقد وهبه الله منها ستة أبناء كلهم عبادلة وكلهم عباد ليل وأنضاء عبادة، وبنتًا واحدة هي « أمة الرحيم » _ واستمع معي إلى علاقة المريد بالشيخ، والتلميذ بالأستاذ يقررها القشيري فيقول: « لم أدخل على الأستاذ أبي علي رحمه الله في وقت بدايتي إلا صائمًا وكنت أغتسل قبله! وكنت أحضر باب المدرسة غير مرة فأرجع من الباب احتشامًا من أن أدخل عليه، فإذا تجاسرت مرة ودخلت، كنت إذا بلغت وسط المدرسة يصحبني شبه خدر حتى لو غرز في إبرة مثلًا لعلي كنت لا أحس بها، ثم إذا قعدت لواقعة وقعت لي لم أحتج أن أسأله بلساني عن المسألة، فكلما كنت أجلس كان يبتدئ بشرح واقعتي، وغير مرة رأيت منه هذا عيانًا » [14].

** أما أصدقاؤه: فمنهم: أبو عبد الرحمن السلمي وأبو المعالي الجويني.

** وأخيرًا نالت المحن والآلام والأسفار منه حتى خبا ذلك السراج عام 465 هـ بعد أن نال المرض من جسمه كذلك، ولم ينل شيئًا من قلبه ودينه فكان يؤدي الصلاة قائمًا حتى آخر لحظة. ويتفق ابن كثير والسبكي على أنه « كانت له فرس يركبها قد أهديت له فلما توفى، لم تأكل علفًا حتى نفقت بعده » [15]. طيب الله ثراه، وبرد مثواه ومترعه، ونور ضريحه ومضجعه.

2 – مؤلفاته وآثاره

كان من نتائج هذا الفكر الذي استكشف المعارف، واستخرج أبكار الإشارات _ تحقيقًا للوعي الروحي _ هذه المؤلفات:

---

(14) الرسالة: 134.
(15) الإمام القشيري ص 43 دكتور إبراهيم بسيوني.



1 – التيسير في علم التفسير: وهو أول كتبه تأليفًا، وفرغ منه قبل سنة 410 هـ - مخطوط (ليدن والهند).

2 – الرسالة القشيرية: وطبعت كثيرًا، وترجمت، وألفت 437 هـ.

3 – التحبير في التذكير: طبع في القاهرة 1968 م وحققه الدكتور إبراهيم بسيوني.

4 – آداب الصوفية: مفقود.

5 – لطائف الإشارات: وهو تفسير صوفي على طريقة أرباب الحقائق، طبع لأول مرة بالقاهرة، دار الكاتب العربي، بتحقيق الدكتور إبراهيم بسيوني في ستة أجزاء، وقدم له الأستاذ حسن عباس زكي.

6 – كتاب الجواهر: مفقود.

7 – عيون الأجوبة في أصول الأسئلة: مفقود.

8 – كتاب المناجاة: مفقود.

9 – كتاب المنتهى في نكت أولي النهى: مفقود.

10 – كتاب نحو القلوب الكبير: تذكر المصادر أنه مفقود، وبحمد الله اكتشفت أصوله المخطوطة وهي في مكتبة طلعت تصوف 1593 وعثرت على مخطوطات أخرى من تونس، ومن حماة بسوريا يتملكها الأديب المحقق الأستاذ مصطفى الحدري، وقد أسرع بإرساله إلي مشكورًا، وقد حققه الدكتور إبراهيم بسيوني بالاشتراك معي.

11 – كتاب نحو القلوب الصغير: وهو هذا الكتاب الذي يحقق لأول مرة.

12 – كتاب أحكام السماع: ذكرت المصادر أنه مفقود، وقد نشره المعهد المركزي للأبحاث الإسلامية – باكستان. وحققه د. فير تحت عنوان: الرسائل القشيرية. وعربه الأستاذ السورتي.

13 – كتاب الأربعين حديثًا: مخطوط (ليدن).

14 – الأحاديث التي سمعها القشيري بسند متصل عن شيخه الدقاق: دار الكتب الآصفية. مخطوط.

15 – رسالة ترتيب السلوك نشرت بالمعهد المركزي (باكستان) حققها د.(فير) محمد حسن.

16 – شكاية أهل السنة بحكاية ما نالهم من المحنة: نشرت بالمعهد المركزي (باكستان).

17 – كتاب سير المشايخ.

18 – كاتب المعراج: حققه الدكتور علي عبد القادر. ط. دار الكتب الحديث 1946 م بالقاهرة.

19 – استضافة المرادات: إستانبول (مخطوط).

20 – بلغة المقاصد في التصوف.

21 – ناسخ الحديث ومنسوخه.

22 – حياة الأرواح والدليل إلى طريق الصلاح: مخطوط (الأسكوريال).

23 – منثور الخطاب في مشهور الأبواب: مخطوط (الجزائر).

24 – الفصول في الأصول: مخطوط (القاهرة).

25 – مجالس أبي علي الدقاق.



26 – التوحيد النبوي: مخطوط (القاهرة).

27 – اللمع في الاعتقاد: مخطوط (القاهرة).

28 – شرح أسماء الله الحسنى: طبع بالقاهرة 1969 م، ونشره الأستاذ أحمد عبد المنعم الحلواني.

29 – فتوى محررة في ذي القعدة سنة 436 هـ، أوردها السبكي في طبقاته جـ 3.

30 – ديوان شعر.

31 – القصيدة الصوفية: ذكرها الحلواني في مقدمة كتابه (شرح أسماء الله الحسنى).

32 – المقامات الثلاثة: له بطاقة بمكتبة جامعة القاهرة، والأصل غير موجود.

33 – الفتوة.

34 – الحقائق والرقائق: مخطوط. بمكتبة جستر بيتي. دبلن. أيرلندا، رقم 3052 وتاريخ النسخ 775 هـ. ولم يذكر هذا الكتاب أحد من أصحاب التراجم والسير، ولقد طلبت تصويره لتحقيقه ونشره.

وأرجح أن آثار القشيري التي سبقت آنفًا هي أكمل آثار ظهرت له حتى الآن، لا سيما أن السبكي قد أشار إلى تأليفه فبلغت عنده ثلاثة عشر مؤلفًا، وعند الدكتور علي عبد القادر ثلاثة وعشرين، وعند الدكتور إبراهيم بسيوني خمسة وعشرين، وفي هدية العارفين للبغدادي ستة عشر مؤلفًا.

3 – شعر القشيري

سبق أن أشرت إلى أن للقشيري ديوانًا من الشعر، ولكنه مفقود حتى الآن، ولم تشر المصادر أنه ألف ديوانًا شعريًا إلا إشارة واحدة وردت في مصدر معاصر [16]، ولم تذكر أين يوجد هذا الديوان، ولهذا اتجهت إلى آثاره الموجودة: مطبوعة أو مصورة أو مخطوطة لأستخرج من خلالها شعره، وقد قسمت هذه المادة الشعرية التي عثرت عليها إلا ثلاثة أقسام:

أ – نوع جمعته من كتب الطبقات والتراجم والسير.

ب – ونوع جمعته من غضون تراثه ومؤلفاته.

ج – وآخر استشهد به في كتبه ومؤلفاته.

أ – شعره من خلال كتب التراجم والسير

قال رحمه الله [8]:

يـــا مـــن تقاصـــر شـــكري عـــن أياديـــه

وكـــــل كَـــــل لســـــان عـــــن معاليـــــه

وجـــوده لـــم يـــزل فـــردًا بـــلا شـــبه

عـــلا عـــن الوقـــت ماضـــيه وآتيـــه

لا دهـــــر يخلقـــــه، لا قهـــــر يلحقـــــه

لا كشـــــف يظهـــــره، لا ســـــتر يخفيـــــه

---

(16) الرسائل القشيرية 26، تحقيق د ، فير.
(17) طبقات الشافعية: ترجمة القشيري 3 / 243.

لا عـــــد يجمعــــه، لا ضـــــد يمنعـــــه

لا حـــــد يقطعــــه، لا قطـــــر يحويـــــه

لا كـــون يحصــــره، لا عـــين تبصـــــره

ولــــيس فـــي الـــوهم معلـــوم يضــــاهيه

جلالـــــــــه أزلـــــــــي لا زوال لـــــــــه

وملكـــــه دائـــــم لا شـــــيء يفنيـــــه

وقال أيضًا [18]:

جنبــــــاني المجـــــون يـــــا صـــــاحبيا

واتلـــــوا ســـــورة الصـــــلاة عليـــــا

قـــــد أجبنـــــا لزاجـــــر العقـــــل طوعـــــا

وتركنـــــا حـــــديث ســـــلمى وميـــــا

ومنحنـــــا لموجـــــب الشـــــرع نشـــــرا

وشـــــرعنا لموجـــــب اللهـــــو طيـــــا

ووجـــــدنا إلـــــى القناعـــــة بابـــــا

فوضـــــعنا علـــــى المطـــــامع كيـــــا

إن مـــــن يهتـــــدي لقطـــــع هـــــواه

فهـــــو فـــــي العـــــز حـــــاز أوج الثريـــــا

(18) المرجع السابق.

والـــــذين ارتـــــووا بكـــــأس منـــــاهم

فعلـــى الصـــد ســـوف يلقـــون غيـــا

وقال أيضًا [19]:

لا تــــدع خدمـــة الأكـــابر واعلــــم

أن فـــي عشـــرة الصـــغار صـــغارا

وابـــغ مـــن فـــي يمينـــه لـــك يمـــن

وتـــرى فـــي اليســـار منـــه يســـارا

وقال أيضًا [20]:

لـــو كنـــت ســـاعة بيننـــا مـــا بيننـــا

وشــــهدت كيـــف تكـــرر التوديعـــا

أيقنـــــت أن مــــن الـــــدموع محــــدثا

وعلمـــت أن مـــن الحـــديث دموعـــا

وقال أيضًا [21]:

ســقى الله وقتًــا كنــت أخلــو بــوجهكم

وثغـر الهـوى فـي روضـة الأنـس ضـاحك

أقمنــــا زمانــــا والعيــــون قريــــرة

وأصــــبحت يومًــــا والجفــــون ســــوافكُ

(19) طبقات الشافعية 3 / 248، شذرات الذهب 3 / 320.
(20) طبقات الشافعية ج 3 ترجمة القشيري، والبداية والنهاية لابن كثير 12 / 107.
(21) شذرات الذهب 3 / 321.

وقال أيضًا (9):

وإذا ســـــقيت مــــن المحبـــــة مصـــــة

ألقيـــت مـــن فـــرط الخمـــار خمـــاري

كـــم تبـــت قصـــدًا ثـــم لاح عـــذاره

فخلعـــت مـــن ذاك العـــذار عـــذاري

وقال أيضًا (9):

أيهـــا الباحـــث عـــن ديـــن الهـــدى

طالبًـــــا حجـــــة مـــــا يعتقـــــده

إن مـــــا تطلبـــــه مجتهـــــدا

غيـــر ديـــن الشـــافعي لا تجـــده

وقال مرتجلًا عندما صعد المنبر، وشخص إلى السماء ضارعًا، والناس من حوله يتفرسون وجهه، وصاح: « يا أهل خراسان ... بلادكم بلادكُم! إن الكندري غريمكم يقطع الآن إربًا إربًا، وإني أشاهده الساعة » ثم قال:

عميـــد الملـــك ســـاعدك الليـــالي

علـــى مـــا شـــئت مـــن درك المعـــالي

فلـــم يـــك منـــك شـــيء غيـــر أمـــر

بلعـــن المســـلمين علـــى التـــوالي

---

(22) طبقات الشافعية.
(23) المرجع السابق.

فقابلـــــك الـــــبلاء بمـــــا تلاقــــــي

فــــذق مـــا تســـتحق مـــن الوبـــال [24]

وقال في رمد الحبيب:

يـــــا مـــــن تشـــــكي رمـــــدا مســــه

لا ترفــــع الشـــــكوى إلــــى خالقــــك

موجــــب مــــا مســـك مـــن عـــارض

أنـــك لـــم تنظـــر إلــى عاشـــقك [25]

وله أيضًا [26]:

الأرض أوســــــــــــع بقعـــــــــــــة

مـــــن أن يضـــــيق بـــــك مكـــــان

وإذا نبـــــــا بـــــــك منـــــــزل

ويظـــــــل يلحقـــــــك الهـــــــوان

فاجعـــــــل ســـــــواها مغرســــــا

ومـــــن الزمـــــان لـــــك الأمـــــان

ومن غزلياته الرقيقة [27]:

قـــــالوا بثينـــــة لا تفـــــي بعـــــداتها

روحـــــي فـــــداء عـــــداتها ومطالهـــــا

(24) دمية القصر 195.
(25) دمية القصر 195.
(26) دمية القصر 195.
(27) دمية القصر 195.

إن كـــان نجـــز عـــداتها متـــأخرًا
فلقـــد تشـــرفنا بنقـــد مقالهـــا

وله أيضًا [28]:

مـــا خضـــابي بيـــاض شـــعري إلا
حـــذرًا أن يقـــال شـــيخ خليـــع

يلاحظ في المقطع الأول الذي يتحدث فيه عن وحدانية الله وتنزيهه أن فواصله قصيرة مؤثرة قد أخذت أقصى سرعتها، وانطلق من خلالها ما يشبه الذكر والتسبيح، والتعظيم والتمجيد، للواحد الأحد، وهذا ديدن القشيري عندما يغيب عن نفسه ويستولي عليه اسم « الله » الذي لا تمسه علة، ولا تميزه عزلة، ولا تلحقه آفة، ولا تدركه مسافة، فلا معين يساعده، ولا منازع يعانده!

واستمع إليه في تسبيحة علوية من تلك التسابيح التي أحاطته به، واستولت عليه وذلك في مفتتح « رسالته »: « فسبحانه من عزيز لا حد يناله، ولا عد يحتاله، ولا أمد يحصره، ولا أحد ينصره، ولا ولد يشفعه، ولا عدد يجمعه، ولا مكان يمسكه، ولا زمان يدركه، ولا فهم يقدره، ولا وهم يصوره ».

فهذا النص النثري لا يقل في تأثيره وفواصله وموسيقاه عن المقطع الشعري السابق والذي يدور حول الفكرة نفسها.

---

(28) دمية القصر 195.

ب – شعره من خلال آثاره وتراثه

يقول القشيري:

1 - « وعزيز من يصدق في الصداقة، فيكون في الباطن كما يرى في الظاهر، ولا يكون في الوجه كالمرأة ومن ورائك كالمقراض ». وفي معناه قلت:

من لي بمن يثق الفؤاد بوده
فإذا ترحل لم يزغ عن عهده

يا بؤس نفسي من أخ لي باذل
حسن الوفاء بوعده لا نقده

يولى الصفاء بنطقه لا خلقه
ويدس صابا في حلاوة شهده

فلسانه يبدي جواهر عقده
وجنانه يغلي مراجل حقده

لا هم إني لا أطبق مراسه
بك أستعيذ من الحسود وكيده

2 – وفي قوله تعالى: ﴿ **كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ العَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ** ﴾ [الزُّمر: 25]، « أشد العذاب ما يكون بغتة، كما أن أتم السرور ما يكون فلتة، ومن الهجران والفارق ما يكون بغتة غير متوقع، وهو أنكى للفؤاد، وأشد وأوجع تأثيرًا في القلب ». وفي معناه قلنا:

فبت بخير والدني مطمئنة
وأصبحت يومًا والزمان تقلبا

وأتم السرور وأعظمه تأثيرًا ما يكون فجأة _ قال قائلهم [29]:

---

(29) هذا من شواهد القشيري.

بينمـــــا خـــــاطر المنـــــى بـــــالتلاقي
ســـــابح فــــــي فــــــؤاده وفـــــؤادي
جمـــــــع الله بيننـــــــا فالتقينـــــــا
هكـــــذا صـــــدفة بـــــلا ميعـــــاد

(اللطائف: 5 / 279)

3 – ويتحدث عن انتظار اليسر من الله، وهو صفة المتوسطين في الأحوال، الذين انحطوا عن حد الرضا، واستواء وجود السبب وفقده، وارتقوا عن حد اليأس والقنوط، وعاشوا في أفياء الرحال يعللون بحسن المواعيد وأبدا هذه حالتهم: [9]

إن نابـــــك الـــــدهر بمكروهـــــه
فعـــــش بتهـــــوين تصـــــانيفه
فعـــــن قريـــــب ينجلـــــي غيمـــــه
وتنقضـــــي كـــــل تصـــــاريفه

(اللطائف: 6 / 169 – النجوم الزاهرة: 5 / 91)

4 – وفي تفسير قوله تعالى: « يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ».

« ويقال: إن المؤمن وثق بحسن إفضاله، فاغتر بطول إمهاله، فلم يرتكب الزلة لاستحلاله، ولكن طول حلمه عنه حمله على سوء خصاله، وكما قلت:

---

(30) فقل ...
(31) غمه.

يقـــــول مـــــولاي: أمـــــا تســـــتحي

ممـــــا أرى مـــــن ســـــوء أفعالـــــك

فقلـــت [32]: يـــا مـــولاي رفقًـــا فقـــد

جرأنـــــــي كثـــــــرة أفضـــــــالك

5 – وفي قوله تعالى: « تعرف في وجوههم نضرة النعيم ».

« فأحوال المحب شهودًا عليه أبدًا. فإن كان الوقت وقت وصال فاختياله ودلاله، وسروره وحبوره، ونشاطه وانبساطه. وإن كان الوقت وقت غيبة وفراق، فالشهود عليه نحوله وذبوله، وحنينه وأنينه، ودموعه، وهجوعه، وفي معناه قلت:

يـــا مـــن تغيـــر صـــورتي لمـــا بـــدا

لجميـــع مـــا ظنـــوا بنـــا _ تحقيـــق [33]

وقلت:

ولمـــا أتـــى الواشـــين أنـــي زرتهـــا

جحـــدت حـــذارًا أن تشـــيع الســـرائر

فقـالوا: نـرى فـي وجهـك اليـوم نضـرة

سـرت فـي محيـاك ... وهـاذاك ظـاهر [34]

---

(32) في الأصل: قلت، وعدلناها: فقلت – ليستقيم الوزن.
(33) ما ظهر على أساريري من أشياء حاولت كتمانها قد حقق ظنون الواشين والعاذلين ... فلا فائدة – فالصب تفضحه عيونه! (المحقق).
(34) في الأصل: كست محياك. وعدلناها إلى: سرت في محياك. ليستقيم الوزن، ولأن (سرت) قريبة من (كست) في الكتابة.

وبـــــردك لا ذاك الــــذي كــــان قبلـــــه

بـــه طيـــب نشـــر لـــم تشـــعه المجـــامر

فمـــا كـــان منـــي مـــن بيـــان أقيمـــه

وهيهـــات أن يخفـــى مريـــب مســـاتر

(اللطائف: 6 / 270 وما بعدها)

6 – وعند تفسيره لقوله تعالى: « وما يتبع أكثرهم إلا ظنًا ».

« أرباب الحقائق على بصيرة وقطع، ولا يجوز بوجه من الوجوه أن يكون أهل المعرفة به سبحانه – فيما يعود إلى صفته – على الظن.

وكما قلنا:

طلـــع الصـــباح فـــلات حـــين ســـراج

وأتـــى اليقـــين فـــلات حـــين حجـــاج

حصـــــل الــــذي كنـــا نؤمـــل نيلـــه

مـــن عقـــد ألويـــة وحـــل رتـــاج

والبعـــــد قـــــوض بالـــــدنو خيامـــــه

والوصــــل وكـــــد ســـــجله بعنـــــاج

قـــــد حـــــان للســـــرور فحـــــيهلا [35]

لهـــــواجم الأحـــــزان بالإزعـــــاج

(اللطائف: 3 / 95 فما بعدها)

---

(35) اسم فعل أمر بمعنى: عجل إليه، وحيهل: تتعدى بنفسها وبعلى وباللام والباء، وهي مركبة من (حي) بمعنى: أقبل، و (هلا) التي للحث والعجلة.

7 – وفي تفسير قوله تعالى: « ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور ».

« ليس للأحوال الدنيوية خطر في التحقيق، ولا يعد زوالها وتكدرها من جملة المحن عند أرباب التحصيل، لكن المحنة الكبرى والزرية العظمى ذبول غصن الوصال، وتكدر مشرب القوم، وأفول شوارق الأنس، ورمد بصائر أرباب الشهود ... عند ذلك تقوم قيامتهم، وهناك تسكب العبرات. ويقال: إذا نعق في ساحات هؤلاء غراب البين، ارتفع إلى السماء نواح أسرارهم بالويل. ومن جملة ما يبثون من نحيبهم ما قلت:

قـــولا لمـــن ســـلب الفـــؤاد فراقـــه

ولقـــد عهـــدنا أن يبـــاح عناقـــه [36]

بعـــد الفـــراق ... فبالـــذي هـــو بيننـــا

هـــلا رحمـــتم مـــن دنـــا إزهاقـــه

عهـــدي بمـــن جحـــد الهـــوى أزمـــان

كنـــا بالصـــبابة – لا يضـــيق نطاقـــه

والآن مـــذ بخـــل الزمـــان بوصـــلنا

ضـــاق البســـيطة حـــين دام فراقـــه

هـل ترتجـي مـن وصـل عـزك رجعـة

تحنـــو علـــى قمـــر يـــدوم محاقـــه

(36) في الأصل: عاتقه، ورجحت أن تكون: عناقه، بالنون لتتواءم مع (الفراق).

إن كـــان ذاك كمـــا تـــروم فـــأخبروا

أنـــى لـــه (أنـــى) يعـــود شـــروقه [37]

ج – أبيات الاستشهاد

1 – في أول سورة براءة:« ذكر الله البراءة من المشركين قطعًا، فلم تصدر بذكر الرحمة، وقد كان بين الرسول عليه الصلاة والسلام وأولئك المشركين عهد ... فنزل الخبر من الغيب بغتة، وأتاهم الإعلام بالفرقة فجأة، فقال: « براءة من الله ورسوله ».

وأنشدوا:

وكـــان ســـراج الوصـــل أزهـــر بيننـــا

فهبـــت بـــه ريـــح مـــن البـــين فانطفـــا

(اللطائف: 3 / 6)

2 - « كيف يكون المفلس من عرفانه، كالمخلص في إيمانه؟ وكيف يكون المحجوب عن شهوده كالمستهلك في وجوده؟

كيف يكون من يقول (أنا) كمن يقول: أنت؟ وأنشدوا:

وأحبابنـــــا شـــــتان: واف ونـــــاقص

ولا يســـتوي قـــط محـــب وبـــاغض [38]

(اللطائف: 3 / 10)

---

(37) في الأصل: أن يعود. ورجحت: أنى يعود، لاستقامة الوزن.
(38) اسم فعل ماض بمعنى: افترق.

3 – وفي قوله تعالى: « يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان ... ».

« ويقال: إن القلوب مجبولة على محبة من يبشر بالخير، فأراد الحق – سبحانه – أن تكون محبة العبد له – سبحانه – على الخصوص، فتولى بشارته بعزيز خطابه من غير واسطة، فقال: يبشرهم ربهم برحمة منه ».

وفي معناه أنشدوا:

لـــــــولا تمتـــــــع مقلتـــــــي بلقائـــــــه

لوهبتهـــــا بشـــــرى بقـــــرب إيابـــــه

(ط: 3 / 16)

4 – ويقول عن المتخلفين في غزوة تبوك: « بين الله سبحانه أنه لو كانت المسافة قريبة، والأمر هين لما تخلفوا عنك، لأن من كان غير متحقق في قصده، كان غير بالغ في جهده، يعيش على حرف، فإذا رأيت المريد يتبع الرخص ويجنح إلى الكسل ... فاعلم أنه منصرف عن الطريق، متخلف عن السلوك. وأنشدوا:

وكـــــــذا الملـــــــول إذا أراد قطيعـــــــة

مـــل الوصـــــال وقـــال: كـــان وكانـــا

ومن جد في الطلب لم يعرج في أوطان الفشل، ويواصل السير والسرى، ولا يحتشم من مقاساة الكد والعنا، وأنشدوا:

ثـــم قطعـــت الليـــل فـــي مهمـــه

لا أســـــــدًا أخشـــــــى ولا ذيبـــــــا

يغلبنـــــي الشـــــوق فـــــأطوي الســــرى

ولـــــم يـــــزل ذو الشـــــوق مغلوبـــــا

(ط: 3 / 30)

5 – وفي قوله تعالى: « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ». « لأن النفس محل الآفات فجعل الجنة في مقابلها، وجعل ثمن القلب أجل من الجنة، وهو ما يخص به أولياءه في الجنة من عزيز رؤيته [39]... وأما القلب فاستأثره قهرًا، والقهر في سنة الأحباب أعز من الفضل، وفي معناه انشدوا:

بنـــــي الحـــــب علـــــى القهـــــر فلـــــو

عـــــدل المحبـــــوب يومـــــا لســـــمج

لـــــيس يستحســـــن فـــــي حكـــــم الهـــــوى

عاشـــــق يطلـــــب تـــــأليف الحجـــــج

(ط: 3 / 64)

6 – وفي قوله تعالى: « أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر ... ». « الخوف ترقب العقوبات مع مجاري الأنفاس ... وأعرفهم بالله أخوفهم من الله ... ووصفوا أهل المعرفة فقالوا:

مســـــتوفزون [*] علـــــى رجـــــل كـــــأنهمو

قـــوم [40] يريـــدون أن يمضـــوا ويرتحلـــوا

(ط: 4 / 31)

(39) رؤية الله أعزل من الجنة، وهي مطلب القشيري أولًا.
(*) مستوفزون: رفع الرجل في غير اطمئنان.
(40) غير موجودة في الأصل كلمة (قوم) وزدناها ليستقيم الوزن، ولأنها تناسب مصطلحات الصوفية.

7 – وفي قوله تعالى: « نزل عليك الكتاب بالحق مصدقًا لما بين يديه، وأنـزل التـوراة والإنجيل ... ».

« إنا وإن أنزلنا قبلك كتبنا على المرسلين فما أخلينا كتابًا من ذكرك، قال قائلهم:

وعنـــــــدي لأحبابنـــــــا الغـــــــائبين

صـــــــحائف، ذكـــــــرك عنوانهـــــــا

(ط: 1 / 231)

8 – وفي قوله تعالى: « سنكتب ما قالوا ... »

« هذه الكلمة من موجبات الحجلة لأهل التقصـير بـأدق إشـارة، يعنـي أنهـم وإن نسوا أحوالهم وأقوالهم فإنا ننشر لهم ما كتبنا عليهم، قال قائلهم:

صـــحائف عنـــدي للعتـــاب طويتهـــا

ستنشـــر يومًـــا والعتـــاب يطـــول

سأصـــبر حتـــى يجمـــع الله بيننـــا

فـــإن نلتقـــي [41] يومًـــا فســـوف أقـــول

(ط: 1 / 313)

9 – يكـون أجاجـا _ دونكـم، فـإذا انتهـى

إلـــيكم تلقـــى طيـــبكم فيطيـــب

(ط: 3 / 60)

(41) الياء للإشباع.

10 – أبكي إلى الشرق إن كانت منازلكم

ممـا يلـي الغـرب خـوف القيـل والقـال

(ط: 3 / 165)

11 = إذا مـا تمنـى النـاس روحًـا وراحـة

تمنيـت أن أشـكو إليـك فتسـمعا

(ط: 3 / 201)

12 – وأنـت إذا أرسـلت طرفـك رائـدًا

لقلبـك يومًـا _ أتعبتـك المنـاظر

(ط: 4 / 278)

13 – مـا زلـت أنـزل مـن ودادك منـزلًا

تتحيـر الألبـاب دون نزولـه [42]

(ط: 4 / 11)

14 – والليـالي إذا نأيـت طـوال

وأراهـا إذا دنـوت قصـار

والليـل أطـول وقـت حـين أفقـدها

والليـل أقصـر وقـت حـين ألقاهـا

---

(42) وفي الرسالة 152 ط. أولى. الحلبي: أن سبب وفاة النوري ت 295 هـ أنه سمع هذا البيت فتواجد فهام في الصحراء فوقع في أجمة قصب قطعت وبقي أصولها مثل السيوف، فكان يمشي عليها ويعيد البيت إلى الغداة والدم يسيل من رجليه، فتورمت قدماه ومات.

يطـــــول اليــــــوم لا ألقــــاك فيـــــه

وحــــاول نلتقــــي فيـــــه _ قصـــــير [43]

(ط: 5 / 79)

15 – ولمــا ادعيــت الحــب قالــت: كـذبتني

فمــا لــي أرى الأعضــاء منــك كواسـيا [44]

فمــا الحــب حتــى يلصــق القلــب بالحشــا

وتـــــذبل حتـــــى لا تجيـــــب المناديـــــا

وتنحــل [45] حتــى لا يبقــى لــك الهــوى

ســـوى مقلـــة تبكـــي بهـــا وتناجيـــا [46]

16 – إذا انســـكبت دمـــوع فـــي خـــدود

تبـــين مـــن بكـــى ممـــن تبـــاكي

(اللطائف: 1 / 293، نحو القلوب الكبير ورقة 65)

17 – ولـــو بيـــد الحبيـــب ســـقيت ســـمًا

لكـــان الســـم مـــن يـــده يطيـــب

(ط: 5 / 239)

---

(43) الاستشهاد على المعنى الواحد بأكثر من شاهد يؤكد سعة اطلاع القشيري ومحفوظه من الشعر.
(44) مكسوات باللحم.
(45) تهزل.
(46) الرسالة القشيرية: 619 _ وقد نسب إلى السري السقطي في: اللمع 321.

18 – وإذا تـــذللت الرقـــاب تقربـــا

منـــا إليـــك فعزهـــا فـــي ذلهـــا

(ط: 5 / 199)

19 – أغيـــب إذا شـــهدتك ثـــم أحيـــا

فكـــم أحيـــا لـــديك وكـــم أبيـــد

(ط: 1 / 65)

20 – سـهر العيـون لغيـر وجهـك باطـل

وبكـــاؤهن لغيـــر هجـــرك ضـــائع [47]

21 – ومن كان في طول الهوى ذاق سلوة

فـــإني مـــن ليلـــي لهـــا غيـــر ذائـــق

وأكثـــر شـــيء نلتـــه مـــن وصـــالها

أمـــاني لـــم تصـــدق كخطفـــة بـــارق

(الرسالة: 617 ؛ وفيات الأعيان 2 / 375)

وكان ابن خلكان يعجب بهذين البيتين.

تعليق موجز على شعره واستشهاده بالشعر

1 – كان الشعر ولا يزال قمة الفنون، لما امتاز بـه مـن الإيمـاء والرمـز، فكـان أهلًا لأن يحلم تلك الدقائق والرقائق، والوجدان والوله والمقامات والأحوال. فاسـتعان القشيري به ليكشف عما يعانيه من: كتمان وإفصاح،

(47) شرح أسماء الله الحسنى 42 للقشيري: نشره أحمد الحلواني ط أولى 1969 القاهرة.

وتشرد وذبول. وحنين وأنين، وعشق للأحزان، وتلذذ بالآلام، ويصور خلجات القلب عند التلاقي والافتراق، والإقبال والإدبار، والرضا والدلال، وهي في هذا أقرب إلى المتيمين والعذريين، ولهذا استعار أسماء معشوقاتهم في شعره: كسلمى، ومي، وبثينة، وليلى، ونقلها إلى بيئته الصوفية كما قالوا:

أسميك ليلى في نسيبي تارة

وآونة سعدي وآونة ليلى

حذارا من الواشين أن يفطنوا بها

وإلا، فمن لبنى فديتك من ليلى

فالحب كما ترى عند القشيري هو جوهر التصوف ورسالته، ومصدر الإلهام والكشف. يحيل به ماديات الكون إلى أرواح مسبحة عابدة، ولقد آثر القشيري في حبه الكتمان خوفًا من اللائمين والعاذلين لا سيما في عشقه الإلهي الذي يتجه له بكل قلب وروحه.

2 – وعندما يصور القشيري (الله الصمد) – وهو أنصع فكرة في المعرفة الصوفية- تراه يميط اللثام حتى تتكشف له الحقيقة شيئًا فشيئًا، وهمه إن يصل إلى غاية السفر ويستشرف أفق الواصلين، وشعره عن الذات الإلهية ينبع من منطقة فوق الوعي والإدراك.

ولا غرو فغاية الشعر عنده إلهية، وأكثر شعر القشيري الذي وصلنا من خلال مؤلفاته يرتبط بكنف الله، ولله، وميزته فيه: الصدق والإخلاص والصفاء.

3 – كما أشار إلى السكر والشطح في قوله:

وإذا سقيت من المحبة مصة

ألقيت من فرط الخمار خماري

حيث هيمه السكر وتيمه وغيبه، ولما أفاق تاب وأناب، ولكنه رأى الحبيب فعاد إلى سكره الذي أفناه ومحاه! والثمل يبتعد عن عالم الحس ويعيش في منطقة فوق عالمنا، ولكنه بيننا، والخمر الإلهية لا لغو فيها ولا تأثيم، لأنها من يد الحبيب، والمحبة سكر لا يصحو صاحبه إلا بمشاهدة محبوبه.

فالقشيري كان يعيش بوجدانه لا بغرائزه، فكان حاله: من مناجاة وقرب إلى طاعة وعبادة، ومن ذكر ومحبة إلى نجوى وأنس، فكان الله معبوده ومحبوبه.

4 – وتتناثر الحكمة والموعظة في جوانب شعره، ولم يكن مبعث ذلك إحساسه بالرحيل ودنو الأجل كغيره، وإنما كانت جزءًا من حياته التي عاشها والتجربة التي صادفها.

5 – أما استشهاده بالشعر، فكان مصدر اختيار الشاهد عنده، ما يعانيه من صوفية عارمة، فهو ينقل الشاهد من مكانه الضيق إلى الرحب الفسيح حيث المذاقات والمكاشفات والمشاهدات، ولا يختار شواهده إلا بعد تذوقها وفحصها ببصيرة كاشفة، ثم يحيطها بجو من نفسه ووجدانه، وعندئذ يصبح الشاهد في بيئته الجديدة أشبه بطاقات النور التي تتحرك إلى غاياتها، وتتخطى الحجب والحجز والأبعاد والآماد.

6 – ونستطيع أن نحكم على القشيري بعد تلك الجولات الواسعة في مؤلفاته وآثاره بأنه كان مقلًا في الشعر [48].

4 – أدبه

وهذا أدب القشيري، نقدم جوانب منه، لنتعرف على اتجاهاته، وما يحمل من صدق وإشارات، ومعارج وغايات:

---

(48) مال إلى هذا الرأي د / إبراهيم بسيوني. اللطائف 6 / 270 (هـ).

1 – في قوله تعالى: « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ... ويشف صدور قوم مؤمنين. ويذهب غيظ قلوبهم ... ». « وشفاء صدور المؤمنين على حسب مراتبهم في المقام والدرجات. فمنهم من شفاء صدره في قهر عدوه، ومنهم من شفاء صدره في نيل مرجوه، ومنهم من شفاء صدره في الظفر بمطلوبه، ومنهم من شفاء صدره في لقاء محبوبه، ومنهم من شفاء صدره في درك مقصوده، ومنهم من شفاء صدره في البقاء بمعبوده.

وكذلك ذهاب غيظ قلوبهم تختلف أسبابه، وتتنوع أبوابه، وفيما ذكرنا تلويح لما تركنا.

(اللطائف: 3 / 12)

2 – وفي قوله تعالى: « قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدًا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء ».

« إن دامت ليالي الفترة فمن يأتي بنهار التوبة غير الله؟

« وإن دامت ليالي الطلب فمن الذي يأتي بصبح الوجود غير الله؟

« وإن دامت ليالي القبض فمن الذي يأتي بصبح البسط غير الله؟

« وإن دام ليل الفراق فمن الذي يأتي بصبح الوصال غير الله؟ (49).

(ط: 5 / 78)

3 – وفي تفسيره لقوله جل شأنه: « وإلهكم إله واحد ... ».

« والواحد – من لا مثل يدانيه، ولا شكل يلاقيه، ولا قسيم يجانسه، ولا نديم يؤانسه، لا شريك يعاضده، ولا معين يساعده، ولا منازع يعانده.

(49) الشيخ رقت أحاسيسه، ورقت مشاعره، وقويت صلته بالله واستولى عليه الاسم الأعظم، فراح في ذكر وتسبيح وهتاف (وانظر: المحقق).

إحدي الحق صمدي العين، ديمومي البقاء، أبدي العز، أزلـي الـذات. واحـد فـي عز سنائه، فرد في جلال بهائه. وتـر فـي جبـروت كبريائـه، قـديم فـي سـلطان عزه، مجيد في جمال ملكوته.

(اللطائف: 1 / 155)

4 – وعند قوله تعالى: « قد علم كل أناس مشربهم.

« والمناهل مختلفة، والمشارب متفاوتة، وكل يرد مشربه، فمشرب عذب فرات، ومشرب ملح أجاج، ومشرب صاف زلال، ومشرب رنق أو شال.

وسائق كل قوم يقودهم، ورائد كل طائفة يسوقهم، فـالنفوس تـرد مناهـل المنـى والشهوات، والقلوب ترد مشارب التقوى والطاعـات، والأرواح تـرد مناهـل الكشـف والمشاهدات. والأسرار ترد مناهل الحقائق بالاختطاف عن الكـون والمرسـومات ثـم عن الإحساس والصفات ثم بالاستهلاك في حقيقة الوجود والذات.

(اللطائف: 1 / 107)

5 – وعند قوله تعـالى: « والـذين جاهـدوا فينـا لنهـدينهم سـبلنا ». الـذين زينـوا ظـواهرهم بالمجاهـدات، حسـنت سـرائرهم بالمشـاهدات، الـذين شـغلوا ظـواهره بالوظائف أوصلنا إلى سرائرهم اللطائف، الذين قاسوا فينا التعب من حيث الصـلوات جازيناهم بالطرب من حيث المواصلات.

(اللطائف: 5 / 106)

6 – ويقول في معنى: « الجليل الجميل » وهما من أسماء الله تعالى:

« واعلم أنه عز وجل يكاشف القلوب مرة بوصف جلاله، ومرة بوصف جماله، فإذا كاشفها بوصف جلاله صارت أحوالها دهشًا في دهش، وإذا

كاشفها بوصف جماله صارت أحوالها عطشًا في عطش، فمن كاشفه بجلاله أفناه، ومن كاشفه بجماله أحياه، فكشف الجلال يوجب محوًا وغيبة، وكشف الجمال يوجب صحوًا وقربة، فالعارفون كاشفهم بجلاله فغابوا، والمحبون كاشفهم بجماله فطابوا، فمن غاب فهو مهيَّم، ومن طاب فهو متيم، واعلم أن العابدين شهدوا أفضاله فبذلوا نفوسهم، والعارفين شهدوا جلاله فبذلوا قلوبهم، والمحبين شهدوا جماله فبذلوا أرواحهم، فمن كان له علم اليقين شهد جلاله، ومن كان له حق اليقين شهد جماله » (50).

7 – وعند قوله تعالى: « والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ... ».

« الإشارة منه أنا لعبد في أوان الطلب رقيق الحال، ضعيف، مختصر الفهم ... ثم يفكر حتى تزداد بصيرته ... إنه كالقمر _ يصير كاملًا، ثم يتناقص، ويدنو من الشمس قليلًا قليلًا، وكلما ازداد من الشمس دنوًا ازداد في نفسه نقصانًا حتى يتلاشى، ويختفي ولا يرى ... ثم يبعد عن الشمس فلا يزال يتباعد حتى يعود بدرًا _ من الذي يصرفه في ذلك إلا أنه تقدير العزيز العليم؟ وشبيه الشمس عارف أبدًا في ضياء معرفته، صاحب تمكين غير متلون، يشرق من برج سعادته دائمًا، لا يأخذه كسوف ولا يستره سحاب. وشبيه القمر عبد تتلون أحواله في تنقله، فهو في حال من البسط يترقى إلى حد الوصال، ثم يرد إلى الفترة، ويقع في القبض أمره إلى أن يرفع قلبه عن وقته، ثم يجود الحق – سبحانه – فيوفقه لرجوعه عن فترته، وإفاقته عن سكرته، فلا يزال يصفو حاله إلى أن يقرب من الوصال، ويرزق صفة

---

(50) التحبير في التذكير 62. تحقيق الدكتور إبراهيم بسيوني. وانظر: شرح أسماء الله الحسنى 200. نشره الأستاذ أحمد الحلواني ط أولى 1969 م. القاهرة.

الكمال، ثم بعد ذلك يأخذ في النقصان والـزوال ... كـذلك حالـه إلـى أن يحـق لـه بالمقسوم ارتحاله ... وأنشدوا:

كـــــــــــل يــــــــــــوم تتلــــــــــــون

غيـــــــر هـــــــذا بــــــك أجمـــــــل

(اللطائف: 5 / 217 فما بعدها)

وبعد هذه الجولة الخاطفة في أدب القشيري نلاحظ أنه:

1 – كان يحمل ألفاظه طاقـات متجـددة، ويولـد منهـا معـاني كثيـرة، كمـا كانـت تسعفه في المواقف النفسية والوجدانية، وليس في لجوئه إلى المحسن اللفظي تعويض يعوض نقصًا أو خللًا أو ضعفًا في الجانب الدلالي، انظر النص الأول.

2 – أن القشيري في النص الثاني استولى عليه الاسم الأعظم، فرقت أحاسيسـه، ودقت مشاعره فغاب في ذكر، وتسبيح وهتاف.

3 – وفي النص الثالث يسرع الأسلوب، ويبلغ أقصى غايته، وتضـمر فقراتـه إذ يتحدث عن « الوحدانية » فيدفع عنها الظنون والشبه، والتوهم والعجز.

4 – أما النص الرابع فأراد به القشيري أن يرتب الملكات الباطنـة للإنسـان مـن أسفل إلى أعلى وهي: النفس ثم القلب ثم الروح ثم السر، ثم صور الآفات التي تلحـق كل ملكة، ومفرداته نشطة تزداد من درجة إلى أخرى عمقًا وانطلاقًا.

5 – وفي النص الخامس طالت فقراته، لأنه يتحـدث عـن المجاهـدين ومكـانتهم، فالمقام مقام بسط لما هم فيه من نعيم دائم، وعز مقيم.

6 – والنص السادس أشار فيه إلى المعراج الروحي ومراتبه، وخصائص كل مرتبة: فالعابدون يبذلون نفوسهم، والعارفون يبذلون قلوبهم، والمحبون يبذلون أرواحهم، وأسلوبه لا تكلف فيه، ولا يسخر جهده لتحلية اللفظ، لأن همه متجه إلى كشف مراحل النفس، ورحلتاه في الطريق حيث يتم للصوفي اكتشاف أبعاد نفسه، وكانت موسيقى النص تتلون عندما ينتقل من خطرة إلى أخرى، وإذا كان النص يحمل بين يديه كشوفات ومصطلحات صوفية، فإنه يحمل على أكتافه نماذج فنية، من الأدب الرفيع المتسم بالشفافية والصدق.

7 – أما النص السابع فيشير إلى أن القشيري اتخذ من مظاهر الطبيعة كالشمس والقمر والليل والنهار – إشارات رائعة تتصل بالجمال الصوفي: رياضة ومجاهدة وكشفًا، وهو بهذا يرتب المعارف الإنسانية في حلقات متدرجة متصاعدة.

وكان موفقًا حين عقد عن طريق التشبيه الخصيب المتألق – صلة ومودة بين عالم السماء وباطن الإنسان، وما يحمله من سلوك ومعارف، ومبادئ وقيم. كما كشف عن طريق الإشارات معاني للألفاظ – التي تتحرك في اتجاهات شتى – تفوق معانيها المعجمية، وذلك علم فني رائع يؤكد ما بين التصوف والفن من رحم وقرابة.

الفصل الثاني

مناهج القشيري واتساع دراساته

أ – بين الإشارة والعبارة:

عرف النحو بتعريفات مختلفة فهو:

1 – العلم المستخرج بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب، الموصلة إلى معرفة أحكام أجزائه التي ائتلف [1] منها، قال صاحب المقرب: فعلم أن المراد بالنحو ما يرادف قولنا (علم العربية) لا قسيم الصرف.

وجاء في الصبان تعليقًا على « لا قسيم الصرف » هذا اصطلاح القدماء. واصطلاح المتأخرين تخصيصه بفن الإعراب والبناء وجعله قسيم الصرف.

2 – علم بأصول مستنبطة من كلام العرب يعرف بها أحكام الكلمات العربية حال إفرادها وحال تركيبها وما يتبعها [2].

3 – انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره: كالتثنية، والجمع، والتحقير، والتكثير، والإضافة والنسب، والتركيب، وغير ذلك [3].

---

(1) أشموني 1 / 15 فما بعدها.
(2) حاشية الخضري علي بن عقيل 1 / 16.
(3) الخصائص 1 / 34.

4 – علم بأصول يعرف بها أحوال أواخر الكلمات العربية إعرابًا وبناء [4].

ومن التعريفات السابقة وغيرها نرى أن النحاة يختلفون في تحديد دائرة النحو:

فمنهم من يجعلها تشمل أساليب اللغة من جميع نواحيها.

ومنهم من يقصرها على ضبط أواخر الكلمات ومعرفة بينتها واشتقاقها.

ومنه من يرى أن دائرة النحو يجب أن تكون أوسع من البحث في الإعراب وضبط أواخر الكلمات فتشمل الجملة من حيث أسرار الجمال التي تكمن وراء نظم كلماتها، وترتيبها الذي يقتضيه علم النحو، وأن معاني النحو تمثل العلاقات بين معاني الكلم في النفس وإليها يستند ترتيب هذه المعاني [5].

ولا نريد من عرض هذه التعريفات للنحو أن نناقشها أو ننتقص من قدر النحو، ولكننا نريد أن نصل من ذلك إلى أمرين:

أولهما: أن النحو بهذه التعريفات السابقة يمثل البناء الكبير وهو إذن خلاصة البحث اللغوي في جميع مستوياته؟

وثانيهما: أن النحو بالمضمون السابق يدور حول (العبارة) من حيث تقديم بعض أجزائها أو تأخيره أو تعريفه أو تنكيره أو حذفه أو ذكره أو إثباته أو نفيه أو تغير أواخر الكلمة المفردة لتغير العوامل الداخلة عليها. وفي أثناء دراستهم هذه نرى نموذجًا من الخلاف بينهم والجدل والنزاع

---

(4) حاشية الصبان على الأشموني عند تعريف النحو.
(5) انظر بلاغة أرسطو بين العرب واليونان: 252 د. إبراهيم سلامة، الأنجلو مصرية.



الذي يتمثل في كل خطواتهم حتى كثروا من احتمال أوجه الإعراب وتقديره وصوره من غير أن يشيروا إلى تصوير المعنى، وحسبنا هذا النموذج على سبيل المثال لا الحصر:

(أ) ما ذكره الأشموني في الصفة المشبهة من أن لمعمولها ثلاث حالات: الرفع على الفاعلية، والنصب على التشبيه بالمفعول به، والخفض بالإضافة. والصفة مع كل من الثلاثة: إما نكرة أو معرفة، وهذه الستة في أحوال السببي، وهو اثنا عشر نوعًا. فتلك اثنتان وسبعون صورة [6]. ويضم إليها ثلاث صور فتصير الصور خمسًا وسبعين. والصفة إما مفردة أو مثناة أو مجموعة جمع سلامة أو تكسير مذكرة أو مؤنثة، فإذا ضربت الثماني يف خمس وسبعين ثارت ستمائة. والصفة أيضًا إما مرفوعة أو منصوبة أو مجرورة فإذا ضربت الثلاث في ستمائة صارت ألفًا وثمانمائة. ومعمول الصفة إما مفرد أو مثنى أو مجموع جمع سلامة أو تكسير مذكر أو مؤنث فإذا ضربت الثماني في الألف وثمانمائة صارت أربعة عشر ألفًا وأربعمائة، تسقط منها مائة وأربعة وأربعون من صور المعمول الضمير ... فالباقي أربعة عشر ألفًا ومائتان وستة وخمسون بعضها جائز وبعضها ممتنع، فالدرس كما ترى قائم على المنهج الشكلي والجفاف العلمي من تقسيم الأنواع.

(ب) روي أن عضد الدولة أبا شجاع فناخسرو البويهي سأل الإمام أبا علي الفارسي: بماذا ينصب الاسم المستثنى في نحو قام القوم إلا زيدًا؟ قال: بتقدير استثنى زيدًا، فقال له عضد الدولة – وكان فاضلًا - لم قدرت « استثنى زيدًا فنصبت؟ وهلا قدرت امتنع زيد .. فرفعت! فقال له أبو علي: هذا الجواب الذي ذكرته لك جواب ميداني وإذا رجعت ذكرت لك الجواب الصحيح » [7].

---

(6) انظر حاشية الصبان على الأشموني في الصفة المشبهة.
(7) نزهة الألباء في طبقات الأدباء ص 316 ط تحقيق أبي الفضل، نهضة مصر.

وذهب البصريون إلى أن العامل الفعل المقدم بتوسط (إلا) وذلك لأن هذا الفعل وإن كان لازمًا في الأصل إلا أنه قوي بـ (إلا) فتعدى إلى المستثنى.

وذهب الفراء من الكوفيين إلى أن (إلا) مركبة من (إن ولا) ثم خففت إن وأدغمت في (لا) فهي تنصب في الإيجاب اعتبارًا بـ (إن) وترفع في النفي اعتبارًا بـ (لا) (8).

(ج) ومن ذلك ما رواه أبو العباس أحمد بن يحيى قال: اجتمع الكسائي والأصمعي عند الرشيد، وكانا معه يقيمان ويظعنان بظعنه فأنشد الكسائي:

أبلــغ حبيبًــا وخلـــل فـــي ســـراتهم

أن الفـــؤاد انطـــوى مـــنهم علـــى حـــزن

إلى أن قال:

أم كيــف ينفــع مــا تعطـــي العلـــوق بـــه

رئمـــان أنـــف إذا مـــا ضـــن بـــاللبن (9)

فقال الأصمعي رئمان: بالرفع. فقال له الكسائي: اسكت ما أنت وهذا، يجوز رئمانُ ورئمانَ ورئمانِ!

والمعنى: وما ينفعني إذا وعدتني بلسانك ؛ ثم لم تصدقه بفعلك، فمثلك كالناقة إذا نحر عنها ولدها وحشي تبنا فهي تشمه بأنفها ثم تأباه بقلبها. فكما ترى تقدير كلمات مصنوعة ليصح بها الأعراب الذي ملك عليهم أمرهم.

---

(8) انظر أسرار العربية لابن الأنباري ص 201 فما بعدها.
(9) الأشباه والنظائر 3 / 244.



ومنا هنا آثرنا تسميتهم بـ (أهل العبارة) أو (أهل الظاهر) لأن عملهم لا يتعدى الشكل والسير حول محيط الدائرة أو قريبًا منها. وهيهات أن يصلوا إلى مركز الدائرة أو نقطة النبع، وإذا كنا وجدنا على هذا الجانب (أهل العبارة) فإننا نرى على الجانب الآخر (أهل الإشارة).

والإشارة: ترجمان لما يقع في القلوب من تجليات ومشاهدات، وتلويح لما يفيض به الله على من اصطفاه من خلقه من أسرار وفيوضات. وإذا كان المصطلح لأهل النحو الظاهري (العبارة) فإن المصطلح لأهل النحو الباطني (الإشارة) ولكل وجهته. والنحو الظاهري أو نحو العبارة (لغته العقل) وتدرك بالألفاظ والكلمات، وأما النحو الباطني أو نحو (الإشارة) فلغته (القلب) وتدرك بالذوق والإلهام والفيض، ولا يمكن نقل ذلك عن طريق العبارة، ولهذا رمزوا لها وأشاروا. والعبرة عند أهل (الإشارة) بحقائق الأرواح لا بمظاهر الأشباح. يعنيهم الجوهر أكثر مما يعنيهم المظهر. وفي الخبر « من عمل بما علمه الله ورثه الله علم ما لم يعلم » [10].

ويوضح أبو نصر السراج هذا العلم الموروث بأنه (علم الإشارة) حيث يكشف الله سبحانه وتعالى لقلوب أصفيائه المعاني المذخورة، واللطائف والأسرار المخزونة [11].

وأسلوب أهل الإشارة يقوم على الإيماء والرمز وسرعة الالتقاط، كما أن كلماتهم محملة بالشحنات النفسية لتواءم مع الموقف الذي هم عليه، ولهذا كان لهم فهم وتذوق قلبي يختلف عن لغة (العقل). ولهذا عندما نظر الرسول - > - وحوله أصحابه إلى أبي بكر قائلًا له: « أتذكر يوم لا يوم؟ » فلم يفهم أصحابه – ما يريد ولكن أبا بكر أجاب بقوله « نعم ». ولما سئل

---

(10) أورده أبو نعيم في حلية الأولياء عن أنس بن مالك.
(11) اللمع 147.

الصديق عن ذلك قال: إنه يوم الميثاق [12]. وقد يستطيع الإنسان أحيانًا أن يجد تعبيرًا يكشف به سر الإشارة ولغتها. خذ مثلًا قول القشيري: « فالله تعالى أرشد نفوس الزاهدين إلى طريق طاعته، وقلوب العارفين إلى سبيل معرفته، وأرواح الواجدين إلى حقيقة محبته، وأسرار الموحدين إلى [13] تطلع قربته » فقد استطاع الدكتور إبراهيم بسيوني أن يعري قشرة هذا النص حتى شف عن حقيقته فقال: « وهذا النص يشير إلى رأي القشيري في مراتب أهل الحق: زاهد ثم عارف ثم واجد ثم موحد. ويشير ثانيًا إلى ملكاتهم الباطنية: نفس ثم قلب ثم روح ثم سر. ويشير ثالثًا إلى غاياتهم في كل مرحلة من مراحل معراجهم الروحي: طاعة فمعرفة فمحبة فقرب [14].

ولو نظر إنسان ما إلى نص القشيري السابق ما استطاع أن يفهم شيئًا غير عادي في النص لأن أسلوبه يسير ومعناه أيسر، ولكن الصوفي له تأملات تحمله أدوارًا باهظة في تعقب كل لفظة حيث يطيل التأمل فيها وفيما حملت من مذاقات وشحنات بل في تعقب كل حرف وحركة ونقطة فمن ذلك قول الشبلي ت 334 هـ « أنا النقطة التي تحت الباء » « البسملة » ص 109 دكتور إبراهيم بسيوني.

وإذا استطاع الإنسان أن يكشف عن سر الإشارة أحيانًا فإنه في كثير من الأوقات لا يستطيع ذلك، لأن الإشارة الصوفية فوق أسلوب الشفرة [15] فلا تدرك باللمح والحس، وإنما تدرك بالمجاهدات والفيوضات، كما تقوم الإشارة على قفزات ونقلات روحية، وهيهات أن يدرك العقل أسرارها أو

---

(12) لطائف الإشارات ص 7 من المقدمة للأستاذ حسن عباس زكي.
(13) التحبير في التذكير: تحقيق د. إبراهيم بسيوني ص 95.
(14) التحبير: المرجع السابق.
(15) لعل كلمة (الشفرة) هي (الجفر) لفظًا ومدلولًا وهو عند الشيعة علم قائم على رموز وأرقام، انظر مقدمة ابن خلدون.

يعبر الفكر عنها إلا مكدودًا لاهثًا، لأن (العبارة) ليس في طاقتها أن تتبع أسرار (الإشارة).

على أنه لا تعارض بين العبارة والإشارة فهما يتكاملان ويتضافران، فما قامت علوم الظاهر إلا لنصرة الشريعة والحقيقة ؛ فالشريعة أن تعبده، والحقيقة أن تشهده. ومن هنا كان لدى أهل الإشارة حصيلة كبيرة من المعارف اللغوية والنحوية والإنسانية وغيرها فهم يعتمدون على العبارة أولًا. ثم يبدأون في رحلة أخرى تقوم على الرياضات والمجاهدات والمذاقات والكشوفات التي تنثال من الحق على عباده الذين اصطفاهم. فلابد إذن من علم الظاهر قبل الانطلاق إلى علم الباطن، ولهذا فقد ألف القشيري تفسيره الكبير المعروف « بالتيسير في التفسير » قبل عام 410 هـ.

وهو نتاج الدراسات العقلية واللغوية حيث يعني بالجانب التقليدي: من لغة ونحو وأخبار وقصص وغيرها، فلما سلك الطريق الصوفي والتقى بشيخه الدقاق ألف تفسيره المعروف « بلطائف الإشارات » 434 هـ. وهذا التفسير الأخير نتاج الفيوضات والإلهامات والمذاقات يتتبع فيه الإشارات لا العبارات، ولا يتوقف عند حدود المفردات والألفاظ بل يذهب إلى ما وراء العبارة.

جاء في طبقات الشعراني 1 / 147 لسيدي إبراهيم الدسوقي: « للعارفين من إشارات العبارات عبارات معجمة وألسن مختلفة » فتفسيره « التيسير » يدركه العوام والمثقف العباري، أما تفسيره « اللطائف » فلا يصل إليه إلا الخواص ولهذا قالوا: العبارات للعموم، والرموز والإشارات للخصوص. ولذلك كان علم العبارة من مقومات الثقافة العامة، وعلم الإشارة من مقومات الثقافة الخاصة. وللقشيري فهم خاص غير فهم أصحاب العبارة يتجلى: في التفسير واللغة والفقه والنحو والأصوات والمصطلحات والتذوق وفن الرسم والكتابة. وآن لنا أن نوضح جانبًا من هذه القضايا.

(ب) في التفسير:

1 – في قوله تعالى: « ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد » الإشارة من قوله « ويحذركم الله نفسه » للعارفين، ومن قوله « والله رءوف بالعباد » للمستأنفين. فهؤلاء أصحاب العنف والعنوة وهؤلاء أصحاب التخفيف والسهولة، ويقال: أفناهم بقوله: « ويحذركم الله نفسه » ثم أحياهم وأبقاهم بقوله: « والله رءوف بالعباد ».

2 – وفي قوله جل ذكره: « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ... ». « تحبون الله » فرق، و « يحببكم الله » جمع. « تحبون الله » مشوب بالعلة و « يحببكم الله » بلا علة، بل هو حقيقة الوصلة. ومحبة العبد لله حالة لطيفة يجدها العبد من نفسه وتحمله تلك الحالة على موافقة أمره على الرضا دون الكراهية، وتقتضي منه تلك الحالة إيثاره سبحانه – على كل شيء وعلى كل أحد. وشرط المحبة ألا يكون فيها حظ بحال، فمن لم يفن عن حظوظه بالكلية فليس له من المحبة شظية. ومحبة الحق للعبد إرادته إحسانه ولطفه به، وهي إرادة فضل مخصوص، وتكون بمعنى ثنائه سبحانه عليه ومدحه له، وتكون بمعنى فضله المخصوص معه. فعلى هذا تكون من صفات فعله. ويقال: شرط المحبة، امتحاء كليتك عنك لاستهلاكك في محبوبك. قال قائلهم:

وما الحب حتى تنزف العين بالبكا

وتخرس حتى لا تجيب المناديا

وهذا فرق بين الحبيب والخليل (محمد > وإبراهيم —). قال الخليل: « فمن تبعني فإنه مني ». وقال الحبيب: « فاتبعوني يحببكم الله » فإن كان متبع الخليل (منه) إفضالًا فإن متابع الحبيب محبوب الحق سبحانه وكفى بذلك قربة وحالًا ...

ويقال في هذه الآية: إن المحبة غير معلولة وليست باجتلاب طاعة، أو التجرد عن آفة، لأنه قال « يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » بين أنه يجوز أن يكون عبد له فنون كثيرة ثم يحب الله ويحبه الله.

ويقال: قال أولًا: « يحببكم الله » ثم قال: « ويغفر لكم ذنوبكم » والواو تقتضي الترتيب ليعلم أن المحبة سابقة على الغفران، أولًا يحبونهم ويحبونه (وبعده) يغفر لهم ويستغفرونه، فالمحبة توجب الغفران، لأن العفو يوجب المحبة. والمحبة تشير إلى صفاء الأحوال ومنه حبب الإنسان وهو صفاؤها. والمحبة توجب الاعتكاف بحضرة المحبوب في السر. والحب حرفان: حاء وباء. والإشارة من الحاء إلى الروح ومن الباء إلى البدن، فالمحب لا يدخر عن محبوبه لا قلبه ولا بدنه [16].

3 – ولم تكن بسملة السورة كيانًا مستقلًا قائمًا بذاته عن السورة كما في تفسير أهل العبارة بل كانت البسملة عند القشيري في أول كل سورة خلاصة مركزة لحديث طويل يتواكب مع النسيج العام داخل السورة وكأن بين البسملة والسورة رحمًا في المعنى وثيقة، ومسالك دقيقة، ولم يكن مرد هذا إلى معرفة القشيري باللغة والنحور، والاشتقاق والبلاغة فحسب، وإنما كان مرجعه إلى صفاء روحه، ودقة حسه، ورقة شعوره، ونقاء سريرته، وبعد تأملاته، وعمق رياضته ومجاهداته.

كما اعتمدت هذه النظرة الفذة من القشيري على أنه لا يؤمن بالتكرار في القرآن، فحين تأتي البسملة في أول كل سورة فإنما تأتي لمعنى جديد، ومرمى سديد يتفق مع السياق العام لمضمون ما تحتويه السورة وإليك بعض النماذج:

ففي سورة « الأنبياء يكشف عن معنى البسملة في أول السورة بقوله: « بسم الله » اسم عزيز من توسل إليه بطاعته تفضل عليه بجميل نعمته إن

---

(16) لطائف الإشارات للقشيري 1 / 246 – 246.

أطاع فضله، وإن ضاع أمهله، ثم إن آب وقر ... ذكره، وإن عصى وعاب ستره، ثم يقول: اسم عزيز ما استنارت الظواهر إلا بآثار توفيقه، وما استضاءت السرائر إلا بأنوار تحقيقه. بتوفيقه وصل العابدون إلى مجاهدتهم، وبتحقيقه وجد العارفون كما مشاهدتهم [17]...

فالترابط وثيق بين إشارات البسملة ومشاهدة السورة في الداخل حيث اختلف الناس بين مؤمن وكافر، ومصدق ومكذب حول رسالة الأنبياء.

وتراه في سورة الجن يكشف عن بسملتها بقوله: « بسم الله » اسم عزيز به أقر من أقر بربوبيته، وبه أصر من أصر على معرفته، وبه استقر من استقر من خليقته، وبه ظهر ما ظهر من مقدوراته، وبه بطن ما بطن من مخلوقاته، فمن جحد فبخذلانه وحرمانه، ومن وحد فبإحسانه وامتنانه [18].

فالترابط واضح بين إطار السورة المتجسد في البسملة وبين جزئيات السورة في الداخل. لاحظ قوله: « ظهر ما ظهر وبطن ما بطن » وربطه (بالجن) وبقوله في السورة: « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدًا ». وفي بسملة (المنافقون) يقول: « بسم الله » اسم من تحقق به صدق في أقواله، ثم صدق في أعماله، ثم صدق في أخلاقه، ثم صدق في أحواله، ثم صدق في أنفاسه ... « يقول القشيري في قوله تعالى:
« والحافظون لحدود الله »: هم الذين يحفظون مع الله أنفاسهم » [19]. ومراعاة (الأنفاس) من الأمور التي شغلت الصوفية. يقول الجنيد:

وما تنفست إلا كنت مع نفسي

تجري بك الروح مني في مجاريها

---

(17) لطائف الإشارات 4 / 163.
(18) اللطائف 6 / 205.
(19) اللطائف 3 / 68.

فصدقه في القول ألا يقول إلا عن برهان، وصدقه في العمل ألا يكون للبدعة عليه سلطان، وصدقه في الأخلاق ألا يلاحظ إحسانه مع الكافة بعين النقصان، وصدقه في الأحوال أن يكون على كشف برهان، وصدقه في الأنفاس ألا يتنفس إلا على وجود كالعيان [20]، والترابط وثيق بين البسملة والمشهد العام للسورة كما ترى.

فكل بسملة في القرآن الكريم لها معنى جديد يتواكب مع المعنى العام للسورة [21].

(ج) في الفقه:

1 – في قوله تعالى: « ويقيمون الصلاة » وأما إقامة الصلاة والقيام بأركانها وسننها، ثم الغيبة عن شهودها برؤية من يصلي له فيحفظ عليه أحكام المر بما يجري عليه منه، وهو عن ملاحظتها محو، فنفوسهم مستقبلة القبلة وقلوبهم مستغرقة في حقائق الوصلة.

أراني إذا صليت يممت نحوها
بوجهي وإن كان المصلى ورائيا
أصلي فلا أدري إذا ما قضيتها
اثنتين صليت الضحا أم ثمانيا [22]

2 – وفي قوله جل ذكره: « ومما رزقناهم ينفقون » على لسان التفسير أنهم ينفقون أموالهم إما نفلًا وإما فرضًا على موجب تفصيل العلم. وبيان الإشارة أنهم لا يدخرون عن الله سبحانه وتعالى شيئًا من ميسورهم،

---

(20) اللطائف 6 / 155.
(21) انظر 6 / 341، 330، 5 / 341 وانظر سورة الحجر ويوسف وبراءة.
(22) اللطائف 1 / 68 فما بعدها.

فينفقون نفوسهم في آداب العبودية، وينفقون قلوبهم على دوام مشاهدة المربوبية، فإنفاق أصحاب الشريعة من حيث الأموال، وإنفاق أرباب الحقيقة من حيث الأحوال ... وأما أهل الحقائق فلو جعلوا من جميع أحوالهم « لأنفسهم ولحظوظهم لحظة قامت عليهم القيامة » (23).

3 – في قوله جل ذكره: « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلًا ». ويقال: الاستطاعة فنون، فمستطيع بنفسه وماله وهو الصحيح السليم، ومستطيع بغيره وهو الزمن المعصوب، وثالث غفل الكثيرون عنه وهو مستطيع بربه. وهذا نعت كل مخلص مستحق فإن بلاياه لا تحملها إلا مطايانا.

ويقال: الحق هو القصد إلى من تعظمه: فقاصد بنفسه إلى زيارة البيت، وقاصد بقلبه إلى شهود رب البيت، فشتان بين حج وحج، هؤلاء تحللهم عن إحرامهم عند قضاء منسكهم وأداء فرضهم، وهؤلاء تحللهم عن إحرامهم عند شهود ربهم ... فإذا بلغ منى نفي عن قلبه كل طلب ومنى، وكل شهوة وهوى، وإذا رمى الجمار رمى عن قلبه وقذف عن سره كل علاقة في الدنيا والعقبى، وإذا ذبحَ ذبح هواه بالكلية ... وإذا حلق قطع كل علاقة بقيت له (24).

4 – يرى القشيري أن المريد لا يلجأ للرخص في العبادات، والأفضل تركها، لأنها للمستضعفين وأرباب الحوائج والأشغال من الكافة، والمريد لا حاجة له ولا شغل إلا لربه وبربه (25).

---

(23) اللطائف 1 / 69.
(24) اللطائف 1 / 275 فما بعدها، وانظر نظرة القشيري: للصوم والطهور والغسل والمسح والتيمم في لطائف الإشارات 2 / 99، 1 / 165 فما بعدها.
(25) انظر اللطائف 1 / 165، 2 / 264 وانظر التجبير في التذكير: للقشيري تحقيق الدكتور إبراهيم بسيوني 66.

ويفسر القشيري قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ [العصر: 2]، بأنه الرجوع إلى الرخص بعد إيثار الأشق والأولى [26].

كما يرى القشيري أن الفقير [27] إذا انحط عن درجة الحقيقة إلى رخصة الشريعة فقد فسخ عقده مع الله ونقض عهده. والقشيري في آرائه الفقهية هذه يشير إلى أن الصوفي عليه أن يستبطن ظواهر العبادات، ويكشف اللثام عن أسرارها بأن تنزه العبادة عن الأطماع والأعواض وما يراه القشيري جدير بأنه يسمى « بالفقه الصوفي » [28].

(د) في اللغة:

من خصائص القشيري أنه لا يعترف بالتكرار فكل كلمة في موقع لها معنى يختلف عن مدلولها في موقف آخر، لأن التكرار قد يكون آية ضعف في القائل:

1 – ففي قوله جل ذكره: « وإذا قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ». يلتمس القشيري معنى جديدًا لكلمة الاصطفاء، فالأول: اصطفاك بالكرامة والمنزلة وعلو الحال، والثاني: اصطفاك بأن حملت بعيسى — من غير أب [29].

2 – يرى بعض العلماء أن لفظ « الله » مشتق من قولهم (أله) بالمكان، أي أقام به، أو من (لاه) أي علا، أو (لاه) بمعنى احتجب، أو من (الوله) وكأن اسمه يوجب الوله. والقشيري لا يرى الاشتقاق في هذا معتمدًا على أن « الله » اسم الذات الذي لا يصح أن يسمى به أحد من المخلوقين. وكل اسم

---

(26) اللطائف 6 / 333.
(27) معنى الفقير: الصوفي المتجرد.
(28) انظر نماذج منه في الرسالة: ص 198 ط الثانية (الحلبي).
(29) لطائف الإشارات 1 / 254.

من أسمائه يصلح للتخلق به إلا هذا الاسم فإنه للتعلق دون التخلق. والقائلون باشتقاقه لا بد لهم من مادة يشتق منها هذا الاسم، والله تنزهت ذاته لم يسبق بمادة. ومبحث الذات الإلهية عند القشيري ليس مجرد كلام نظري جدلي، كما ترى ذلك في مباحث أهل العبارة، وإنما المقصود أن نتخلق بها على سبيل المجاز في الاستعمال ونعمل بما نعلم (30). فالقشيري لا يتوقف عند حدود الاشتقاق كأهل العبارة ولكنه يلفتنا إلى الجانب السلوكي المترتب على المعرفة.

2 – وفي قوله جل ذكره: « وليعفوا وليصفحوا » يقول القشيري: العفو والصفح بمعنى، فكررهما تأكيدًا، ولكنه يسرع إلى التمييز بينهما فيقول: العفو في الأفعال، والصفح في جنايات القلوب (31).

4 – كما كان القشيري لماحًا في الربط بين المرادات الصوفية وبين صيغ الاشتقاقات اللغوية معتمدًا على الفروق الدقيقة في المادة الواحدة واستنباط دقائقها ورقائقها. اسمعه يقول: « والصبر في حق العباد على ثلاثة أقسام:

أولها: التصبر وهو تكلف الصبر ومقاساة الشدة، ثم الصبر وهو سهولة تحمل ما يستقبله من فنون القضاء وصروف البلاء، ثم بعده: الاصطبار وهو النهاية في الباب.

ويكون ذلك بأن يألف الصبر فلا يحتمل مشقة، بل يجد روحًا وراحة كما قيل:

تعودت مس الصبر حتى ألفته

وأسلمني حسن العزاء إلى الصبر (32)

وفي اللطائف 1 / 321 في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا** ﴾ [آل عمران: 200]، يقول:

---

(30) التحبير في التذكير مقدمة الناشر. د. إبراهيم بسيوني.
(31) اللطائف 4 / 273.
(32) التحبير في التذكير 95. تحقيق د. إبراهيم بسيوني وانظر الهامش.



« ويقال أول الصبر التصبر، ثم الصبر، ثم المصابرة، ثم الاصطبار، وهو نهاية ». فزاد هنا (مصطلح) المصابرة، ثم يقول: « اصبروا على الطاعات وعن المخالفات، وتصابروا في ترك الهوى والشهوات وقطع المنى والعلاقات، ويقال: اصبروا بنفوسكم وصابروا بقلوبكم ورابطوا بأسراركم » [33].

(هـ) في الحرف:

الحرف في ذاته لا يعطي معنى إلا إذا كان رمزًا، والإشارة ليست إلا مرموزًا صادرًا عن رمز [34]. وقد اشتد الجدل بين الإشاريين والعباريين في حروف أوائل القرن [*]. ولا أريد أن أتعرض لهذا الجدل بينهم إذ هو مسطور في كتب التفسير في أوائل السور القرآنية، ولكن يكفي وضع المعالم الآتية:

1 – أن هذه الحروف علم مستور وستر محجوب استأثر الله به.

2 – أن القرآن تحدى بها العرب حيث نزل بهذه الحروف التي يعرفونها.

3 – أوائل السور قسم أقسم الله فيها بنفسه.

---

(33) فرق أبو طالب المكي ت 286 هـ بين التصبر والصبر، فالتصبر: حمل النفس على الصبر ومجاهدتها عليه، وترغيبها فيه، وفيه تكلف وتصنع للصبر ... أما الصبر فهو: « التحقق بالوصف وذلك هو المقام ». انظر: قوت القلوب في معاملة المحبوب 1 / 405 ط الحلبي.

(34) البسملة 53. د. إبراهيم بسيوني.

(*) لا يفوتنا أن ننوه بالحديث الإسلامي الخطير الذي أثاره شاب مصري يعيش في أمريكا – وهو د. رشاد خليفة عالم الكيمياء حيث استخدم العقول الألكترونية لأول مرة في محاولة لتفسير فواتح السور في القرآن، وقد قام بتسجيل هذا البحث في مكتبة الكونجرس تحت رقم 27386 بتاريخ 11 إبريل سنة 1972 م، وقد قام بتغذية الجهاز الالكتروني برقم كل سورة وعدد آياتها، وعدد كل حرف أبجدي فيها، وأجرى متوسطات ونسب وعمليات حسابية متداخلة معقدة سجلت نتائج مذهلة يضيق المقام عن التصدي لها، ويكفي أن نشير أن الباحث أثبت بما لا يدع مجالًا للشك أن إعجاز القرآن الكريم ليس في الجانب الأدبي اللغوي أو غيره بقدر ما هو إعجاز حسابي يفوق طاقة الإنس والجن، ومن خطوات البحث الجريئة أن العقل الالكتروني قام ب 63 أكتليون عملية، يعني بوضع 27 صفرًا على يمين الرقم السابق.

4 – أوائل السور أسماء علمية لبعض سور القرآن المفتتحة بها.

5 – أوائل السور تنبيه لكي لا يفوت السامع شيئًا مما يلقى عليه.

6 – عد أوائل السور على حساب الجمل، فقد روى العز بن عبد السلام أن عليًا } استخرج واقعة معاوية من (حم عسق).

والموز الحرفية والرقمية قد لعبت دورًا خطيرًا في الدور الذي قام بـه العلويـون ضد الأمويون ثم ضد العباسيين.

على أن الحروف قد عولجت في اتجاهات مختلفة أهمها:

1 – الاتجاه الصوتي ويتمثل في دراسة الخليل وسيبويه وابـن دريـد وابـن جنـي وغيرهم، وكانت دراستهم للحروف من حيث أجراسها وصفاتها: مـن همـس وجهـر، ومن شدة ورخـاوة، ومـن إطبـاق وانفتـاح، ومـن اسـتعلاء واسـتفال، وتقسـيم الجهـاز الصوتي إلى مدارج يختص كل منها بحرف أو مجموعة من الحروف، ومـا يعـرض للصوت في بناء الكلمة من إعلال وإبدال وحذف ونقل.

2 – الاتجاه الترابطي: ويتمثل في سهل بـن هـارون صـاحب بيـت الحكمـة أيـام المأمون، فقد ربط بين الحروف وعددها وبين عدد منازل القمـر الثمانيـة والعشـرين. كمـا ربـط بـين نصـف الحـروف الـذي يـدغم مـع لام التعريـف « وهـي الشمسـية » ونصفها الذي لا يدغم، وخلص من ذلك إلى الشبه بين منازل القمر من حيـث ظهـور نصفها للعيان واختفاء النصف الآخر في وجه القمر الآخر، كما ربطوا بين العبـادات من زكاة وحج، وبين الحروف والأرقام.

3 – الاتجاه الفلسفي ويمثله ابن سينا وابن عربي في فتوحاته حيث طبـق الأول عليها فلسفته في الخلق وأنواع العوالم والعقول. وصارت الحروف عند الثاني موجدة وخالقة لجميع الكائنات التي لا نهاية لها. وقد

ربط ابن عربـي بـين الـذوات المخلوقـة حاملـة لصـفاتها الخلقيـة والخلقيـة قائمـة فـي مقاماتها، وبين الحروف الملفوظة محركة بحركاتها البنيوية والإعرابيـة صـادرة مـن مخارجها الصوتية المتنوعة في قوله:

« أوجـد سـبحانه وتعـالى الحركـات والحـروف والمخـارج تنبيهًـا منـه سـبحانه وتعالى أن الذوات تتميز بالصفات والمقامات، فجعل الحركات نظير الصفات وجعـل الحروف نظير الموصوف وجعل المخـارج نظيـر المقامـات والمعـارج [35] ». فـابن عربي يقابل بين الجانب الصوتي والجانب الكوني [36].

4 – الاتجاه الميثولوجي: ويمثل هذا الاتجاه للحروف وهي عندهم أمة من الأمم تسخر الطبيعة. وذكر البوني أن عوالم حرف الميم تجمد الثلج وتلقيه في الشمس لـئلا تحرق البشر، وقد استغل فيما بعد هذا الاتجاه حيث أصبح عقيدة ودينًـا يتخـذ أصـوله من قيم الحروف العددية والتصوف في الأرقام [37].

5 – الاتجاه الدلالي: ويتمثل في إيجاد علاقة بين معنى الحروف وأصله، كإيجاد علاقة بين حرف (الكاف) ومعناه (المصلح للأمور) بالأصـل كـاف. وذلـك فـي قـول كثير:

جـــواد إذا مــــا جئـــت تبغـــي نوالـــه

وكـــاف إذا مـــا الحـــرب شـــب شـــهابها

علـى أن كثيرًا من الحـروف لا نستطيع أن نجد بينها وبين معانيهـا أدنـى علاقـة، وإلا فما العلاقة بين حرف (التاء) وبين معناه وهو (البقرة التي تحلب دائمًا) في قـول مهلهل:

---

(35) الفتوحات لابن عربي 1 / 105. وانظر جلال الدين الدواني في رسالة (الزوراء).
(36) وإذا أردت مزيدًا من معارف ابـن عربـي عـن الحـروف فـانظر رسـالة قيمـة – للزميـل حامـد طـاهر مخطوطة بمكتبة كلية دار العلوم – القاهرة.
(37) انظر أمـاكن متفرقـة مـن كتـاب الفكـر الشـيعي والنزعـات الصـوفية حتـى مطلـع القرن الثـاني عشـر الهجـري. د / كامل الشيبي.

أبـــي فـــارس الهيجـــاء فـــي كـــل حومـــة

وجــــدك عبــــد يحــــب التــــاء دائمًــــا

أو بين الحاء وبين معناه وهو (المرأة السليطة) [38].

هذا وقد تلاعب الشعراء بهذه الحروف وحملوها معاني عجيبة في الأعصار المختلفة ؛ فالسين هو الرجل الكثير اللحم والشحم، في قول العتابي:

يجـــود علـــى العفـــاة بكـــل مـــن

إذا مـــا الســـين شـــح بمـــا يـــراد

والذال هو عرف الديك في قول الحارث اليشكري:

بـــه بـــرص يلـــوح بحاجبيـــه

كـــذال الـــديك يـــأتلق ائتلاقـــا

والناقة الهزيلة تشبه حرف النون في قول بن الإردخل:

فـــلا ونـــداك لـــم يلحـــق غبـــاري

أخـــو ســـير أعـــاد الحـــرف [39] نونـــا

ويشبه هذا ما جاء في السفر الثاني من شروح سقط الزند القسم الرابع [40]، لأبي العلاء:

---

(38) كتاب الحروف للخليل ص 158، 159.
(39) الحرف: الناقة (ديوان ابن الإردخل 266 خط بمكتبة دار العلوم) (أبو بكر الجزولي).
(40) الدار القومية ص 1611. شبه الناقة في هزالها وضمورها بحرف النون. تحت راء. تحت رجل يضرب رئتيها: اسم فاعل من رأيته: أذا أصبت رئته، لم يكن بدال: أي لم يكن رفيقًا بها، اسم فاعل من (دلا) ركابه إذا سار سيرًا رفيقًا، والرسم: رسم دار الحبيب، والمراد بالنقط: نقط المطر.

وحــــرف كنـــون تحـــت راء ولـــم يكـــن

بـــــدال يــــؤم الرســـــم غيـــــره الـــــنقط

6 – الاتجاه الصوفي: ونعرض أمثلة لحرف (الألف) وحدها من بين أخواتها للاختصار في بعض إشارات (القشيري).

(أ) في تفسير أول البقرة (ألم) يقول: والألف من بين سائر الحروف انفردت عن أشكالها بأنها لا تتصل بحرف في الخط وسائر الحروف يتصل بها إلا حروف يسيرة، فينتبه العبد عند تأمل هذه الصفة إلى احتياج الخلق بجملتهم إليه، واستغنائه عن الجميع.

(ب) ويقال: يتذكر العبد المخلص من حالة الألف تقدس الحق سبحانه وتعالى عن التخصيص بالمكان فإن سائر الحروف لها محل من الحلق أو الشفة أو اللسان إلى غيره من المدارج غير الألف فإنها هويته، لا تضاف إلى محل.

(ج) ويقال: اختص كل حرف بصيغة مخصوصة وانفردت الألف باستواء القامة والتميز عن الاتصال بشيء من أضرابها من الحروف فجعل لها صدر الكتاب إشارة إلى أن من تجرد عن الاتصال بالأمثال والأشغال حظي بالرتبة العليا ...وصلح للتخاطب بالحروف المنفردة على سنة الأحباب في ستر الحال [41].

(د) وذكر القشيري في التحبير ص 24 أن الألف من هذا الاسم يعني « الله » إشارة إلى الوحدانية، واللام الأولى إشارة إلى محو الإشارة، واللام الثانية إلى محو المحو في كشف الهاء.

ومعروف لدى العباريين أن الحرف في حد ذاته لا يحمل معنى، ولكنه عند الإشاريين كالصوفية يحمل معنى كبيرًا كما رأيت. وكما روي أن النفري

---

(41) اللطائف: 1 / 65 – 66.

نظر إلى صور الحروف بعين الصوفي فرآها كلها مرضى إلا الألف ويعني به الله. بل يذهب بعضهم أن (الألف) ماهيتها في (النقطة) (42) لأنها هي التي أعطت للحروف معنى فالحرف إذا تجرد من النقطة لا معنى ولا مفهوم له، وبعض الحروف يحمل النقطة في جوهره كالألف والميم، وبعضها يحمل النقطة في مظهره كالباء، ولهذا كان الشبلي يقول في حالة (الجمع): « أنا كالنقطة التي تحت الباء » (43). ويعتبر هذا فهمًا جديدًا للصوفية في (الكتابة) العربية، وفي معاني الحروف. كما أن لهم ذوقًا خاصًا في الوصل والقطع والهمز والشكل، والنصب والرفع وكثير مما لا يطلع لعيه غيرهم، لأن الصوفية كما جاء في الرسالة « أهل بيت واحد لا يدخل فيهم غيرهم » (44).

وقد فهم القشيري من الألف – في ضوء النصوص السابقة فهمًا جديدًا حيث نقله إلى السلوك الإنساني والعمل في التأدب والتخلق بما نعرف من أسرار هذا الحرف في الوجدان الديني وتلك وجهة يهتم بها القشيري في تألف الظاهر والباطن (*) وتواكب الحقيقة والشريعة حتى في أشكال الكتابة والإملاء، فليست المسألة اتجاهات فلسفية أو ميثولوجية في الحروف كما رأينا ذلك عند غيره.

---

(42) يقول الحلاج: في القرآن علم كل شيء، وعلم القرآن في الأحرف التي في أوائل السور، وعلم الأحرف في لام ألف، وعلم لام ألف في الألف، وعلم الألف في النقطة، وعلم النقطة في المعرفة الأصلية، أخبار الحلاج 95 فما بعدها.

(43) ألف الهمداني كتابًا في أسرار النقطة.

(44) ص 127.

(*) وهذا الاتجاه حرص عليه كثير من الصوفية. يقول السري السقطي في تعريف التصوف أنه: اسم لثلاثة معان. إحداها: ألا يتكلم بباطن في علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب أو السنة. ويقول الجنيد 297 هـ: من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدي به في هذا الأمر، لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة. انظر الرسالة القشيرية 1 / 65، 107. تحقيق د / عبد الحليم محمود و د / ابن الشريف.

على أن بعض هذه الاتجاهات في فهم الحروف قد يتداخل بعضها في بعض، فالحدود ليست حاسمة عند الصوفية، يؤكد ذلك شيخ من شيوخ القشيري الإمام (أبو بكر بن فورك) حيث يقول: « هو » حرفان هاء وواو، فالهاء تخرج من أقصى الحلق، وهو آخر المخارج، والواو تخرج من الشفة وهو أول المخارج فـ « هو » إشارة إلى ابتداء كل حادث منه وانتهاء كل حادث إليه، وإليه الإشارة بقوله تعالى: « هو الأول والآخر » [45]. فنص ابن فورك تداخل فيه الاتجاه (الصوتي) مع الاتجاه (الكلامي الصوفي).

(و) في المصطلح:

يركز الصوفي همه في عمارة الباطن، ولهذا وجدنا مصطلحات كثيرة عندهم تتصل بهذا الجانب بل يستعير الصوفي نماذج ومصطلحات من مختلف الفروع ليعبر بها عن الحقيقة بعد أن يمنح هذه المصطلحات نفسًا حارًا وطاقات متجددة تنطلق في مدارات متعددة. وقد استنبط القشيري من المصطلح وهو خلاصة الاستقراء اللغوي إشارات دقيقة تفوق المعنى القاموسي اللغوي ولفها بستار واق حتى لا تشيع في بيئة أخرى غير بيئتهم:

بالسـر إن بـاحوا تبـاح دمـائهم

وكـذا دمـاء العاشـقين تبـاح

معتمدين في ذلك على سنة الأحباب في ستر الحال، وعلى التركيز واللمح، قال شاعرهم:

قلـت لهـا: قفـي فقالـت قـاف

لا تحسـبينا قـد نسـينا الإيجـاف [46]

---

(45) كتاب التحبيز في التذكير 25. تحقيق د / إبراهيم بسيوني.
(46) شواهد الشافية 4 / 271، والأغاني 5 / 131 . قالت: قاف – أي إني واقفة أو: وقفت، فاستغنى بالحرف عن الجملة.

ولم يقل: وقفت سترًا على الرقيب ومراعاة لقلب الحبيب، وهكذا تكثر العبارات للعموم، والرموز والإشارات للخصوص. ونظرة خاطفة في الرسالة القشيرية تريك بابًا (للمصطلحات) غنيًا بالألوان والمذاقات، والمجاهدات والأحوال، وحسبها أنها تعبر عن مواقف نفسية وروحية وكشفية، كما توضح مراحل الحب والفناء، والشهود والتواجد والوجد والغيبة والحضور، والمحو والإثبات (47).

هذا، ولما كان التصوف رحلة شاقة مشحونة بالصراع كان على المصطلح الصوفي أن يغطي مراحل هذه الرحلة المثيرة من منطقة فوق الوعي والإدراك، فيطالعك القشيري بفروق دقيقة:

1 – بين (النعمة) على لسان العلماء وهي: لذة خاصة عن الشوائب، وعند أهل الحقيقة: ما أشهدك المنعم، أو ما ذكرك بالمنعم، أو ما أوصلك إلى المنعم، أو ما لم يحجبك عن المنعم (48).

2 – وفي اللطائف 1 / 123 عند تفسيره لقوله تعالى: « ما ننسخ من آية ... » يقول: فلا ننسخ من آثار العبادة شيئًا إلا وأبدلنا عنه أشياء من أنوار العبودية، ولا نسخنا من أنوار العبودية أشياء إلا أقمنا مكانها أشياء من أقمار العبودة (49).

والنص يفيض بمصطلحات القشيري: فالعبادة للعوام والعبودية للخواص والعبودة لخواص الخواص، وهي صفة أهل المشاهدات.

ولما كان القشيري كثيرًا ما يعتمد في مصطلحه على مظاهر الطبيعة كالليل والنهار والجبال والبحار والسحب أمكن وضع المصطلح السابق في ترتيب دقيق هكذا: آثار العبادة، أنوار العبودية. أقمار العبودة (50). وكلها

---

(47) والقرب والبعد والإفصاح والكتمان والسر، وسر السر، والتخلق والتحقق.
(48) اللطائف 1 / 95.
(49) اللطائف 1 / 123.
(50) اللطائف 1 / 124 وانظر المحقق.

مراحل تصف حالة النفس ورحلتها في الطريق حيث يتم للصوفي اكتشاف أبعاد نفسه ومدى صلتها بالله وبخلقه فتفنى حظوظه، ويصير ظاهره مع الخلق، وباطنه مع الحق، وفي هذا المقام نسمع قول مؤمنة صادقة بعد ليل حافل بالصيام والقيام! « إن استغفارنا في حاجة إلى استغفار ».

3 – ويطالعك القشيري بمصطلح من مصطلحاته الخاصة وهو (المريد) عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً** ﴾ [النحل: 97] ، وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ **وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ** ﴾ [الأنعام: 52].

فيقول عند الآية الأولى: « ويقال: الحياة الطيبة للأولياء ألا تكون لهم حاجة ولا سؤال ولا أرب، ولا مطالبة. وفرق بين من له إرادة فترفع وبين من لا إرادة له فلا يريد شيئًا، الأولون قائمون بشرط العبودية والآخرون معتقون بشرط الحرية » [51].

وعند الآية الثانية يشير إلى أن الإرادة عند الصوفية لها معنى اشتقاقي يختلف عنها عند علماء اللغة [52]، فالمريد، على موجب الاشتقاق، من له إرادة كالعالم من له علم، لأنه من الأسماء المشتقة، ولكن المريد في عرف الصوفية من لا إرادة له، فمن لم يتجرد عن إرادته لا يكون مريدًا [53].

4 – كذلك تنوعت المصطلحات والرموز عند الصوفية، فاقتبسوا كثيرًا من علوم الفلك والكيمياء والنحو والبلاغة ليعبروا بها عن أحوال باطنية، وخذ مثالًا واحدًا من مصطلح البلاغة والنحو [54]:

---

(51) اللطائف ج 3 ص 320.
(52) اللطائف 2 / 170.
(53) وانظر الرسالة القشيرية 92.
(54) استعمله القشيري في كتابه التحبير في التذكير ص 46.

« واعلم أن الرفع والخفض في الأمور الدنياوية مجاز وفي الأمور الدينية كالأخلاق والصفات الباطنة حقيقة، فمن زكى نفسه وطهر خلاله، فهو المرفوع حقيقة، ومن دسى نفسه في دنس خلاله، وأسرته شهواته وهواه فهو المخذول المخفوض حقيقة ». فالقشيري يلاحظ انتقال المصطلح من المعنى اللغوي إلى الاصطلاحي ثم أخيرًا إلى التصوف.

(ز) في نحو القلوب:

سبق أن تحدثنا عن نحو العبارة ونحو الإشارة، أو نحو الظاهر ونحو الباطن، وأن الأول يدرك بالعقل والثاني يدرك بالقلب، ولهذا سماه القشيري « نحو القلوب ». وفكرة القشيري في مبحثه هذا جديدة مبتكرة، فهو كما سبق يواكب بين الحقيقة والشريعة، فالحقيقة ظاهر، والشريعة باطن، أي أن العبادات لها ظواهر وبواطن، ولقد أطلعنا القشيري على هذا الاتجاه في بعض تواليفه – ففي كتابه الكبير « لطائف الإشارات » تفسير لكتاب الله على مذهب أهل الباطن، وفي كتابه « المعراج » يدرس رحلة عرفانية كان الرسول > خلالها مبهورًا بالكشوفات والفيوضات، وكان طيلة الرحلة مرادًا لا مريدًا ومحمولًا لا متحملًا – على طريقة أهل الباطن أيضًا.

كما أنه وضح في كتابه « التحبير في التذكير » قضية كلامية، وهي دراسة الأسماء والصفات الإلهية حيث قام بنقلها من محيط علماء الكلام التقليديين إلى دوائر الصوفية – وكان ذلك على طريقة أهل الباطن أيضًا [55]. فما الذي يمنع القشيري إذن من أن يعالج النحو العربي التقليدي الذي يعني بالإعراب وما يصيب أواخر الكلمات من رفع ونصب، وجر وجزم، ومن تعريف وتنكير، وتأخير وتقديم على طريقة أهل الباطن أيضًا؟ وأن

(55) الإمام القشيري: سيرته – آثاره – مذهبه في التصوف ص 77. دكتور إبراهيم يسري.

ينقله من محيط النحاة حيث كان فيه هامدًا جامدًا إلى محيط الصوفية حيث يكون فيه مذاقًا وحسًا وشفافية، وأن يصبغ مصطلحات النحو العربي بصبغة جديدة، وفهم روحي ملون بألوان الطوالع واللوامع، والمجاهدات والمذاقات.

لقد كان القشيري الصوفي أولًا متسلحًا بأسلحة النحو الظاهري قبل أن يبدأ هذا العمل عارفًا بدقائقه وأسراره حتى يتسنى له أن ينقل الفكرة في النحو الظاهري إلى مثيلتها في النحو الباطني، فلم يجعل القشيري من (نحو الإشارة) ثورة كما فعل ابن مضاء مع نحو العبارة، بل على العكس مد القشيري بينهما جسرًا وفتح طريقًا، وجعل بينهما مودة ورحمة ونسبًا وصهرًا. كما استعمل القشيري مصطلحات العلوم الأخرى غير النحو ليعبر بها عن جوانب الحياة الباطنية [56].

ولم يكتب القشيري بهذا النقل بل اعتمد على مظاهر الطبيعة وأخذ منها إشارات رائعة ليوضح بها حقائق العلم الصوفي من مجاهدات وكشوفات وأحوال ومقامات، معتمدًا في ذلك على الفروق الدقيقة بين هذه الظواهر الكونية [57]. ولقد قام القشيري بمثل هذا الصنيع في النحو الظاهري حيث التقط المصطلح النحوي عند أهل الظاهر واستكنه منه نحوًا صوفيًا عند أهل الباطن عن طريق إشارات تتصل اتصالًا وثيقًا بالمجاهدات والمقامات والكشوفات والمعارف العليا معتمدًا في ذلك على استنباط خفايا الألفاظ دون أن تحجبه قشورها الظاهرة، ومعانيها المألوفة.

وآن لنا أن نوضح ونفصل ما أجملناه معتمدين على النصوص الأمينة الموثقة من مؤلفات القشيري أولًا، ومن إشاراته وفيوضاته على قدر ما حملته طاقاتنا ثانيًا.

---

(56) التحبير في التذكير 46 حيث استعمل مصطلحات البلاغة في التصوف.
(57) انظر أمثلة من لطائف الإشارات 6 / 219، 275، 303.

1 – في باب (الإعراب والبناء) يقدم القشيري إشارات مركزة يمكن أن نلمح من ثناياها: أن ما يصيب أواخر الكلمات في الظاهر من رفع ونصب وجر وجزم يمكن أن يعتري القلب الإنسان، - وهو يشبه الكلمة المفردة – ما يعتري الكلمة من رفع ونصب وجر وجزم أيضًا، فهناك مطابقة بين حركات الإعراب وما يصيبها من تغير بحسب العوامل في النحو الظاهري وبين حركات القلب وما يحدث للإنسان، إلا أن حركات النحو ظاهرية، وحركات القلب روحية فلو تصورنا حالة العبد صعودًا فكأنه وهو مرتبط بعلائق الدنيا متأثر بها يشبه الاسم المجرور الذي يؤثر فيه حرف الجر، وليست حروف الجر إلا عوامل لفظية ضامرة، فإذا انسلخ من العلاقة وتجرد منها فهو يشبه الاسم الذي تخفف من ثقل العلاقات وهي تشبه حالة (النصب) والفتحة أخف الحركات، والنصب يقابل حالة انكماش الإرادة، ووقوع العبد تحت تصرف الإرادة الإلهية، وليس له من نفسه في نفسه شيء، وهذا أشبه بالمكملات في النحو الظاهري، من المفاعيل وغيرها المميزة بالنصب والتي لا تقوم بذاتها، بل هي تابعة للعمدة في الجملة وواقعة تحت تأثيره، فإذا ما وصل إلى التحقق صار (مرفوعًا) من لدن الحق، واكتسب منزلة عالية وهي (الرفعة). وعلامة الرفع في النحو الظاهري وجودية، والعبد عند الصوفية له جهود ومعاناة في طريقه إلى المقامات، وهذه الجهود تكون مستمرة ولا ينتقل من مقام لاحق إلا إذا استوفى شرائط المقام السابق، وفي كل مرحلة ينال نصيبه من لدن الحق فإذا أصيب العبد بالسأم أو الملل أو اعترضه عائق أو جذبته علاقة أصيب (بالفترة)، فإن طارد دواعيها استمر وإلا أصيب (بالوقفة) ونصيبه يكون الهجر، فإذا داوم الرحلة بدون (فترة) أو (وقفة) كان نصيبه (الوصل) من لدن الحق، (والوصل) أشرف من (الوقف).

أما الوقف في النحو الظاهري فهو تغير مخصوص علامته السكون والسكون عدم الحركة. ولهذا أهمل أبو الأسود الدؤلي السكون ولم يعده

من الإعراب فهو سلبي والحركة إيجابية، والعلاقة وثيقة بين الوقفة في النحو الصوفي، والوقف في النحو التقليدي.

أما أن (الوصل) أشرف من (الوقف) فيقرره أحد علماء العربية حيث يقول: « إن الوصل مما تجري فيه الأشياء على أصولها، والوقف من مواضع التغيير ... وحالة الوصل أعلى رتبة من حال الوقف، وذلك أن الكلام إنما وضع للفائدة، والفائدة لا تجنى من الكلمة الواحدة، وإنما تجنى من الجمل ومدارج القول فلذلك كانت حالة الوصل عندهم أشرف وأقوم وأعدل من حال الوقف [58]، ويبدو من اتجاه القشيري في فهمه لحركات الإعراب في النحو الظاهر أنه يرتب على العلم بها عملًا وسلوكًا في الإنسان بل حياة ومصيرًا، وذلك ما نسمع صداه الآن في أحدث النظريات المعاصرة حيث ترى أن البعد الأساسي في كل عمل فني بعد الألوان والظلال وأبعاد اللوحة – هو الإنسان. وهذا فرق بين الصوفية وأهل الجدل والنظر من النحاة والفلاسفة، وخذ مثالًا واحدًا من قول ابن عربي [59]:

حركـــات الحـــروف ســـت ومنهـــا
أظهـــــر الله مثلهـــــا الكلمـــــات
هـــي رفـــع ثـــم نصـــب وخفـــض
حركـــات للأحـــرف المعريـــات
وهـــي فـــتح وثـــم ضـــم وكســـر
حركـــات للأحـــرف الثابتـــات
هـــذه حالـــة العـــوالم فـــانظر
فـــي حيـــاة غريبـــة فـــي مـــوات

(58) الخصائص 2 / 331 دار الكتب.
(59) لوحة 301 / ب روح القدس في مناصحة النفس. مصور

فابن عربي ينظر بما في الكون من تغير بحالات الإعراب – المتغيرة في تعاقبها على الكلمة كما ينظر العناصر الأولى الثابتة فيه بحركات البناء التي لا يعتورها التغير في الكلمة. وقد شبه القشيري (المعرب) في نحو الظاهر وهو المتغير بحسب العوامل بصاحب (التلوين) في اصطلاح الصوفية وهو عندهم صفة أرباب الأحوال، فما دام العبد في الطريق فهو صاحب تلوين لأنه ينتقل من حال إلى حال، فإذا وصل ثم اتصل فهو صاحب (تمكين). ودليل اتصاله أنه بالكلية عن كليته باطل [60].

وصاحب (التمكين) في التصوف يشبه (المبني) في نحو الظاهر، وحركات البناء أصل، وحركات الإعراب فرع في نحو العبارة، لأن حركات البناء لا تزول ولا تتغير عن حالها، وحركات الإعراب تزول وتتغير، وما لا يتغير أولى بأن يكون أصلًا مما يتغير. فالمبني أشرف من المعرب في نحو العبارة، لما سبق. وفي نحو الإشارة كذلك، لأن الثبات وعدم التغير في السراء والضراء، عند تقلب الأحوال على العارف من علامات (التمكين)، وسادات الوقت هم أهل التمكين، يقول القشيري في اللطائف [61]: « فالمريد مسافر بقلبه لأنه يتلون ويرتقي من درجة إلى درجة، والعارف مقيم ومستوطن لأنه واصل متمكن، والطريق منازل ومراحل ولا تقطع تلك المنازل بالنفوس، وإنما تقطع بالقلوب، والمريد سالك والعارف واصل ».

2 – ويمضي القشيري فيرى أن (المبتدأ) متجرد عن سوابق تجعله مرتبطًا بعلاقة خارجية عن ذاته، والمبتدأ في لغة أهل الإشارة اسم « الله » وهو قائم بذاته بغض النظر عن وجود الخبر فالاسم « هو » عند الصوفية نهاية التحقق، ولا يحتاج إلى خبر لأنه كلام تام بدون شيء آخر يتصل به، أو يضمر لاستهلاكهم في حقائق القرب واستيلاء ذكر الحق على أسرارهم، فلا يسبق إلى قلوبهم غيره، ويكتفون به عن كل بيان [62].

---

(60) الرسالة ص 41.
(61) اللطائف 3 / 311.
(62) التحبير في التذكير 25.

لكن هذا الاسم « هو » في نحو الظاهر يحتاج إلى خبر ليتم الكلام، وبدون الخبر يظل المبتدأ عديم المعنى، لأن الخبر هو الذي يكشف عن معناه.

ثم ينظر القشيري المبتدأ المتجرد عن العوامل اللفظية بالفقير الصوفي المتجرد عن كل علاقة تصده عن الله لأنه قائم مع الله بالله، فهو (مرفوع) القدر عند الله لما ناله من تجرد وفقر وتوكل وصبر [63] وصد وهجر، والله يحب أن يرى ثياب التجرد على الفقراء لأنها الثياب التي خلعها عليهم بنفسه حين آثروا حقه على حظوظهم، وكذلك كان حكم المبتدأ (الرفع) في النحو الظاهري للتجرد عن العوامل.

3 – ويمضي بنا القشيري في تأصيل فكرته حيث يلتمس نحوًا روحيًا للفعل المضارع في رفعه ونصبه وجزمه، فإذا كان فعل الحال متجردًا عن العوامل الناصية والجازمة فأصله الرفع، وهو من العلو والارتفاع، فإذا دخل عليه ناصب أو جازم صرفه إلى غير الرفع. والأمر كذلك عند أهل الطريق ؛ فإذا دخلت الشواغل والعلائق اتجاه العبد غيرت منزلته، كأن تنتصب النفس لترى أفعالها وتلاحظها وتشاهدها فتصيبها الدعوى والإدعاء، وذلك عند الصوفية دبيب خفي يؤثر في التوحيد، وحديث النفس شرك عندهم، إذ العبادة يجب أن تكون خالصة حتى مع الطمع في الآخرة ثوابًا وعقابًا.

وكذلك إذا اعترضت القواطع والموانع اتجاه العبد أصيب (بالفترة) ثم (الوقفة). وهي الحبس بين المقامين لعدم استيفاء حقوق المقام الذي خرج عنه، وعدم استحقاقه دخوله في المقام الأعلى. فالوقفة عندهم لها معنى وهي نفسها السكون والجزم في (نحو العبارة). ولما كان السكون دليل الجزم، فذلك يؤكد أنه عنصر مهم له قيمة إيجابية في النظام اللغوي

---

(63) اللطائف 6 / 247 محقق.

تجعله يقارن بالحركات، ولهذا أطلق عليه في الدراسات اللغوية الحديثة « الحركة الصفر » [64]. فإذا سلم العبد في النحو الباطني من (الملاحظة) و (الفتور) و (الوقفة) وبادر باستشعار التحسر تداركته الرحمة ونظر الله سبحانه وتعالى إليه بقبول الرجعة (وارتفع) قدره عند العزيز الغفور « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح (يرفعه) »، كما يرتفع في النحو الظاهري – الفعل المجرد من العوامل الناصبة والجازمة، ألا ترى أن الرفع لا يطرأ إلا على الكلمات الرئيسية في الجملة كالمبتدأ والفاعل وأشباههما فهو للعمد، كما أن النصب والجر للفضلات والمكملات.

4 – ثم ينتقل القشيري إلى المكملات في الجملة فيتحدث عن الحال والتمييز.

ولنبدأ بتعريف الحال في النحو الظاهري وهو: وصف فضلة منصوب للدلالة على هيئة، وللحال أربع صفات: أن تكون منتقلة مشتقة نكرة، وكونها نفس صاحبها في المعنى. أما تعريف التمييز فهو فضلة نكرة بمعنى (من) يبين إبهام اسم أو إبهام نسبة. ويلتمس القشيري معاني روحية لما تقدم في إشارات مركزة يستشف منها أن العبد إذا (انتصب) استقامت (أحواله)، إذ أصبح لا يرى عملًا بعين العجب فهو (منتصب) مستقيم خالص لله. والعبد كذلك لخموله، وبعده عن الشهرة (نكرة) فليس للخلق عنده اعتبار، لأنه مستقيم في طريقه إلى الحق، فإذا قلنا في النحو الظاهري جاء القائد منتصرًا – فصاحب الحال هو الفاعل، لأنه هو الذي صنع الانتصار، فهي متصلة – بهيئته، أما في النحو الإشاري فإذا قالوا (صاحب الحال) فمعناه عندهم (مرزوق الحال) لأن الحال هنا من لدن (الحق) و (الأحوال) كلها من الله فهي تأتي من عين الجود، فهي مواهب، كما أن (المقامات) تحصل ببذل المجهود فهي مكاسب، وبهذا ينكشف النقاب عن مدى الفرق والتشابه بين النحو الظاهري والإشاري في الحال،

---

(64) د. كمال بشر – مجلة المجمع ج 24.

وإذا كان التمييز في نحو الظاهري لا يكون إلا بعد تمام الكلام فكذلك في نحو الباطن، فلا يميز الله أحدًا من عباده إلا بعد أن يتخلى بالعلم والفقه والفضائل من إيثار وإخلاص وبذل وتضحية وهي عناصر الفتوة فإذا تحلى تمت له رتبة التمييز « ونصبهم الله لإصلاح عباده، وميزهم فاستخلصهم لوداده » (65).

5 – ثم يتجه الشيخ رضي الله تعالى عنه إلى (التوابع):

فيبدأ بالبدل وأقسامه، فالنعت، فالعطف، فالتوكيد. وحسبي من التوابع ملحظ واحد بين (البدل) الظاهري والإشاري تتضح فيها الملامح بينهما. وذلك أن بدل البعض يمكن فصله فيما إذا قلت مثلًا: أكلت التفاحة نصفها – بمعنى أنك أكلت النصف الصالح ورميت النصف الفاسد، وفي النحو الإشاري كذلك فقد تخلصوا من نفوسهم وعللهم، فبدل الله سيئاتهم حسنات.

أما بدل الاشتمال فلا يمكن فصله في نحو العبارة كما إذا قلت: أعجبني العندليب صوته، وكذلك في نحو الإشارة فهم لم يتمكنوا من التجرد والأعلال، ولا يزال عندهم وارد من ثواب أو عقاب، ولم يستطيعوا أن ينفصلوا من عللهم وأن يستبدلوا بالعبادة المغرضة عبادة خالصة. فهم بين خوف ورجاء، قبض وبسط.

ثم أخيرًا يمضي بنا إلى (حروف الجر)، وهي آخر المطاف. يقول القشيري عن حروف الجر: « وهي تخفض الأسماء، فلما لعم المحققون أن الأشياء بالله، ومن الله، وإلى الله، خفضوا أنفسهم تواضعًا لله فتعززوا بالإضافة إلى جانب الله، أولئك الذين اصطفاهم الله لقربه وجعلهم من حزبه » (66).

---

(65) نحو القلوب: للإمام القشيري.
(66) نحو القلوب: للإمام القشيري.

والحرف في نحو العبارة: ما جاء لمعني في غيره [67]، والحروف متى اختصت بالأسماء عملت الجر، وإنما وجب أن تعمل الجر لأن إعراب الأسماء رفع ونصب وجر، فلما سبق الابتداء إلى الرفع في المبتدأ والفعل إلى الرفع في الفاعل وإلى النصب أيضًا في المفعول، لم يبق إلا الجر فلهذا وجب أن تعمل الجر [68].

وسميت حروف الجر لأنها تجدر معاني ألأفعال إلى الأسماء أي تضيفها وتوصلت إليها ؛ ولهذا سماها الكوفيون (حروف الإضافة).

وعلامة الجر الكسرة وما ناب عنها في اصطلاح النحاة، فهي تحدث عملًا خطيرًا في الاسم على الرغم من قلة حروفها وضمورها. يؤكد هذا أن رجلًا وقف على الشبلي فقال: أي صبر أشد على الصابرين؟ فقال: الصبر في الله عز وجل، فقال: لا، فقال: الصبر لله تعالى. فقال: لا. قال: الصبر مع الله تعالى. قال: لا. قال: فأي شيء! قال: الصبر عن الله عز وجل. قال: فصرخ الشبلي صرخة كادت روحه أن تتلف [69]. فحروف الجر هي التي أعطتك هذه الشحنات المملوءة بالمذاقات والمواجيد، ولهذا أنشدوا:

والصبر (عنك) فمذموم عواقبه

والصبر (في سائر) الأشياء محمود

وهاك القشيري يكشف عن حقيقة حرف الجر على طريقة أهل الإشارة حيث يقول في تفسيره « وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة ... » من شهد المصائب نفسه لله، وإلى الله، ومن شهد المبلي علم أن ما يكون من الله فهو عبد بالله، وشتان بين من كان لله وبين من كان بالله،

---

(67) أسرار العربية لابن الإنباري 12.
(68) أسرار العربية 253.
(69) رسالة القشيري 285.

الذي كان لله فصابر واقف، والذي هو بالله فساقط الاختيار والحكم إن أثبته ثبت، وإن محاه انمحى، وإن حركه تحرك، وإن سكنه سكن، فهو عن اختياراته فان [70].

وانظر كيف يستعمل حرف الجار مرتبطًا بمراتب العبادة وهو يتحدث عن تفسير آية الصوم: « من شهد الشهر صام لله، ومن شهد خالق الشهر صام بالله، فالصوم لله يوجب المثوبة، والصوم بالله يوجب القربة. الصوم لله تحقيق العبادة، والصوم بالله تصحيح الإرادة [71].

كما تظهر شفافية القشيري وتذوقه في لهجة تستقطر الدمع وتستنزف الدم حيث يقول: « أفمن هو (في) روح إقبالنا (عليه) كمن هو (في) محنة إعراضنا (عنه)، أفمن بقي (معنا) كمن بقي (عنا) » [72].

فما أشبه حروف الجر هنا بذرات نور دقيقة متتابعة في مدارات متعددة تعطي الواحدة منها الأخرى قوة دفع، وتأخذ من سابقتها دفعة منح.

وأحيانًا تجد حرف الجر النحيل أقوى من الدنيا وما فيها، وكأنه زلزال يهدر في جوانب نفسك، ذلك حين يفسر قول الله عز وجل « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ». يقول القشيري: فأعلن التبري منهم، وأظهر الخلاف معهم، وأنصب العداوة لهم ... « وكن بنا لنا متبريًا عمن سوانا، واثقًا بنصرتنا، فإنك بنا ولنا » [73].

وأحيانًا يرق حرف الجر شيئًا فشيئًا حتى يضمر ويعري حتى يغيب عن شاهدك، وذلك حين يفسر قوله عزل وجل: « إني وجعت وجهي للذي فطر السموات والأرض». يقول القشيري: « أفردت قصدي لله، وطهرت عقدي عن

---

(70) اللطائف 1 / 152 وانظر 160، 265.
(71) اللطائف 1 / 165.
(72) أدب القشيري ص 332 مخطوطة بمكتبة كلية الآداب. جامعة القاهرة – د. إبراهيم بسيوني.
(73) اللطائف 1 / 130 فما بعدها.

غير الله، وحفظت عهدي في الله لله، وخلصت وجدي بالله، فإني لله بالله، بل محو في الله والله الله [74].

وإذا كان الكوفيون قد سموا حروف الجر (حروف الإضافة) فقد استغل القشيري هذا المصطلح الكوفي واستكنه منه نحوًا صوفيًا ظهر في تفسيره لقوله تعالى: « لا يتخذ المؤمنون والكافرين أولياء من دون المؤمنين ». يقول: « وأولى من تسومه الهجران والإعراض عن الكفار نفسك ؛ فإنها مجبولة على المجوسية حيث تقول: « لي ومني وبي » [75].

وواضح إن القشيري يرى في حروف الإضافة على هذا النمط شركًا خفيًا، وهذا معنى قولهم: « التوحيد إسقاط الياءات ». يعني ياءات الإضافة إلى نفسك. والتوحيد الحق لا يقتضي شعورك بما سوى الموحد. وقد سئل بعض المشايخ: ألك رب؟ فقال: أنا عبد وليس هو مولى لي، من أنا حتى أقول لي [76]؟

ويلاحظ على حروف الجر في (نحو الظاهر) أنها تتداخل وتشتجر حينًا ويحل بعضها مكان بعض، أو يقع الترادف بينها حينًا آخر حتى غابت حقيقتها وغامت. ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر: فقد وقع التداخل بين (عن) وبين (الباء) في قوله تعالى: « وما ينطق عن الهوى » وبين معنيين من معاني (الباء): فهي للمصاحبة في « فسبح بحمد ربك ».

ويرى بعضهم أن (الباء) للاستعانة. كما يحل بعضها مكان بعض: فـ (علي) تقع للتعليل (كاللام) في « ولتكبروا الله على ما هداكم »، أو بمعنى (في) الظرفية مثل: « ودخل المدينة على حين غفلة »، أو بمعنى (من) مثل: « الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ».

---

(74) اللطائف 2 / 180.
(75) اللطائف 1 / 245.
(76) انظر التحبير في التذكير _ 26. تحقيق د. إبراهيم بسيوني.

كما تكون اللام بمعنى (إلى) مثل: « بأن ربك أوحى لها ». أو بمعنى (على) في الاستعلاء مثل: « ويخرون للأذقان يبكون »، أو بمعنى (في) مثل: « يا ليتني قدمت لحياتي » [77].

وإذا كان بعض النحاة يحكمون بصحة هذا كله فإن (النحو الصوفي) يرفضه ؛ لأن القشيري كان رأيت من أمثلته التي تذوقت معانيها لم تكن حروف الجر عنده قاموسية كما كانت عند النحاة ؛ بل كانت كائنات حية تحمل عصارة ذهنه وتفكيره في حقائق علم القلوب، وبيان سبيل السلوك:

(أ) ففي قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ [الشُّورى: 25].

يرى النحو التقليدي أن (عن) بمعنى (من) (مغني اللبيب 1 / 130). ولكن الصوفي يرى أن (عن) في مكانها، والمعنى عندهم إن الحق يقبل التوبة متجاوزًا عن عباده في توبتهم لعدهم خلوصها رحمة منه بهم [78]. ولا تستطيع (عن) إذا كانت بمعنى (من) أن تؤدي هذا الملحظ الخفي.

(ب) واستمع إلى القشيري يقول: « لا أذكرك إلا بك ولا أعرف إلا بك » ويرى الدكتور إبراهيم بسيوني في تعليقه على الجملة السابقة أن المنهج

---

(77) انظر مغني اللبيب لابن هشام في هذه الحروف.

(78) مذهب البصريين أن أحرف الجر لا ينوب بعضها عن بعض بقياس، كما أن أحرف الجزم وأحرف النصب كذلك، وما أوهم كذلك فهو عندهم إما مؤول تأويلًا يقبله اللفظ، كان قيل في (ولأصلبنكم في جذوع النخل): إن (في) ليست بمعنى (على)، ولكن شبه المصلوب لتمكنه من الجذع بالحال في الشيء، وإما على تضمين الفعل معنى فعل يتعدى بذلك الحرف، كما ضمن بعضهم: شربن في قول الشاعر:

شربن بماء البحر ثم ترفعت * متى لجج خضر لهن نئيج

معنى: روين، وأحسن في (وقد أحسن بي) معنى لطف، وأما على شذوذ إنابة كلمة عن أخرى، وهذا الأخير هو محمل الباب كله عند أكثر الكوفيين وبعض المتأخرين، ولا يجعلون ذلك شاذًا، ومذهبهم أقل تعسفًا. (مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام)، « الباء المفردة ». فالكوفيون يتوسعون في معاني حروف الجر، ويعطونها أكثر من معنى، كما يجيزون إنابة بعضها عن بعض قياسًا: وانظر: شرح التصريح على التوضيح 2 / 7. والصبان علي الأشموني 2 / 316، وهمع الهوامع للسيوطي 2 / 29.

الصوفي يفترق عن المنهج الكلامي والفلسفي اللذين يعتمدان في الاستدلال على الخالق بالمخلوق، أما الصوفية فيستدلون أولًا بوجوده سبحانه على وجودهم. وعندهم أن الاستدلال بالأول الخالق على المحدث المخلوق أولى ؛ ذلك لأن الحق مشهودهم.

عجيب لمن يبغي عليك شهادة

وأنت الذي أشهدته كل مشهد

يقول ابن عطاء الله السكندري في ذلك: « متى غبت حتى تكون الأكوان شاهدة عليك؟ ». فحرف الباء هنا أشعر بفضل الله على العبد حين يسبق إلى معاونته كي يذكره، ويبعده ويعرف به [79]. فقد حملها القشيري في الفعل معاني جديدة أثرت الفكر الديني. فحرف الجر في النحو الصوفي على نحوله خطير ؛ إذ يعبر عن مذاقات ومواجيد.

وإذا كان حرف الجر عند أهل العبارة يجر الاسم ويترك فيه أثرًا ماديًا وهو الجر فإنه عند أهل الإشارة أعمق أثرًا وأوسع نشاطًا، وأرق حسًا، وأشهى مذاقًا ؛ فهو يجر العبد من نفسه إلى مرحلة (النصب)، ثم إلى مرحلة (الرفع)، أو ليس من أسمائه تعالى « الرافع الخافض »؟

ثم حروف الخفض (أحوال) من قبيل (الخوف) الذي يرفع بعده العبد إلى (الرجا)، و (القبض) الذي يرفع منه إلى (البسط)، و (الحجب) الذي يرفع منه إلى (الكشف).

ثم ألا تجد معي بعد هذا الطواف والمسير أن القشيري كان يجرد حرف الجر من غلافه وغلالته حتى يستشف معدنه، ويلمس سره، ويربطه بالحياة الروحية الصوفية؟ وقد كان القشيري – نور الله مضجعه، وبرد مثواه ومترعه – يعمل نفس هذا العمل مع بدنه ونفسه وروحه !!

---

(79) الإمام القشيري 332. د. إبراهيم بسيوني. مخطوطة بمكتبة جامعة القاهرة.



هذا، وقد كان للشيخ اتجاهات إعرابية حملت قيمًا إشارية في كتابه اللطائف أذكر منها على سبيل المثال [80].

1 – ما جاء في اللطائف 2 / 332 عند شرحه لقوله عز وجل: « يا أيها النبي حسبك الله ومن أتبعك من المؤمنين » (الأنفال 64). يقول: أحسن التأويلات: من في محل النصب، أي: ومن اتبعك من المؤمنين يكفيهم الله . على أن العربية تجيز وجها آخر تكون فيه (من) في محل رفع أي كفاك وكفاك المؤمنون (انظر الكشاف)، ولكن ملحظ القشيري في الإعراب يرجع كل شيء إلى الله، فالخالق خلقه، والحكم حكمه، وذلك مذهبه.

2 – ما ورد في اللطائف 2 / 154 « الحمد لله الذي خلق السموات والأرض ».
(الآية ... الأنعام). فـ (الذي) إشارة و « خلق السموات والأرض » عبارة. استقلت الأسرار بسماع « الذي » لتحققها بوجوده، ودوامها لشهوده، واحتاجت القلوب عند سماع « الذي » إلى سماع الصلة. لأن « الذي » من الأسماء الموصولة بكون القلوب تحت ستر الغيب، فقال: « خلق السموات والأرض ».

وانظر اللطائف في أماكن متفرقة تجد القشيري يسخر الجانب الإعرابي ليخدم مذهبه في التصوف (5 / 77).

وما دام حديثنا في النحو عند القشيري، فهل كان القشيري يميل إلى مذهب معين فيه؟

الواضح أن القشيري كان يستعمل مصطلح البصريين في (نحو القلوب). وبجانب هذا رأيته في « نحو القلوب » يسمي (حروف الجر) (حروف الإضافة)، وذلك مصطلح كوفي، وإنما سميت حروف الجر حروف

---

(80) انظر نماذج مختلفة في المرجع السابق.

الإضافة لأنها تضيف الفعل إلى الاسم، أي توصله إليه [81]، كما سمي الضمير (بالكناية) وذلك في قوله تعالى ﴿ **وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا** ﴾ [طه: 110] [82]، وفي مرة أخرى عند قوله تعالى: ﴿ **وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ** ﴾ [الشورى: 26] [83]. وهذا اصطلاح كوفي أيضًا [84]. وإنما عبر عن الضمير بالمكني، لأنه يكني به أي يرمز به عن الظاهر اختصارًا، لأن اللبس مأمون مع الضمير. والغرض منه: الدلالة على المراد منه مع الاختصار، كما استعمل حرف (الصلة) وذلك عن الحديث في قوله تعالى: ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ** ﴾ [الشورى: 11]، فقال:

« والكاف في « ليس كمثله » صلة أي: ليس مثله [85]». وهذا مصطلح كوفي يقابله (حروف الزيادة) عند البصريين [86]. والقشيري كعادته يستعمل دقائق اللغة ورقائقها تورعًا من أن ينسب (الزيادة) إلى الكتاب المقدس كما فعل غيره.

ويظهر أن الشيخ لم يمل إلى مذهب بعينه في النحو البصري أو الكوفي بل كان يمرق سريعًا فلم يلتفت إلى خلافات النحاة من بصريين وكوفيين في إشاراته (النحوية). ولم يقف ليناقش أصحاب كل مذهب أو مدرسة ولا ليناقش غيرهم من أصحاب الفرق الإسلامية، فالشيخ كان يمر على عجل في كل ذلك، يؤكد هذا ما جاء عن القشيري في « نحو القلوب »: « قال أهل العبارة: الاسم مشتق من السمو، أو من السمة على الخلاف » [87].

لكنه كان طويل النفس مسترسل الفكرة حين يحرك مثل هذا النص من أفقه الضيق، ومكانه الجامد إلى الرحب الفسيح، حيث السلوك والتخلق،

---

(81) الهمع 2 / 19.
(82) اللطائف 4 / 150.
(83) اللطائف 5 / 353.
(84) شرح المفصل لابن يعيش 3 / 84.
(85) اللطائف 5 / 345.
(86) شرح المفصل 8 / 128.
(87) نحو القلوب: للإمام القشيري.

والاستشفاف والتذوق، ومن هذا المنطلق الأخير وحده نذر عمره، وكرس جهوده. استمع إليه يقول [88]: « الاسم مشتق من السمو والسمة، فسبيل من يذكر هذا الاسم أن يتسم بظاهره بأنواع المجاهدات، ويسمو بهمته إلى محال المشاهدات، فمن عدم سمة المعاملات على ظاهره، وفقد سمو الهمة للمواصلات بسرائره، لم يجد لطائف الذكر عند قالته، ولا كرائم القرب في صفاء حالته ».

(ز) ويظهر أن القشيري فهم من النحو ما يشمل النحو والصرف فتكلم في « نحو القلوب » على مسائل صرفية مثل:

1 – الصحيح والمعتل من الأسماء.

2 – والاشتقاق في الاسم.

وفكرته في المسائل الصرفية كفكرته في مسائل النحو تقوم على المطابقة في أن ما يصيب الكلمة من تغيرات يحدث مثيلتها للعبد. فالصحيح من الأسماء عند أهل العبارة: ما سلم من حروف العلة وهي: الألف والواو والياء، وهي أصوات تقع في مهب التغيير والتبديل والحذف في النحو الظاهري. والصوفي يرى أن مجيء حرف العلة في آخر الكلمة أو في جوفها « في القلب » تنظير بأنه يجب أن يتجرد العبد من العلل في وسط الطريق ونهايته، والصوفي يرى أن النفس محل المعلولات وأوصاف الضعف البشري، والقلب محل المحمودات، وبقاء الإنسان بالعلل علامة ضعف، والعلل باقية مع العبد ما دام في حالة (التلوين) فإذا تجرد من العلل وأصبح فانيًا عن حظوظه – كان في حالة (التمكين) وسلم اسمه من ألف الإلباس، وواو الوسواس، وياء اليأس، وحق له الإعراب وهو البيان ثم الكشف والعيان. والعلل تلازم الإنسان حتى مرحلة السر، ولا يخلو

---

(88) اللطائف 1 / 64.

العلل إلا عين السر أو سر السر. وهي أمانة للحق لدى الخلق كي يشاهدوه بها. ومن أجل هذه (العلل) منع الاسم من الصرف وهو (التنوين). والأصل في الاسم: أن يلحقه التنوين ليدل على تمكنه في الاسمية. فإذا وجد في الاسم: (علتان) تدلان على الفرعية، وكانت واحدة ترجع إلى المعنى، أو واحدة تقوم مقامها، فإن الاسم حينئذ يشبه الفعل، وشبهه بالفعل يضعف قوته، ويصبح ثقيلًا مثله، فيأخذ حكمه وهو امتناع التنوين، لارتكابه العلل ظاهرًا وباطنًا، (والعلة) مرض في العبد، ونقص في (الكلمة) الممنوعة من الصرف: (فالوصف): دعوى النفس بالظهور والغرور، والصوفي يستر نفسه. (والتأنيث): إشارة إلى أن الطريق الصوفي شاق، فإن تهاونت فيه فأنت ضعيف

(كالأنثى) لا تتحمل المجاهدات، (والعدل) في نحو العبارة: اشتقاق اسم من اسم عن طريق التغيير له كاشتقاق: عمر من عامر، والمشتق فرع من المشتق منه، و (العدل) يشمل التغيير والتحويل والعدول عن الأصل. وفي نحو الإشارة: عدول عن الطريق القويم، والتنظير بينهما قائم. و (وزن الفعل) كأن تجعل لعملك قيمة ووزنًا، وهذا نوع من (دعوى النفس) والإعجاب بما تفعل، والصوفي ملتزم بإسقاط التدبير وإثبات التقدير، والمعول عليه فضل الله، ولا قيمة لعمل العبد ولا (وزن لفعله) [89] بجانب فضل الله، وكل عمل للعبد مرتبط بالعناية الإلهية لا بالمجهود الإنساني، حتى أعمال الإنسان الصالحة لا تدخله الجنة [90]. وليست في نظر الصوفية إلا كالخيول الراكضة فوق ثبج الماء لا حول لها ولا طول، ولا نفع فيها ولا قدرة.

ويعرض القشيري لاشتقاق (الاسم) ؛ ففي النحو الظاهري نسمع خلافًا بين النحويين: فيرى البصريون أنه مشتق من (السمو)، لأنه سما على

---

(89) نحو القلوب: للإمام القشيري.
(90) وصدق الرسول (<) حين قال « ما منكم من أحد ينجيه عمله. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته ». وقول (<): « لن يدخل أحدكم عمله الجنة ... ».

مسماه، وعلا على ما تحته من معناه، أو أنه قد (سما) على الفعل والحرف [91]. ويرى الكوفيون أنه من (السمة) فكأنه سمة على المسمى يعرف بها.

كما نرى أنموذجًا من هذا الخلاف بين رجال الفكر الديني حيث نجد أهل السنة وهو في اشتقاقه كالبصريين، وأما المعتزلة فهم كالكوفيين، والفرق بين المذهبين: أن أهل الاعتزال ينكرون الصفات وأهل السنة يثبتونها. كما اشتد الجدل بينهم لأنهم نقلوا هذه المشكلة إلى الحديث عن الأسماء والصفات الإلهية، كما نرى وجهًا آخر لهذا الجدل بين دوائر النحاة المتمثل في البصريين والكوفيين [92].

ولكن القشيري الصوفي أخرج قضية اشتقاق الاسم والخلاف فيه من الجانب الصوفي التقليدي والجانب الجدلي الكلامي إلى الجانب الصوفي الذي يهتم بالسلوك والتخلق، والتطبيق والعمل. ومن آداب من عرف اسمًا من أسمائه أن يتأدب بما يعرف، وأن يطبق على نفسه:

أولًا: سلوكًا بمقتضى ذلك الاسم.

وثانيًا: أن يكون ذكر هذه الصفة حافزًا على التشبيه بالصفات الإلهية في حدود الطاقة الإنسانية. استمع إلى هذا المعنى من القشيري حيث يقول:

« فمن قال: إنه مشتق من (السمو) فهو اسم من ذكره سمت رتبته، ومن عرفه سمت حالته، ومن صحبه سمت همته.

ومن قال: إنه من (السمة) فهو اسم من قصده وسم بسمة العبادة، ومن صحبه وسم بسمة الإرادة، ومن أحبه وسم بسمة الخواص، ومن عرفه وسم بسمة الاختصاص.

---

(91) أسرار العربية لابن الأنباري. ص 4 ط دمشق.
(92) انظر نموذجًا من هذا الجدل في (أسرار العربية ص 5 لابن الأنباري).

أو يقول: اسم من واصله (سما) عنده عند الأوهام [93] قدره (سبحانه) ومن فاصله وسم بكى الفرقة قلبه [94].

كما يعرض القشيري لتصغير الثلاثي في (نحو اللسان) بأنه: اسم ضم أوله وفتح ثانيه مع زيادة ياء ثالثة كقولك في رجل: رجيل، وحجر: حجير. كذلك إذا أراد الحق تحقير العبد زاده شغلًا يتوهمه الناس نعمة وفضلًا ورفعة، ولكن هذه الزيادة إذلال له، ومنقصة بحاله » [95].

ثم، أما بعد: فإني أرى بعد هذه المرحلة الروحية في آثار الشيخ وشواهده أن الرجل كان موفقًا في نقل مصطلح النحو العربي إلى محيط التصوف الإسلامي حيث أطلعنا من خلال ذلك على فلسفة روحية قوامها القواعد النحوية، وأنه كان رائدًا في هذا العلم وذاك النقل من بيئة إلى بيئة. كما يؤكد هذا العمل مرة أخرى مدى الترابط في عالم المصطلحات، مما يساعد في المستقبل إن شاء الله على دراسة مراحل هذا الانتقال وتطوره، ويحدد أخيرًا إشارات الأخذ والعطاء، والتأثير والتأثر.

---

(93) اعلم أن ما يصوره وهمك وظنك فالله بخلاف ذلك.
(94) اللطائف 2 / 5.
(95) نحو القلوب الكبير، للإمام القشيري. ورقة 72 ميكروفيلم رقم 7434 دار الكتب والوثائق المصرية.



الفصل الثالث

الكتاب

(أ) منـهج الكتاب

وبعد أن تحدثنا عن فكرة القشيري في النحو، وكيف عالج « نحو القلوب » من خلال « النحو العربي التقليدي »، وقدم لنا فهمًا روحيًا جديدًا له، حيث جعل العلاقة بين النحوين: الإشاري والعباري، هي العلاقة نفسها التي يقوم عليها التصوف الملتزم بالكتاب والسنة وهي الربط بين الحقيقة والشريعة والباطن والظاهر [1]: فكل حقيقة لا تؤيدها الشريعة فهي باطلة، وكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فغير مقبولة: فهما وجهان لحقيقة واحدة، بمنزلة الإسلام والإيمان « والجسم والقلب، لا ينفك أحدهما من صاحبه » [2].

نقل القشيري هذه الفكرة الصوفية نفسها عندما عالج النحوين: الإشاري والعباري، فقضايا النحو الظاهري عنده موصولة بقضايا النحو الباطني ؛ ولذلك كان منهجه:

1 – أن يبدأ بالقضية في النحو الظاهري أولًا ثم يثني عليها بالنحو الباطني، وتلك إشارة منه إلى وجوب إتباع نحو الظاهر نظريًا، وإتباع نحو

---

(1) وجماع هذا قوله سبحانه: « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ... » البقرة 177، وقول رسوله >: « من أصلح جوانيه أصلح الله برانيه » النهاية في غريب الحديث لابن الأثير « بر ».

(2) علم القلوب 53 أبو طالب المكي.

الباطن، رياضة وحالًا، وقد أصاب الغزالي كبد الحقيقة عندما وضع نحونا التقليدي بين (علوم الصدف القشر) [3]. ويستحيل الوصول إلى لبه ونواته، وفقه أعماقه إلا عن طريق علوم (القشر) كما يستحيل الترقي إلى عالم الأرواح إلا عن طريق عالم الأجساد.

فليست قضية النحو عند القشيري في حفظ التعريفات والقواعد والإلمام بقضايا الرفع والنصب والجر والمفرد والجملة وأحكامها، وإنما كان نحوه بعد هذا فضا للقشرة الظاهرية حتى شف المصطلح ورق درجة بعد درجة كلما زاد الصعود وفتح باب الورود.

2 – وكان القشيري في استخراجه (للإشارات) من النحو الظاهري – معتدلًا فلم يجنح، ولم يجمح، ولذلك كان نحوه الظاهري الباطني على صغر حجمه صافيًا نقيًا، فلم يهم في أودية الأباطيل والضلال، ودروب الخيالات والأوهام.

3 – وإذا كان النحو العربي يدرك بالعقل، فإن نحو القلوب لا يدرك إلا بالذوق ؛ ولذلك كانت لغته الرموز لا العبارات، واللطائف والإشارات. وهي وحدها: لغة الإلهامات والمجاهدات، والأحوال والكشوفات، والمواجيد والأذواق.

يقول أبو سعيد الخراز: « العبارة يعرفها العلماء، والإشارة يعرفها الحكماء، والرمز يعرفه الأولياء، واللطائف يقع عليها السادة والشيوخ » [4].

فالعبارات ليس في مقدورها أن تعبر عن هذه الدقائق وتلك الرقائق فالعبرة بالمقاصد والمعاني لا بالألفاظ والمباني:

---

(3) جواهر القرآن 18، 20 للغزالي.
(4) علم القلوب 75.

وإطـــراق طـــرف العـــين لـــيس بنـــافع

إذا كـــان طـــرف القلـــب لـــيس بمطـــرق

على أن (إشارات) القشيري حين ربطها بالنحو العربي لم تكن مغرقة في الرمزية إلى حد الغموض والإبهام، بل يستطيع من عانى معاناته ونقى سريرته من الكدورات أن يفهمها، وأن يستبطن خفايا ألفاظها حيث يدق النحو فيها ويرق، ويلطف ويشف، فتلحظه عيون الأرواح لا عيون الأشباح، وتتلوه متبتلة في محراب هذا الكون لا في عرصات المعاهد وحلقات الدرس. فهو الآن في هذه المعارج، وتلك الرحلات والكشوفات قد تحول من نحو العقول والورق، إلى نحو القلوب والحرق. على أن القارئ العادي لن يستطيع أن يصحب القشيري في رحلته هذه، ما لم يتهيأ لها، ويهيئ لها من نفسه وسلوكه وجهده وروحه، وأهل الطريق هم الذين يتاح لهم بفضل الله الفيض الذي يكشفون به سر هذا المصطلح الإشاري.

4 – ولم يخصص القشيري (نحوه) للجانب النحوي وحده، ولكنه التفت إلى جوانب صوتية [5] واشتقاقية، وأشار إلى الصحيح والمعتل، وبعض مصطلحات النحو، ليجعل من هذا كله نقطة ارتكاز ينطلق منها إلى مشار عليا، ويحلق في مدارات للصعود وراء هذا الكون المادي المحسوس – ليشاهد عوالم الأرواح والأسرار، وهيهات أن يدرك الإنسان شيئًا منها إلا بفضل الله ورعايته.

5 – والقشيري حين ألف نحوه – لم يجعله نحوًا (جماليًا) كما نادى بذلك عبد القاهر الجرجاني، ولا نحوًا (رياضيًا تحويليًا [*]) كما تنادي به

---

(5) وهذا ملحظ دقيق من القشيري يغبطه عليه علماء اللغة المحدثون حين يقررون من الناحية المنهجية ضرورة ربط النحو بعلم الأصوات والصرف. أنظر آراء: ألكسندر هيوم A. Hume و: فيرث Firth وبالمار Palmar في كتاب علم اللغة العام. القسم الثاني ص 243 د. بشر.

(*) والنحو التحويلي – يعني بتحديد الإمكانيات التعبيرية الكامنة في لغة من اللغات. علم اللغة 77 د. حجازي.

بعض الاتجاهات الوافدة المعاصرة، ولكنه جعل نحوه (صوفيًا إلهيًا) يغمر الوجود، ويعمر القلوب، فكان بحق حلقة اتصال رائعة سامقة بين المخلوق والخالق [(6)]، يرى الإنسان في كل جزئية من جزئياته – ربه وهيمنته على هذا الوجود كله، وكأنما يحرك القشيري وجدان الإنسان بأن لا يقصد من أعمله في مسيرته الحياتية إلا ربه، وكل علم لا يوصل إلى تلك الغاية الشريفة فهو علم مكدود لا ثمرة له، ولا فائدة فيه، فنظرة القشيري هي في الشمول أوسع، وفي العطاء أجزل، وفي الأنفاس أطهر وأعطر، ولأنها – أخيرًا – ترتبط بكنف الله – سبحانه – فهو أسمى وأرفع **!!**

وعلى لبنات هذا النحو الظاهري بنى القشيري فلسفة خلقية عملية ترتبط بكنف الله ومراقبته واستشعار حضوره الدائم فيستوي عنده المنع والعطاء والجفاء والوفاء، والشدة والرخاء. وتلك لعمر الحق نظرة في الشمول قلما يفطن إليها غير الصوفية.

وحسبك من رجل يجعلك – حين تستنبط خفايا هذا النحو – مهيمًا في الله ومتيمًا: كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**!**

6 – وأسلوب المؤلف قد بلغ فيه الإيجاز غايته، والتركيز نهايته، ويميل فيه إلى السجع، كما يساوي بين فقراته.

7 – وهذا الكتاب يرى النور لأول مرة، ويأخذ مكانه في المكتبة العربية بعد أن ظل زمنًا طويلًا طي الكتمان والنسيان، والكتاب طرفة نفيسة من طرف التفكير المبتكر في المصطلح النحوي حيث نقل المؤلف المصطلحات

---

(6) إن المراقبة واستشعار الحضور الإلهي الدائم، والتقلب في الحياة تحت سمع الله وعلمه وبصره هي مفتاح الاتصال في التصوف، يقول سهل التستري « لن يتربى القلب بشيء أكثر ولا أضل، ولا أعظم، من نظره إلى الله عز وجل، واستماعه منه، وكلامه معه » في الفلسفة والأخلاق 285, د. كمال جعفر.

النحوية [7] إلى ميدان التصوف على طريقة أرباب المجاهدات والأحوال.

8 – أما هدف الكتابة وغايته – فلحمته وسداه: عمارة الباطن، وتنمية الإيمان والتأمل، وتصوير العبودية الصادقة، وتصحيح العلاقة بين الله تعالى والإنسان، وبين الإنسان والناس، بعد أن أصبح غريبًا بينهما تتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق عن أرضه ودينه. والكتاب رحلة نفسية، وخلاصة تجربة علمية روحية عاشها الإمام القشيري في حياته وعاناها.

كما ترى القشيري يلفتنا إلى تربية السلوك والقدوة من خلال قواعد هذا النحو. وأمر هذا النحو على ما سبق صعب مستصعب، لأنه يتصل بالحق تبارك وتعالى، ويكتشف فيه المؤلف دخائل النفس وسلوكها، والنيات ونوازعها، فلا يطيقه إلا عباد متجردون، وعباد موحدون، وصدق رسول الله - > - **« لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه »**. وهذا هو الهدف الثاني، تثقيف اللسان واستقامته، وعصمته من الزلل والخطأ.

---

(7) من الجدير بالذكر أن بعض رجال الصحافة في مصر قد استغل أنماطًا من المصطلح النحوي في نقد أخلاقيات المجتمع المعاصر، ومظاهر أمراضه ويمكن أن يسمى هذا النوع بـ « النحو الأخلاقي » وحسبي هذا المثال على سبيل الطرفة للأستاذ: أحمد رجب في باب « نصف كلمة » مما ينشره في صحيفة الأخبار 25 / 3 / 1973 يقول:
المرفوع: تقارير الرقابة الإدارية عن واحد حرامي.
المحذوف: تقارير الرقابة الإدارية من ملف الحرامي.
المنصوب: زفة بني همبكة للمدير في المطار.
النصب: تصريح مزمن يقول: قريبًا تختفي مشكلة انقطاع التيار.
المكسور: كالون الشونة في شركات المطاحن.
لا النافية: حرف نفي ورفض جازم بنفي الموظف الشريف إلى آخر الدنيا.
الممنوع من الصرف: حديد التسليح من غير لحاليح.
عمرو وزيد: فاعل ومفعول به في الجملة المفيدة: وجد عمرو زيتًا.
المضاف والمضاف إليه: المضاف هو بون الجمعية من الموظف لتاجر السوق السوداء، والمضاف إليه بريزة.
وإذا كان للصوفية (نحو) وللأخلاقيين (نحو) فليس بعجيب أن نرى للفقهاء (نحو) ذلك. فقد عثرت على عنوان كتاب باسم « نحو الفقهاء » لمؤلفه: سعيد بن أحمد الميداني الأديب المتوفى 539 هـ.

(ب) محتويات الكتاب ومقدمته

يقع هذا الكتاب في مقدمة وخمسة أبواب:

في الباب الأول: عالج أقسام الكلام. وفي الثاني: عالج الأسماء واشتقاقها، ثم عالج في الباب الثالث: موانع الصرف.

ثم ذكر في الباب الرابع: الإعراب والبناء، وفي الباب الخامس: البدل.

كان اشتمل على عشرة فصول:

في الفصل الأول: تحدث عن الصحيح والمعتل من الأسماء، وفي الثاني: تحدث عن المعارف والنكرات، وفي الثالث: أشار إلى المبتدأ والخبر. كما تحدث في الرابع: عن الزمن، وفي الخامس: عن الفاعل. والسادس: عن حروف الخفض. كما استشهد المؤلف في ثلاثة عشر موضعًا بآيات من القرآن الكريم، وفي موضع واحد بحديث شريف، ثم شاهدين من الشعر اشتملت عليهما نسخة (ط) دون بقية النسخ.

وقفة ومناقشة حول الكتاب

هذا وقد جاء في كتاب مفتاح السعادة ومصباح السيادة 2 / 186 فما بعدها حين ترجم للقشيري أن له كتاب « نحو القلوب الكبير » و « كتاب نحو القلوب الصغير ». وفي طبقات الشافعية الكبرى للإمام السبكي 3 / 243 فما بعدها (ط أولى مصر) أن من مصنفات القشيري « كتاب نحو القلوب الكبير وكتاب نحو القلوب الصغير أيضًا ». وفي مقدمة كتاب المعراج للقشيري ص 20 تحقيق د. علي حسن عبد القادر يذكر أن من كتبه المفقودة « نحو القلوب الكبير ». وفي مقدمة المجلد الأول من لطائف الإشارات للقشيري د. إبراهيم بسيوني يذكر أن للقشيري كتابًا باسم « نحو القلوب الصغير » وآخر « نحو القلوب الكبير ». كما أشار (بروكلمان) في تاريخ الأدب العربي ج 1 / 577 من الأصل الألماني أن للقشيري كتابًا باسم « نحو القلوب »

رقم 3805 برلين. وبعد البحث والتنقيب أصحح المعلومات السابقة على أساس:

1 – أن للقشيري « نحو القلوب الصغير ونحو القلوب الكبير » والذي قمت بتحقيقه الآن هو « نحو القلوب الصغير » معتمدًا على أن « نحو القلوب الكبير » تحت يدي الآن.

2 – أن ما رآه د. علي حسن عبد القادر من أن « نحو القلوب الكبير » مفقود، قد عثرت عليه وتحت يدي مخطوطته. ويقوم بتحقيقها د. إبراهيم بسيوني أستاذ الأدب الصوفي بجامعات العراق وعين شمس بالاشتراك معي.

3 – أن الرقم الذي أشار إليه (بروكلمان) سابقًا على أنه يحمل « نحو القلوب » للقشيري في دار الكتب (برلين) نوع من الخلط وقع فيه (بروكلمان) بدليل أن رقم 3805 تحمله مخطوطة أخرى في ألمانيا معنونة بـ « فائدة جليلة في حساب ليلة القدر » [8].

هذا وقد ألف كتب أخرى في « نحو القلوب » منها:

1 – مخطوطة « نحو القلوب وما يتبعه من سيرة سيد المرسلين ووفاة خواص العلماء العاملين » لأبي عبد الله محمد بن علي بن عراق، ضمن مجموعة للمؤلف نفسه تحت رقم 427 (برلين).

2 - « نحو القلب » شرح الأجرومية تأليف الشيخ الإمام العالم قدوة المحققين علي بن ميمون الحسني ثم الإدريسي تحت رقم 364 تصوف. دار الكتب المصرية، وكتبت في العشر الأوسط من شهر شعبان 915 هـ.

وبهذا يكون البحث قد صحح معارف واكتشف حقائق.

---

(8) من خطاب ورد لي من الزميل د. عرفة مصطفى بألمانيا. فله الشكر.



- بقيت كلمة أخيرة في (توثيق الكتاب) وهي:

1 – أن مصطلحات النحو العربي تتناثر في مؤلفات القشيري: كالرفع والخفض [9] والسكون والحركة [10] والمعرفة والنكرة [11] وسقوط الإضافات [12].

2 – أن حديثه عن أزمنة الفعل في « نحو القلوب » نسمع صداها في لطائف الإشارات [13].

3 – أن آراءه عن اشتقاق الاسم نرى مثلها في اللطائف [14].

4 – و (المبتدأ والخبر) في « نحو القلوب » ترى الفكرة نفسها في التحبير ص 25.

5 – كما ورد نص في كتاب مجهول المؤلف يسمى بـ « نحو القلوب » ضمن مجموعة خطية تحت رقم 116 مجاميع بدار الكتب يقول فيه: « يقول الإمام القشيري: وفعل ألحان مرفوع ما لم يدخل عليه نصيب أو جازم، فالناصب رؤية العبد لفعله، والجازم فترته عن سلوكه، فإذا سلم العبد من الملاحظة والفتور ارتفع قدره عند العزيز الغفور، « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ».

وبمقابلة هذا النص بما جاء في « نحو القلوب » للقشيري يؤكد أن النص نفسه مأخوذ من كتابنا الذي نحققه، مما يؤكد صحة نسبته إلى القشيري.

---

(9) التحبير في التذكير ص 46، 47 وانظر لطائف الإشارات 5 / 393.
(10) اللطائف 1 / 211، 227، 6 / 134.
(11) 6 / 160 لطائف، والتحبير 22.
(12) 4 / 122 (لطائف، والتحبير 26).
(13) 1 / 173، 298، 6 / 133. والتحبير: ص 51.
(14) 1 / 64، 2 / 5، 102، 232، 5 / 417، 6 / 100.

6 – أن الآراء الصوفية في « نحو القلوب » تتسق ومذهب القشيري المعتدل من أنه: صوفي سني أشعري، يجمع بين الشريعة والحقيقة والعلم والعمل.

7 – كما له آراء في (المتعلق النحوي) ربطها بمذهبه الصوفي ؛ إذ العبد يجب أن يكون مع الله بلا علاقة أو علة. وهما: من الشواغل والقواطع، والإيمان الصادق في تخلية القلب عن غير الله تعالى، وتحليته بذكر الله. وفي ذلك يقول القشيري عند تفسير قوله تعالى: « فاذكروني أذكركم » (فاذكروني) بقطع العلائق (أذكركم) بنعت الحقائق [15].

- وبهذا المنهج في التوثيق أكون قد استخرجت خصائص القشيري (نحوية كانت أو صوفية) من الكتاب المحقق ثم قارنتها بنصوص خارجية نقلت عنه، وكل هذا إمعان في التوثيق، والوصول به إلى مرحلة عالية من التثبت والضبط والأمانة.

(ج) مخطوطات الكتاب ورموزها

ننشر هذا الكتيب لأول مرة عن النسخ الآتية:

1 – مخطوطات بمكتبة أحمد تيمور رقم 196 تصوف بدون تاريخ وتقع في اثنتي عشرة صفحة ومسطرة كل صفحة 13 سطرًا بكل سطر منها 8 كلمات وفي أول صفحة من المخطوط على الجانب الأيسر من أعلى « من مَن من منَّ بها على مالكها أفقر العباد إلى الله تعالى صالح منصور اليافي. (ثم كلمات مشتبهات) ... محمد ابن حسني (كذا) الشابي التونسي. وفقه الله. ويلاحظ عليها: تسهيل الهمزات ووضع نقطتين تحت الحرف (ي) وقد رمزت إليها بالحرف (ت).

---

(15) اللطائف: 1 / 149.

2 – مخطوطة بمكتبة طلعت رقم 242 مجاميع بدار الكتب المصرية ومنها: (ميكروفيلم) بدار الكتب المصرية رقم 9655 من ورقة 17 – 22. وقد كتبت في 1319 هـ آخر ربيع الآخر بخط الفقير حسين رضا الوزير عفى عنه بفضله الوفير. ومتوسط سطور الصفحة 10 أسطر. ومتوسط كلمات السطر الواحد ثماني كلمات، وخطها فارسي غير مضبوط بالشكل. وتقع في مجموعة أنيقة تسمى « علبة الآداب » وفيها رسالتان: إحداهما: « نحو القلوب » للإمام القشيري رحمه الله تعالى، والأخرى: « رسالة في اللغة » لواحد من العلماء، وفي آخر النسخة قال الجنيد قدس سره: سألت أكثر المشايخ عن التصوف، فلم يشفني الجواب، فرأيت النبي (>) في المنام فقلت: يا رسول الله: ما التصوف؟ فقال: التصوف ترك الدعوى وكتمان المعنى ... وقد رمزت إليها بالحرف (ط).

3 – مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم 24455 ب مساحتها 200 x 145 مم وتقع في 6 صفحات بقلم معتاد بكل صفحة 5 أسطر بكل سطر 13 كلمة، والعناوين بمداد أحمر، وعلى الصفحة الأولى في أعلاها: حققه محمود الجبالي الموظف بالجمعية التشريعية والمنتدب بمجلس الوزراء. ويلاحظ عليها: تسهيل الهمزات ووضع النقطتين تحت الحرف (ي) وقد رمزت إليها بالحرف (ن).

4 – مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم 24453 ب مساحتها 243 x 158 مم وتقع في 11 صفحة وبالصفحة 13 سطرًا بكل سطر 8 كلمات على ورق سميك أصفر ومكتوبة بخط الرقعة بالمداد الأسود، والعناوين بالمداد الأحمر. كتبها: محمود فؤاد الجبالي السكرتير بمجلس النواب المصري والمنتدب للعمل برئاسة مجلس الوزراء في 3 رمضان 1344 هـ - 17 مارس 1926 م. والنسخة غير مرقومة وقد رمزت إليها بالحرف (ج).

5 – مخطوطة بمكتبة (عارف حكمت) بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام رقم 26 مجاميع في ثلاث ورقات وأرشدني إلى

مكانها مشكورًا ألأخ الدكتور حسن عبد اللطيف، وتقع ضمن سبع رسائل خطية على الترتيب الآتي في المجموع:

1 – ترجمان الأشواق وشرحه وهو ديوان الشيخ محيي الدين.

2 – تحفة واهب المواهب في بيان المقامات والمراتب.

3 – نحو القلوب. وهو هذا الكتيب الذي نحققه لأول مرة.

4 – المذاكرة الحسية بالمحامل الحنيفية للشيخ علي الكيزواني.

5 – أجوبة على قول سيدي عمر بن الفارض: قلبي يحدثني ... إلخ، للشيخ علي الكيزواني.

6 – المناظرات بين الظاهر والباطن للشيخ علي الكيزواني.

7 – كشف الأسرار عن لسان حال الطيور والأزهار لابن غانم المقدسي (عبد السلام).

وقد كتبت هذه الرسائل السبع بخط النسخ الجميل وكل صفحة مطرزة بإطار من الخطوط السوداء المذهبة، ومسطرة كل منها 23 سطرًا. وقد نسخ لي « نحو القلوب » هذا من المدينة المنورة بتوفيق الله: العبد الفقير الدكتور عبد المجيد قطامش وهو يحج بيت الله الحرام ويزور قبر الرسول > وذلك يوم الثلاثاء 1 / 2 / 1972 م.

وقد رمزت إليها بالحرف (م).

6 – مخطوطة يتملكها الأستاذ مصطفى الحدري من (حماه) بسوريا، وقد تفضل مشكورًا فأعطاني الفروق بين نسخته وأصلنا المخطوط. وقد أشرت إليها في المتن والتحقيق والتعليق بنجمة هكذا (*). وتقع نسخة الأستاذ الحدري في تسع صفحات صغار في كل منها 15 سطرًا وكتبت بخط واضح جميل، وفيها بعض التصحيف والتحريف. وعلى صفحة

العنوان تمليك هذا نصه « دخل في ملك الفقير محمد أمين غفر الله له ولوالديه آمين. 22 شوال سنة 1226 بالشراء الشرعي » وليس في المخطوطة ما يدل على تاريخ نسخها وإن كان يظن الأستاذ الحدري – حفظه الله – أنها كتبت في القرن العاشر، وقد رمزت إلى هذه النسخة بالحرف (س).

(د)

قابلتني عقبات مختلفة في التحقيق، ونصوص محرفة مصحفة ملتبسة في أكثر المخطوطات:

1 – وقد حاولت جاهدًا إقامة هذه النصوص بعد دراسة رواياتها، وأشرت في قسم التحقيق إلى المصحف والمحرف والخطأ.

2 – ولما كانت الأصول خالية من الشكل، فقد قمت بتشكيل ما يجب شكله، لا سيما الألفاظ التي يلتبس معناها.

3 – وقمنا بوضع الأقواس، والنقط، والفواصل، وإشارات الاستفهام، والتعجب وغيرها.

4 – ثم أفردت (ملحقًا) يشتمل على نصوص أخرى في نحو القلوب للقشيري وغيره، تليه (دراسات) قمت بها في ضوء الكتاب وثيقة الصلة بموضوعه.

- وتلك الدراسات شملت مباحث: 1 – في اللحن، 2 – صوفية الحركات، وفيها أفضت في شرح فقرة صوفية من الكتاب لها دلالات لغوية نفسية صوتية. 3 – بين المباني والمعاني في النحو.

وعلى الرغم من صغر هذا الكتيب إلا أنه يحمل المحقق أمورًا صعبة، وأعباء مثقلة ؛ لأن ظاهر النص له معنى، وإشارته لها معنى آخر، ولا يمكن الخوض في مثل هذا إلا إذا كان المحقق على علم بمصطلحات النحوين: العباري والإشاري، ليعقد بينهما صلات، ويجعل بينهما مودة ورحمة، وآصرة وقربى.



فإذا أضيف إلى ذلك أن (الكلمة) عند الصوفية تحلم خلجات نفسية وفيوضات إلهية، وحالات وجدانية تجعلها بعيدة الأغوار، مديدة الأبعاد، عرفنا كيف يتبدد المسير، ويتشعب بنا الطريق، وتغرب اللغة وتنبهم على ذلك الدرب الشائك الطويل.

وفيما يلي بعض ما تيسر من صور مخطوطات الكتاب:

المحقق

أحمد علم الدين الجندي

صورة

عنوان نسخة 24455 دار الكتب المصرية (ن)

صورة

الصفحة 6: 7 من نسخة 196. تصوف تيمور (ب)

صورة

الورقة 17 من نسخة 242 مجاميع. طلعت 9655 ميكروفيلم (ط)

وبها عنوان كتاب « نحو القلوب »

صورة

الصفحة الأولى من نسخة 196 تيمور (ت)

صورة

عنوان نسخة 242 مجاميع. طلعت 9655 ميكروفيلم (ط)



كتاب نحو القلوب

للأستاذ أبي القاسم عبد الكريم [1] بن هوازن القشيري [2]

المتوفى سنة 465 هـ

(1) في (م) ساقطة.
(2) في (م) رحمه الله تعالى، ورضي عنه وعنا بمنه وكرمه آمين.



بسم الله الرحمن الرحيم (2)

الحمد لله الذي أودع الحكمة أهلها، وعلم آدم الأسماء كلها وأوقفه (4) على المقصود، من دائرة (5) الوجود، فحل شكلها، فبين (6) لبنيه حروفها (7)، ووسم اسمها، ورسم فعلها (8)، فمنهم من شمر لوابل(9) القسمة وما رضي بطلها (10)، ومنهم من رضي بالعزيمة فلما عقد عُقد (11) العزيمة حلها، فزمرة أقبلت على إصلاح الشان (12) ليظهر فضلها، وزمرة تجاوزت إلى (13) جنات (14)، الجنان ذوات أغصان (15) العصيان، من شجرة (16) الطغيان، فقطعت أصلها، ثم نحت نحو من أعلها (17)،

---

(3) في (ط ن ج) سقطت « البسملة » وفي (م) زيادة: « وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ».
(4) في (ج): « ولما أوقفه ».
(5) في (ت ن م): « دايرة » ربما كانت إشارة إلى الحقيقة المحمدية التي منها صدر الوجود. وهم يرون أن رسول الله > كان له وجود سابق على وجوده المعروف ويستشهدون لذلك بقوله — « كنت نبيًا وآدم بين الماء والطين ». وأرجع أن هذه النظرية لم تكن شائعة في دوائر التصوف السني الذي كان القشيري أحد أعلامه وإن كانت شائعة عند كثير من رجال الشيعة.
(6) في (ج): « لنبييه » وهو تحريف.
(7) في (م): « حروف حروفها ».
(8) إشارة من القشيري إلى الأسماء، والأفعال والحروف في (النحو).
(9) الوابل: المطر الشديد، والطل: المطر الخفيف.
(10) في (ط م س): « طلها » وفي (ج) « ظلها » وهو تصحيف، لأن: الطل – بالطاء المهملة يقابل: الوابل. والقشيري يشير إلى السعي والمجاهدات.
(11) في (م): « عقدها » والقشيري يغمز من ينتمون إلى طريق الصوفية، ثم يفسخون عقدهم مع الله، وبهذا يتركون الإرادة إلى العادة.
(12) في (ج م س): « اللسان ».
(13) في (ت): « في » وسائر النسخ: « إلى ».
(14) في (ط ج م س): « جنان الجنان » وفي: (ت) « جنات الجنان » والجميع صحيح، لأن الجنة جمعها (جنات) على لفظها، وجنان أيضًا,
(15) في (ج م س): « فرأت أغصان ».
(16) شجرة الطغيان: كناية عن النفس ورمز لها، والصوفية يصرون على اقتلاع شرور النفس من جذورها، ولا يكتفون بتقليم الأغصان.
(17) أعلها: سقاها شراب الحب. فأعلها بعلة الحب فهي تحمل المعنيين: السقيا وجرح الحب، ولعلها تصل إلى المحبوب حتى تشفي على يديه: =

لعلها، تظفر [18] بشفائها ولعلها، ويخاطبها شفاهًا [19] ومن لها.

أحمده على نعمه كلها، وجوده علي [20] دلها، فأهدت إليَّ وبلها [21]، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أستظل ظلها، يوم لا ظل إلا ظلها، وأشهد أن سيدنا [22] محمدًا عبده ورسوله الذي أرسله إلى جنود الطغيان ففلها، وإلى ليوث [23] الأوثان فأذلها، صلى الله تعالى [24]

=

وإذا ما السقام حل بقلبي
لم أجد غيره لسقمي طبيبًا

(18) في (ت) « بثباتها، وحلها ». وفي (ج): « بشتاها ». وفي (ط): « فظفر بشفاها ». وفي مثل هذا المعنى يقول يحيى بن معاذ الرازي:

يقولون يحيى جن من بعد صحة
ولا يعلم العذال مما حشائيا
إذا كان داء المرء حب مليكه
فمن غيره يرجو طبيبًا مداويًا

(نشأة التصوف الإسلامي 203 دكتور بسيوني).

(19) في (ط): « وتخاطبها » وفي (ج): « وتخطبها شفاءها ومن جلها » والصحيح ما أثبت.
وفي مثل هذا المعنى تقول رابعة:

إني جعلتك في الفؤاد محدثي
وأبحت جسمي من أراد جلوسي

(20) في (ط): « إلى جوده »، وفي (ج): « إلى وجوده على دلها » وجميع ما سبق تحريف وتصحيف. والصحيح ما أثبت. ويؤكده قول يحيى بن معاذ الرازي 258 هـ: « اللهم إني أتقرب إليك، وبك أدل عليك (اللمع: 331). وقيل لذي النون المصري: بم عرفت ربك؟ قال: عرفت ربي بربي ولولا ربي ما عرفت ربي ». (الرسالة القشيرية 142).
وإلا فمتى غاب الحق تعالى حتى يحتاج إلى دليل يدل عليه، ومتى بعد حتى تكون الآثار هي التي توصل إليه؟

عجبت لمن يبغي عليك شهادة
وأنت الذي أشهدته كل مشهد

(21) في (ت): « فاهتزت » وفي (ج): « فأهدت إلى ويلها »، وفي (م): « فهدت » وفي (س) « فاهتدت إلى وبلها » وما أثبته من (ط) وهو الصحيح.
(22) في سائر النسخ:« محمدًا » وما أثبته من (ت).
(23) في (ج): « يوم ليوث » وهو تحريف.
(24) في سائر النسخ: « صلى الله عليه » وما أثبته من (ط).

عليه وعلى آله وأصحابه صلاةً دائمة [25] إلى يوم [26] تضع كل ذات حمل حملها، وبعد:

فإن النحو عبارة عن القصد، والناس مختلفون في المقاصد، ومفترقون [27] في المصادر والموارد [28]، فواحد تقويم لسانه مبلغ علمه، فواحد تقويم لسانه مبلغ علمه، وواحد تقويم جنانه أكثر همه، فالأول صاحب عبارة، والثاني صاحب إشارة، فنقول وبالله التوفيق ولرسوله التصديق.

باب أقسام الكلام

قال أهل العبارة: أقسام [29] الكلام ثلاثة: اسم وفعل وحرف، وقال أهل [30] الإشارة: الأصول ثلاثة. أقوال وأفعال وأحوال، فالأقوال: هي العلوم وهي مقدمة [31] على العمل لقوله > [32]: **« أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله. فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها »** [33]. ثم تجب المبادرة إلى صالح الأعمال [34]، ثم تأتي الأحوال مواهب من الله تعالى [35].

---

(25) في سائر النسخ: « دائمة » وفي (ت): « دايمة ».
(26) في (ج): « أن تضع ».
(27) في (ط م س): « ومفترقون » وفي (ت): « ومتفرقون ».
(28) في (ط ج م): المصادر والموارد وفي (ت): « الموارد والمصادر ».
(29) في (م): « الكلم ».
(30) في (م): « أصحاب ».
(31) في (ت): « متقدمة ».
(32) في (م): « لقوله > » وفي سائر النسخ: « قال النبي > ».
(33) انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج 1 باب ... « فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم » والحديث عن ابن عمر أن رسول الله > قال: « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم، وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله ». والحديث متواتر، وأصل من أصول الإسلام: انظر: السراج المنير شرح الجامع الصغير 1 / 297.
(34) (ت): « ثم تجئ المعارف إلى صاحب الأعمال » وفي (س) « إصلاح الأعمال » وما أثبته هو من سائر النسخ.
(35) في (ت): « تعالى » ساقطة. وبعدها: « والله الموفق للسداد » زيادة من (ت).

باب الأسماء واشتقاقها

قال أهل [36] العبارة: الاسم مشتق من السمو أو من السمة على الخلاف. وقال أهل الإشارة: اسم العبد: ما وسمه الله تعالى [37] به في سابق مشيئته من شقاوةٍ [38] وسعادة، فمن قربه [39] في سابق مشيئته، فقد سما قدره بين بريته.

ولما دخل [40] العباد إلى مكتب التعليم طالع آدم لوح الوجود [41] فقرأ « وعلم آدم الأسماء [42] كلها » وطالع

---

(36) في (م ط): « قال أهل العبارة » ساقطة.
(37) في (ت): « تعالى به » ساقطة، وفي (س): « تعالى في ».
(38) في (م ط ج س): « سعادة، وشقاوة ».
(39) في (ت): « لمن قربه ». والصواب ما أثبته من سائر النسخ. يقول أبو عبد الله المغربي 299 هـ: « إنما تصح العبودية لمن أفنى مراداته، وقام بمراد سيده، يكون اسمه ما سمى به، ونعته ما حل به، إذا سمي باسم أجاب عن العبودية، فلا اسم له ولا رسم، لا يجيب إلا لمن يدعو بعبودية سيده:

لا تدعني إلا « بيا عبدها » فإنه أصدق أسمائي

ولاحظ قوله سبحانه في وصف نبيه ليلة المعراج – وكان أشرف أوقاته في الدنيا - « سبحان الذي أسرى بعبده ... » الرسالة: باب العبودية.
(40) « إلى » ساقطة من (ط م). ويشير القشيري بهذا إلى (فكرة الميثاق) وهي التي وردت في سورة الأعراف آية 172 « وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا ... » فالميثاق أخذ على الخلق، وكانت الأنفس واعية بذواتها، حاضرة بعقولها، ووعت خطاب الخالق الأعظم، وأجابت النداء طائعة وهي في مرحلة الذر وقبل أن تكون أعيانًا، فالميثاق مشهد حقيقي، بل إن بعض الصوفية يتذكر هذا اللقاء الرباني، ويذكر صورته ومشهده، وهذا سهل ابن عبد الله التستري } يقول: « أعرف تلامذتي من يوم: « ألست بربكم » وأعرف من كان في ذلك الموقف عن يميني ومن كان عن شمالي .. » طبقات الشعراني 1 / 158 وانظر تفسيرات أخرى للآية الكريمة في: أنوار التنزيل وأسرار التأويل للقاضي البيضاوي وحاشية الخطيب المشهور بالكازروني، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي.
(41) لوح الوجود: الذي به أسماء الموجودات (الماديات).
(42) الآية في سورة البقرة 31، ولعلماء العربية آراء تتصل بأصل اللغة ونشأتها ترتبط بالآية الكريمة: فمن علماء العربية من يرى أن اللغة توقيفية، ومنهم من يرى أنها تواضع واصطلاح، ومنهم من يرجعها إلى غريزة زود بها في الأصل جميع أفراد النوع الإنساني، وآخرون يذهبون إلى أنها صدرت عن الأصوات الطبيعية (وإذا أردت مزيدًا من التوضيح والأدلة فانظر: دلالة الألفاظ 11 – 23 للدكتور أنيس، وعلم اللغة 88 فما بعدها د. وافي) ويعنينا في هذا الموضوع أن نناقش ابن جني
=

محمد > وسلم لوح الشهود [44]، فقيل له بلسان الحال: نحن نطلعك [45] على كل موجود، ثم خوطب بقوله: « اقرأ باسم ربك الذي [46] خلق » فلما قرأ [47] وأدب وهذب، قيل يا محمد: قد عرفتنا بالأسماء والصفات فتعرف [48] إلينا بالذات « اقرأ [49]وربك الأكرم » « قل الله [50] ثم

= حين علل خصوصية تعليم آدم (الأسماء) وحدها. مع أن اللغة تشمل الأفعال والحروف بقوله: « اعتمد ذلك » الله تعالى من حيث كانت الأسماء أقوى القبل الثلاثة ولا بد لكل كلام يفيد من الاسم وقد تستغني الجملة المستقلة عن كل واحد من الحرف والفعل، فلما كانت الأسماء من القوة والأولوية في النفس والرتبة، على ما لا خفاء به، جاز أن يكتفي بها مما هو تال لها (الخصائص 1 / 41 فما بعدها) والحق أن مصطلح (الاسم) بهذا المعنى أي: على أنه قسيم الفعل والحرم لم يظهر في هذا الوقت، وإنما ظهر متأخرًا زمن النحاة (فالأسماء) في الآية ليست مصطلحًا نحويًا حتى نرى دفاع ابن جني لها، وإنما هي من (السمة) أي العلامة سواء كانت سمة أفعال أو أسماء أو حروف. والقشيري لم يفهم من (الأسماء) في الآية على أنها مصطلح نحوي كما فهم غيره، بدليل أنه فصلها بقوله: « فبين لبنيه حروفها ووسم اسمها ورسم فعلها » هذا: ولما كان القشيري سنيًا أشعريًا فقد كان مع القائلين بالتوقيف في أصل اللغة. وذلك مذهب أهل السنة (المزهر للسيوطي 1 / 16، 25) إلا أنه رأى بعد ذلك أنه يمكن أن تكون مواضعة واصطلاحًا (المزهر للسيوطي 1 / 24 ط أحياء الكتب العربية).

(43) في (ط): « تعالى عليه ».

(44) والمراد به: الموجودات في مرحلة الذرية (قبل أن تكون أعيانًا) وهي تشابه (عالم المثل) عند أفلاطون.

(45) في (ط): « نصل بك على ... » وفي (س): « نقربك، وفي (ج): « نظن » وفي (م): « نصف » والصواب ما أثبته من (ت).

(46) إشارة إلى الربط بين الخلق والتعليم والآية: 1 من سورة (العلق).

(47) في (ت): « قراء » وهو تحريف وفي (س): « نقربك ». وفي (ج): « نظن) وفي (م): « نصف »، والصواب ما أثبته من (ت).

(48) في (م): « فتعرف إلينا بالذات » وفي سائر النسخ « فتقرب ». والمعرفة أعلى درجات التحقق. وجلت الصمدية أن يستشرف منها عالم بعلمه، أو واهم بوهمه، أو عارف بمعرفته وكل ما هنالك هو شهود (الفعل) الإلهي لا (الذات) الإلهية. وفي (س) سقط بين هاتين الكلمتين: « بالذات ... فلما ».

(49) في (ت): « واقرأ » وهو تحريف. والآية 3 من سورة (العلق).

(50) والآية 91 من سورة الأنعام. (الله) اسم الذات، ولقد تفرد جل جلاله بهذا الاسم دون خلقه. وسأل بعضهم لم تقول: الله الله الله، ولا تقول: لا إله إلا الله؟ فقال: نفي العيب (أي نفي عدم الألوهية عند النطق بالنصف الأول من العبارة: لا إله) حيث يستحيل العيب عيبًا، ويوضح الشبلي هذا المعنى عندما وجه إليه السؤال نفسه فيقول لا أنفي له ضدًا. فصاح السائل قائلًا: أريد أعلى من ذلك؟ فقال الشبلي: أخشى أن أؤخذ في وحشة الجحد. فقال السائل: أريد أعلى من ذلك! فقال =

ذرهم في خوضهم يلعبون ». فلما غاب عن الاسم وجد المسمى. ولما أعرض عن الفعل [51] حل الحرف المعني، أي: المعنى الذي لا يسمى.

فصل

الاسم: صحيح ومعتل. قال أهل [52] العبارة: الصحيح ما سلم من حروف العلة وهي: الألف والواو والياء، وقال أهل [53] الإشارة: من [54] سلم اسمه من ألف الإلياس، وواو [55] الوسواس وياء [56] اليأس. فقد صح اسمه وحق له الإعراب وهو البيان [57] ثم الكشف والعيان، فعلم علم

= الشبلي: قل الله ... » (91 سورة الأنعام) فزعق الرجل زعقة خرجت بعدها روحه، فتعلق أولياء الرجل بالشبلي ... وحملوه إلى الخليفة، فلما سئل الشبلي في ذلك، قال: روح حنت فدنت، ودعيت فأجابت ... فما ذنبي؟ فصاح الخليفة: خلوه ... فلا ذنب له (انظر التحبير 24 د. بسيوني). وهذا أبو سعيد بن أبي الخير الصوفي يعتكف في إحدى الزوايا ثلاث سنين، عندما شع في سلوك الطريق وقد حشا أذنيه بالقطن، وعزف عن النوم، وصار يردد دائمًا: الله الله! حتى استجاب أبواب الزاوية لهذا الترديد (انظر : مذاهب التفسير الإسلامي 284) للمستشرق أجنتس جولد تسهر، ترجمة د. عبد الحليم النجار. على أن النداء الحبيب إلى قلوب الصوفية اسم (الله).

(51) وفي (س): « عن الفعل في الحرف المعمي رأي ». وفي (ت) « العقل » وفي سائر النسخ « الفعل » وهو الصحيح. والجملة مضطربة اضطرابًا شديدًا ومعناها كما نظن والله أعلم « لما فنى محمد > عن نفسه، بقى بالحق ولما غاب عن عمله (بشريته) حلف الحرف المعمي (يعني شاهد الذات). وهذا المعنى هو نفس (الفرق والجمع) عند الصوفية، وفي هذا الصدد ينقل القشيري عن شيخه الدقاق قوله (لما دخل الواسطي نيسابور سأل أصحاب أبي عثمان: بماذا كان يأمركم شيخكم؟ فقالوا: كان يأمرنا بالتزام الطاعات (ورؤية) التقصير فيها! فقال: أمركم بالمجوسية المحضة هلا أمركم (بالغيبة) عنها (برؤية) منشيها ومجريها؟ (الرسالة القشيرية 32).

(52) في (ط ج م س) ساقطة.

(53) في (ط ج م س) ساقطة، وأثبت ما في (ت).

(54) في (ط م س): « فمن ».

(55) في (ج) ساقطة.

(56) في (م): « الاياس ».

(57) في (ج): « وهي ».



اليقين، ثم عين [58] اليقين، ثم حق [*] اليقين، والله أعلم [59].

باب موانع التصوف

موانع [60] الصرف عند أهل العبارة: تسع وهي معروفة [61]، وعند أهل الإشارة (الجمع). أن يجتنب العالم جمع [62] الدنيا واجتماع الناس عليه. (والصرف) [63] صرف(والوصف) أن يكون قصده أن يوصف بالخير ويعرف [64] به. (والتأنيث) ضعف العزم، والرضى [65] بالرذائل [66]. (والمعرفة) أن يعرف نعم الله تعالى عليه ثم يقصر [67] عن الشكر.

---

(58) في (ط ت) ساقطة، وأثبتها من (م) ومن لطائف الإشارات 6 / 195. وكذلك الرسالة القشيري ص 44. (والبيان) في مذهب القشيري المعرفي: مرحلة قلبية وليست عقلية، وترتيب القشيري هكذا:
(1) عقلية: ونورها البرهان أو علم اليقين.
(2) قلبية: ونورها البيان أو عين اليقين.
(3) كشفية: ونورها العرفان أو حق اليقين.
انظر: اللطائف 1 / 213 مع المحقق، 6 / 195 والرسالة القشيرية 44، 82.
وهذا الترتيب يكشف عن الدقائق النفسية المرتبطة بكل مرحلة. والتوحيد – في نظر القشيري – وهو أعلى درجات العرفان.
(*) في (س) « حرف » وهو تحريف.
(59) ساقطة من (ط م س).
(60) في (ط): « الموانع عند أهل العبارة » وفي (م): « موانعه عند أهل العبارة تسعة » وأثبت ما في (س) « تسع » وهو الصحيح، لأن موانع جمع مانعة.
(61) ساقطة من (م).
(62) في (ت): « عند جمع » وفي (ط م): « جمع الدنيا ».
(63) في (م): « والصرف صرف ... » وفي سائر النسخ: « وصرف ».
(64) وذلك من دعوى النفس، والنفس محل المعلولات، ونظرة الإنسان إلى عمله وإعطاء هذا العمل قيمة – من قبيل دعوى النفس، ويرى أبو عثمان المغربي: أن إخلاص الخواص. هو ما يجري عليهم لا بهم، فتبدو منهم الطاعات وهم عنها بمعزل، ولا يقع لهم عليها رؤية.
(65) في (م): « والرضا ».
(66) في (ط): « بالرذايل ».
(67) في (م): « نعمة الله تعالى عليه ». وفي (ت): « ثم نقصه » وفي (ط ج) « يقصر » وهو ما أثبته، وفي (م): « ثم يقصر عن الشكر » ساقطة. (والمعنى) أن الجاحد لا يشكر لأنه لا يعرف، والعارف يشكر، فإذا عرف ولم يشكر يكون مصابًا بالعلة. وهي تساوي في النحو (الظاهري) منع الصرف. وعوام المتوكلين إذا أعطوا شكروا، وإذا منعوا صبروا، وخواصهم إذا أعطوا آثروا، وإذا منعوا شكروا
(اللطائف: 4 / 217). وكثير من يشكر على نعم المنح، ويقل من يشكر على نعم الدفع.

(والعجمة) أن يهمل [68] نعمة الله بكتمان علمه. (والعدل) عدوله [69] عن الطريق القويم. (والتركيب) أن يشوف [*] عمله [70] بأفعال الجهل [71] (والألف) ألف أنا، (والنون) نون العظمة [72]. (ووزن الفعل) أن يزن أعماله [73] معتقدًا أن عنده [74]- فيحصل العجب. فمتى اجتمعت علتان من هذه العلل لم ينصرف إلى القبول، وانحرف عن باب الوصول.

---

(68) في (م): « والعجمة أن يهمل نعمة الله » ساقطة. وفي (ط ج): « إن يذكر » وفي (س): « ينكر » بدل: « أن يهمل » وما أثبته من (ت). وفي (س): « الله عليه » بزيادة « عليه ».
(69) في (ت): « عدول » وفي سائر النسخ: « عدوله » وهو ما أثبته، والعدل في نحو العبارة، علة فرعية بمعنى أن المعدول فرع عنه. والعدل: على خلاف القياس، وذلك: كعمر – فهو معدول عن (عامر) اسم فاعل من الصفات، فلما قصدوا التسمية به، وجعله علمًا خيف التباس العلم بالصفة، لأن الصيغة فيهما واحدة، فعدلوا عنه إلى عمر، فالعدل: في (نحو العبارة) – تغيير صفة اللفظ. وفي (نحو الإشارة) عدول عن الطريق القويم والتشابه واضح.
(*) في (س): « بشوق » وهو تحريف.
(70) في (ت): « علمه ».
(71) في (ت): « الجحد » وفي سائر النسخ: « الجهل » وهو ما أثبته.
(72) في (ت): « نون نحن » وفي (س): « والنون العظمة »، وفي سائر النسخ: « نون العظمة » وهو ما أثبته. ويشير القشيري إلى معنى دقيق وهو أن (الألف والنون) يمنعان الاسم من الصرف في (نحو العبارة) في مثل: عثمان وعطشان، وفي (نحو الإشارة) ألف ونون أيضًا، وهما يمنعان العبد من (الوصول) إذا قال: (أنا) وذلك نقص في التوحيد عندهم، والمفروض أن تفنى عن ذاتك (أنيتك) فلا تقل: إني وني، وصحة التوحيد عند الصوفية في سقوط الإضافات فلا تقل: لي. بي. مني. (اللطائف 1 / 245، 2 / 76). يوضح هذا المعنى ما قرأته في مكان لا أذكره الآن من اللطائف من أن جابر بن عبد الله استأذن في الدخول على الرسول > فقال الرسول: من الطارق؟ فقال: أنا جابر، فقال الرسول > : أنا أنا. وكأن الرسول استكثر عليه أن يقول: أنا. ويمكن أن يقف في سبيل ذلك ما جاء على لسان الرسول الكريم حين قال: « قال: إني أنا النذير المبين » ولكن يزول هذا الشك إذا أن الرسول عندما قال ذلك كان مع الله وله وبه، فانيًا عن شاهده. يقول الإمام القشيري في اللطائف 3 / 10 ؛ كيف يكون من يقول (أنا) كمن يقول (أنت؟) وأنشدوا:

(73) في (م): « أفعاله ».
(74) في (ت): « أنه عند الله حاصل » وفي سائر النسخ: « أن عنده حاصلًا » وهو ما أثبته.

« باب الإعراب (75) والبناء »

لما كان الإعراب بالحركات الثلاثة: الرفع والنصب (76) والجر، والجزم.

---

(75) في (ج): « والبناء » وفي (ت): « والبنا ».
(76) في (م): « الرفع والنصب والجر » وفي باقي النسخ ساقطة.
ويمكن أن يكون التغيير الواقع على القلب بسبب العوامل الداخلة عليه من الغيب من: الهامات وواردات وخواطر يعقب بعضها بعضًا أشبه بالتغيير في أواخر الكلم اللسانية بسبب العوامل الداخلة عليه لفظًا أو تقديرًا، وهذه عوامل لسانية، وتلك عوامل قلبية، والتغيير في نحو اللسان: في الرفع والنصف والخفض والجزم، فالرفع طرف، والخفض طرف، والنصب واسطة بين الطرفين، والجزم صالح للطرفين معًا، فالرفع: إشارة إلى الخاطر المحدود وهو قسمان: رحماني وملكي، والخفض: إشارة إلى الخاطر المذموم وهو قسمان: نفساني وشيطاني، والنصب: واسطة بين المحمود والمذموم، وما أشبهه في النحو الظاهري بالفتحة وهي الحركة الخفيفة المستحبة عند العرب. يقول الدكتور إبراهيم بسيوني 77 في كتابه: الإمام القشيري « فالفتحة يمكن أن توصف بأنها وسط بين طرفين: الرفع والخفض، أو بين موجب وسال، وهي بهذا التوسط يمكن أن تكون توقفًا عن الحركة، ولا أغالي إذا فسرتها على أساس ما نعرف في الميكانيكا، من توقف الجسم عن الحركة إذا وقع تحت جذب قوتين متساويتين، ومتضادتين في الاتجاه، والحركات الإعرابية الثلاث يقابلها ثلاث حقائق: شريعة وطريقة وحقيقة. ويروي الصوفية قول الرسول > : « الشريعةي معالي، والطريق فعالي، والحقيقة حالي ».
وقد اختلف علماء العربية في (عوامل) الرفع والنصف والجر والجزم إلى فرق.
(أ) فبعضهم يراها عوامل فلسفية، ومن هؤلاء سيبويه حيث يقول في (الكتاب 1 / 3): « وإنما ذكرت لك ثمانية مجار لا فرق بين ما يدخله ضرب من هذه الأربعة لما يحدث فيه العامل وليس شيء منها إلا وهو يزول عنه، وبين ما يبنى عليه الحرف بناء لا يزول عنه لغير شيء أحدث ذلك فيه ».
فسيبويه يرى أن العامل هو أساس التفرقة بين ألقاب الإعراب وألقاب البناء، ولا شك أنه تأثر بهذا الاتجاه من علماء الفلسفة والكلام، إذ أن الألفاظ لها قوة في إحداث الأعراب عنده، ومذهب سيبويه هو مذهب البصريين والجمهور.
(ب) وبعضهم يرى أن العامل إنما هو المتكلم نفسه لا لشيء غيره كالفعل وما حمل عليه، وعلى رأس هؤلاء ابن جني في كتابه الخصائص 1 / 109 فما بعدها، وإنما نسب العمل إلى الفعل للتقريب والتعليم تيسيرًا للعلم ومساعدة للمتعلم، وذهب إلى ذلك الرضا في شرح الكافية 1 / 21 والأستاذ إبراهيم مصطفى في كتابه (إحياء النحو) ص 50 فما بعدها.
(ج) وآخرون يرون أنها عوامل لغوية، فالخليل يرى « أن الفتحة والكسرة والضمة زوائد وهن يلحقن الحرف ليوصل إلى التكلم به » الكتاب 2 / 315، كما يذهب قطرب من المتقدمين والدكتور إبراهيم أنيس من المحدثين إلى أن الحركات الإعرابية لم تكن تفيد تلك المعاني التي أشار إليها النحاة من الفاعلية والمفعولية ونحو ذلك: انظر الإيضاح للزجاجي ص 69 فما بعدها، والأشباه والنظائر للسيوطي 1 / 86 وإنما الذي دعا إلى هذه الحركات نظام المقاطع في الكلام، وأن
=

كان مدار أهل [77] الإشارة برفع [78] هممهم إلى الله تعالى، ونصب أبدانهم في طاعة الله تعالى، وخفض [79] نفوسهم تواضعًا لله تعالى [80]،

= الذي يعين الحركة وهو أحد عاملين:
(1) طبيعة الصوت المحرك.
(2) وانسجام الحركة مع ما يكتنفها من حركات أخرى (من أسرار اللغة 176 – 184 دكتور أنيس: ط الأنجلو).
(د) ويراها ابن مضاء القرطبي عوامل توفيقية حيث يقول في كتاب الرد على النحاة ص 87: « وأما مذهب أهل الحق فإن هذه الأصوات (يقصد الحركات الإعرابية) إنما هي من فعل الله تعالى » ويرى بأن مذهب القائلين بـ: أن الألفاظ يحدث بعضها بعضًا باطل عقلًا وشرعًا كما خطأ النحاة في قولهم بالعوامل المضمرة، لأن نسبة العمل إلى معدوم على الإطلاق محال، كما بين فساد رأي سيبويه السابق، ولقد كان ابن مضاء مدفوعًا في آرائه في العمل باتجاهات دينية وسياسية.
(هـ) وقد نقد الدكتور تمام في كتابه اللغة بين المعيارية والوصفية ص 51 رأى ابن جني وغيره ممن قالوا بالتوقيف، ومال إلى أن اللغة ظاهرة اجتماعية ... فإذا كان الفاعل مرفوعًا في النحو فلأن العرف ربط بين فكرتي الفاعلية والرفع دون ما سبب منطقي واضح وكان من الجائز جدًا أن يكون الفاعل منصوبًا والمفعول مرفوعًا لو أن المصادفات العرفية لم تجر على النحو الذي جرت عليه ... فقد جاءت الحركات الإعرابية في نمطية اللغة على هذه الصورة، لأن العرف ارتضاها ... والحقيقة ألا عامل.
(و) ما سبق من آراء القدماء يعتبر انعكاسًا لعلم الكلام، فالجهمية: يرون أن الله هو الفاعل لكل شيء، والمعتزلة ينسبون ذلك إلى الإنسان فهو الذي يفعل ما يريد بقدراته. والأشاعرة والماتريدية ؛ يذهبون إلى أن في العمل الإنساني الإرادي التقاء قدرات وإرادات بيد الله والإنسان دون تناف بين قدرة الله وقدرة الإنسان.
فموقف ابن مضاء ليس إلا صدى لمذهب الجهمية، وموقف جمهور النحاة صدى لمذهب المعتزلة والقدرية. أما موقف ابن جني فهو يحاكي بتوسطه موقف متأخري المتكلمين من أشاعرة وماتريدية: تقويم الفكر النحوي 241 د. علي أبو المكارم.
أما القشيري فيرى أن الله خالق الناس وأفعالهم وأكسابهم.
(77) في (م): « أهل » وفي باقي النسخ ساقطة وقد أثبت ما في (م).
(78) في (ت): « يرفع للوهم » وفي سائر النسخ: « برفع هممهم إلى الله تعالى » وهو ما أثبته.
(79) في (ج): « وحفظ » وسائر النسخ: « وخفض » وهو الصحيح لمناسبته للرفع والنصب.
(80) في (ج س) ساقطة، وكذلك سقطت كلمة « تعالى » من وراء لفظ الجلالة أربع مرات قبلها، ولاحظ دقة القشيري في التعبير والمصطلح (خفض نفوسهم وجزم قلوبهم) لأن النفس محل المعلولات والقلب محل المحمودات فيجب أن يكون بعيدًا عن الغير والسوى، والإشارة بـ (نصب أبدانهم) إلى جريان أحكام المقادير من غير أن يكون للعبد اختيار، ولا له فيما هو به إيثار. (وسكونهم) تحت جريان أحكام الحقيقة من غير إخلال شيء من آداب الشريعة. (وجزم قلوبهم) بقطع العلائق وحذف العوائق، وبتر خطرات المنى وأعناق المطالب بسيوف اليأس.

وجزم قلوبهم عما دون الله تعالى، وسكونهم إلى الله تعالى. والمعرب، هو المتغير (81) من أصحاب التلوين (82)، والمبني (83): ما كان مستقيمًا في حالة (84) لا يتغير وهم أصحاب التمكين (85).

فصل

الأسماء: معارف ونكرات، وكذلك العباد منهم معروف، له نصيب من القوم هو به معروف (*)، ومقام في الصدق هو به موصوف، ومنهم منكر لا نصيب له مع القوم، ولا حظ له سوى الأكل والنوم.

فصل

المبتدأ: مرفوع لتجرده عن العوامل اللفظية، والفقير المتجرد مرفوع القدر، وخبره مرفوع، لانقطاعه عن العلائق (86)، وتعلقه بالحقائق، الواردة من الخالق (87).

---

(81) في (ت): « المعنى » وفي (ن): « المقبر » وفي (ج): « المقرب » وفي (م): « التعين » والجميع محرف، وما أثبته من (ط) هو الصحيح.
(82) في (ط): « التكوين » وسائر النسخ: « التلوين » وهو الصحيح الذي أثبته، لأنه مصطلح معروف عند الصوفية وهو: صفة أرباب الأحوال، وما دام العبد في الطريق فهو صاحب تلوين، لأنه يرتقي من حال إلى حال وينتقل من وصف إلى وصف (انظر الرسالة القشيرية ص 41). وقد شبه القشيري « المعرب » في نحو اللسان وهو: المتغير بحسب العوامل بصاحب (التلوين) في اصطلاح الصوفية.
(83) في (ط): « والمبني منه كان ».
(84) في (ط ج): « في حالة ».
(85) في (ن): « التملين » وفي (ج): « اليمين » وكلاهما محرف، لأن (التمكين) مصطلح صوفي وهو: صفة أهل الحقائق، وصاحب التمكين وصل ثم اتصل، ودليل اتصاله أنه بالكلية عن كليته بطل (انظر الرسالة القشيرية ص 41). وصاحب (التمكين) في التصوف أشبه (بالمبني) في نحو اللسان، إذ الثبات وعدم التغير في السراء والضراء من علامات التمكين، وسادات الوقت هم أهل التمكين، قال بعض المشايخ: « انتهى سفر الطالبين إلى الظفر بنفوسهم فإذا ظفروا بنفوسهم فقد وصلوا » (الرسالة القشيرية 41).
(*) في (س): « معرف » وفي سائر النسخ « معروف ».
(86) في (ت. ط): « العلايق، بالحقايق » وبالهمز في (م)، ويقول القشيري في اللطائف 1 / 149 (فاذكروني) بقطع العلائق (أذكركم) بنعت الحقائق.
(87) زيادة في (م)، والقشيري يرى أن (المبتدأ) متجرد عن سوابق تجعله مرتبطًا بعلاقة خارجية عن ذاته، وفي ذلك إشارة إلى الوجود المطلق، وإيجاده للخلق من علامات (رفعه) وتقديسه، فهو الاسم المرفوع الذي يرفعه رفع كل مرفوع.

فصل

الأفعال ثلاثة: ماض وحال ومستقبل، وأحوال القوم مختلفة: فمنهم من فكرته في السابقة، ومنهم من فكرته في الخاتمة، ومنهم من فكرته في الخاتمة، ومنهم من اشتغل بإصلاح وقته الذي هو فيه [88]، عن الفكرة في مستقبله وماضيه.

فصل

وفعل [89] الحال: مرفوع ما لم يدخل عليه ناصب أو جازم، فالناصب رؤية [90] العبد لفعله، والجازم فترته عن سلوكه، فإذا [*] سلم العبد من الملاحظة [91] والفتور، ارتفع قدره عند العزيز [92] الغفور « إليه يصعد [93] الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه».

فصل

الفاعل مرفوع، والمفعول منصوب، فلما رأى العارف ألا فاعل [94]

---

(88) زيادة في (ط م ج). ويرى القشيري أن الصوفي مشتغل بما هو أولى به في الحال، قائم بما هو مطالب به الحين، فالصوفي ابن وقته. وقيل: الصوفي من لا ماض له ولا مستقبل، فهو مشغول بشهود الحق عن مراعاة جميع الأوقات، فالزمن عندهم مجرد من النسبية التي جردوا أنفسهم منها. سئل أبو يزيد: كيف أصبحت؟ قال: لا صباح ولا مساء! يشير إلى أنه غير مطلع على الأوقات، بل مستغرق في شهود الموقت، كما تلاشت أبعاد المكان عندهم أيضًا. (انظر التحبير ص 51، والرسالة القشيرية 31، واللطائف 6 / 133).
(89) في (ت) ساقطة والتصحيح من سائر النسخ.
(90) في (ت) بدون همز.
(*) في (س): « فان ».
(91) في (ت): « الملافظة » وهو تحريف والصحيح ما أثبته من سائر النسخ ومن اللطائف 3 / 87، 3 / 106، 4 / 87. ويرى القشيري أن (ملاحظة) الأعمال واستكثارها من أخطر دعاوى النفس. ومثلها مصطلح (المساكنة) وهما من آفات الطريق، بل يرى أن خيانة الأحوال تكون (بالملاحظة) والإعجاب والمساكنة، ثم يقول: « وأخفاها: الملاحظة ». يقول القشيري في اللطائف 4 / 87 عند تفسير قول الحق تبارك وتعالى: « قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالًا » بأنهم الذين يلاحظون أعمالهم، وما منهم يمين الاستكثار.
(92) ساقطة من (ت) وموجودة في سائر النسخ.
(93) في (م): « الذي إليه ».
(94) في (ت): « أن لا عارف » وفي سائر النسخ: « أن لا فاعل » وهو الصحيح الذي أثبته، لأن المعرفة قابلة للنقص والزيادة.

إلا الله تعالى [95] عظم قدره، ورفع ذكره، وخضع لجلاله، وتواضع عند شهود كماله، ورأى نفسه مفعولًا فانتصب لعبادته « فإذا فرغت فانصب، وإلى ربك فارغب » [96].

فصل

الحال: وصف هيئة الفاعل والمفعول، ومن شرطه أن يكون نكرة منصوبة [97]، فالعارف [98] متوجه إلى الله تعالى [99] في إصلاح حاله، مجتهد في تنكير [100] نفسه كي لا يعرف [101]، فأحواله مع الله مستقيمة منتصبة [102]، وهي بستر التورية [103]، والنكرة محتجبة « يحسبهم الجاهل أغنياء [104] من التعفف ».



فصل

التمييز: تفسير ما أبهم [105]، وتبيين ما لم يكن يفهم، فالقوم بالعلم

---

(95) زيادة من (م).
(96) آية 7، 8 من سورة (الشرح).
(97) زيادة م (م).
(98) يعرف القشيري (العارف) بأنه: كائن بائن، كائن مع الناس بظاهره، بائن عن جميع الخلق بسرائره. والمعرفة: تقتضي استصغار الأقدار سوى قدره، ومحو الأذكار سوى ذكره، فإن نطق نَطق بالله، وإن سكت سَكت به. (انظر التحبير 22 وفيه يوضح القشيري منهج العارفين ودستورهم).
(99) في (س): سقطت تعالى « تعالى » من وراء لفظ الجلالة.
(100) في (ط م): « تنكيرها » و (ج): « تنكرها » وما أثبته من (ت).
(101) في (ج م): « حتى لا تعرف وما أثبته من (ت).
(102) في (ط): « منقضية » وفي (م): « منتهية » وفي س « متهيئة » وما أثبته من (ت) إذ (النصب) من علامة (الحال).
(103) في (م ط ج س): بستر « التورية ». وهو الصحيح وفي بقية النسخ: « وهي تستر الرؤية ».
(104) في (ت): « أغنيا » وفي سائر النسخ: « أغنياء » والآية 273 سورة البقرة.
(105) في (م س): « وما انبهم ».

ميزوا الحق من الباطل، وتبين [106] لهم بالسلوك [107] الحالي [108] من العاطل. ولا يكون التمييز إلا بعد تمام الكلام، وكذلك [109] تفقهوا ثم اعتزلوا [110]، وأحكموا العلم ثم تميزوا، فلما تمت لهم رتبة التمييز، نصبهم الله تعالى [111] لإصلاح عباده، وميزهم فاستخلصهم [112] لوداده، قال الله تعالى « ليميز [113] الله الخبيث من الطيب ».

باب البدل

البدل: على أربعة أقسام، بدل الكل من الكل، وهو بدل العارفين، تركوا فعوضهم الكل [114] « وجوه يومئذ [115] ناضرة، إلى ربها ناضرة » شعر:

---

(106) في (ت): « وشب بهم » وفي سائر النسخ: « وتبين لهم » وهو الصحيح الذي أثبته.
(107) في (م س): « بالسكوت » وهو تحريف، والصحيح ما في سائر النسخ « بالسلوك ».
(108) في (ت): « الخالي » بنقطة فوق الحاء، وفي سائر النسخ: « الحالي » بالحاء المهملة وهو الصحيح الذي أثبته.
(109) في (ت س): « ولذلك قيل تفقهوا »، وفي سائر النسخ: « وكذلك تفقهوا »، وهو ما أثبته.
(110) لا يريد القشيري من العزلة: الهرب من المجتمع، والانقطاع للعبادة وترك الدنيا، وإنما يريد العزلة الروحية حيث تعزل نفسك لمحاسبتها وتقويمها.
(111) زيادة من (م).
(112) في (م): « فاستخلفهم وما أثبته من سائر النسخ ».
(113) ساقطة من (ج). والآية 37 من سورة الأنفال.
(114) في (ت س): « لمن له الكل » وفي سائر النسخ: « فعوضهم الكل » وهو ما أثبته وكلاهما صحيح. قال الأزهري: أجاز النحويون إدخال الألف واللام على بعض وكل، إلا الأصمعي فإنه امتنع من ذلك لأنهما معرفتان فلا تدخلهما الألف واللام ، لأنهما في نية الإضافة (انظر: الخلاف في المعاجم وكتب النحو) ويمكن أن نجد أنموذجًا لمن ترك الكل فعوضه الله الكل. في (إبراهيم بن أدهم) حين خلع ثوب الإمارة ورمى به بعيدًا، وبدله بأطمار سائل وغادر قصره وهجر العالم وآثر أن يأكل من عمل يده فعمل بستانيًا فحمالًا فراعيًا، وكان يقول: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من السرور والنعيم إذا لجالدونا على ما نحن فيه من لذة العيش وقلة التعب (الحلية 7 / 370).
(115) في (ت): « يوميذ ». والآية 22، 23 من سورة القيامة.

قلــوب العـــارفين لهـــا عيـــون * تـرى مـا لا يـراه الناظرونـا [116]

وأجنحـــة تطيـــر بغيـــر ريـــش * إلـــى ملكـــوت رب العالمينـــا

وبدل البعض: بـدل العابـدين [117]، بـدلوا [*] بالمعاصـي الطاعـات [118]، وبـدلوا باللذات المجاهدات « فأولئك [119] يبدل الله سيئاتهم حسنات ». وبدل الاشتمال [120]: لقوم [*] اشتملت أعمالهم على خوف ورجـاء [121] فـأعطوا [122] مـا يرجـون، وأمنـوا مما يخافون « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » [123].

وبدل الغلط [124]: بدل المطرودين، باعوا نصيبهم من القرب [*] بحظوظ عاجلـة [125] « بئس [126] للظالمين أبدًا ».

---

(116) هذا الشعر ورد في (ط) دون بقية النسخ وهـو: لميمونـة السـوداء (عقـلاء المجـانين للنيسـابوري، ترجمة ميمونة). وفي الشعر تلمح أن امتلاء القلب بالمعرفة وقف على امتلائه بالحب.

(117) في (م): « العارفين العابدين » وفي سائر النسخ: «العابدين » وهو الصحيح الذي أثبته، لأن بدل (الكل من الكل) هـو: بـدل العـارفين، والمنـاداة صـفة (العابـدين) والمناجـاة نعـت (الواجـدين) كمـا أن (المناداة) تكون على الباب، و (المناجاة) تكون على بساط القلوب.

(*) في (س) سقطت كلمة « بدلوا »..

(118) هـذه العبـارة وردت مضـطربة فـي النسـخ ففـي (ط): « واللـذات بالمجاهـدات »، وفـي (ج): « بالطاعات في اللذة بالمجاهدات »، وفـي (م): « واللذة بالمجاهدة »، وصـحتها كمـا أراه: (بـدلوا بالمعاصي الطاعات، وبدلوا باللذات المجاهدات) لأن الباء تدخل في العربية على المتروك، انظر كتب النحو المطولة، ومعجم ألفاظ القرآن الكريم: مجمع اللغة العربية (بدل).

(119) في (ت): « أوليك » وسائر النسخ: « أولئك » وه وتحريف. والآية الكريمة: « فأولئك » 70 من سورة الفرقان.

(120) في (ت): « اشتمال ».

(*) في سائر النسخ: قوم وفي (س): « لقوم ».

(121) في (ت): « ورجا ».

(122) في (ت): « فأعطو ».

(123) في (ت) الآية الكريمة خالية من الهمزات، وهي في سورة يونس أية 62.

(124) بدل الغلط المعروف في النحو. لا يرد في القرآن الكريم لاستحالة الغلط على الله.

(*) في (س): « الفوت ».

(125) في (ت): « عاضلة » وحو تحريف والصحيح ما أثبته من (ط ج).

(126) في (ت): « بيس » والآية 50 من سورة الكهف.

فصل

النعت: تابع للمنعوت، والوصف تابع للموصوف، كذلك أعمال العبد لا تفارقه [127]، وما حصل من خير أو شر[128] فهو لاحقه.

فصل

حروف العطف تتبع [129] الآخر الأول، وأهل الإشارة توسلوا [130] إلى الله تعالى [131] في العطف عليهم، واللطف بهم، ليلحقوا بأهل قربه، ويجعلهم من حزبه.

فصل [132]

التوكيد: هو التحقيق، والقوم أكدوا إيمانهم بالتصديق، وعقدهم مع الله بالتوثيق [133]، وشمروا في ملازمة الطريق.

---

(127) في (ط): « لا يفارقه ».

(128) في (ج): « وشر ». وكما أن النعت في (نحو اللسان) تابع للمنعوت في رفعه ونصبه وخفضه وتعريفه وتنكيره فكذلك في (نحو الجنان) يتبع منعوته حيث يلزم مقام العبودية بالمعرفة التي لأجلها خلق، فبالمعرفة يكون تابعًا لموصوفه بالتخلق بأخلاقه راضيًا بمجاري الأقدار مستسلمًا لها في حالة الخفض متلذذًا بها كتلذذه بحالة الرفع، مطيعًا في كل الأحوال بكل الجوارح الظاهرة والباطنة:

كيفمـــا دارت الزجاجـــة درنــــا
يحســـب الجـــاهلون أنـــا جننـــا

(129) في (ط): « يتبع » وفي (ج): « هي تتبع ».

(130) في (ج): « توسلوا في العطف » والعطف في (نحو الجنان) لا يتم إلا بالوسيلة وهي الرحمة الإلهية، وكذلك في (نحو اللسان) لا يتم العطف إلا بالحرف، وهي الوسيلة.

(131) في (م): « تعالى » « عليهم » ساقطتان.

(132) فصل التوكيد – ساقط من (م).

(133) في (ط ج س): « بالتحقيق » وأثبت ما في (ت). ويجب ملاحظة ما بين النحويين: العباري والإشاري، أو نحو القلوب والعقول، أو نحو اللسان ونحو الجنان، ففي (النحو العباري) إذا قلت: جاء محمد، فقد أعطيت المخاطب معنى يعلم به مجئ محمد، وهذه درجة في العلم كافية، ولكن هناك درجة أقوى حين تقول: « نفسه أو عينه » وكذلك في (النحو الإشاري): فالعارفون إيمانهم بالله من حيث الشريعة. يتم ويتأكد من حيث الحقيقة بمراحل التصديق والتحقيق. فالإيمان – مرحلة شريعة، والتحقيق والتصديق حقيقة، فالحقيقة مؤكدة للشريعة، وكذلك في نحو العبارة – فالتوكيد فيما سبق قد أكد المعنى وحققه.



فصل

حروف الجر [134]: تخفض الأسماء [135]، فلما علم المحققون أن الأشياء [136] بالله، ومن الله، وإلى الله، خفضوا [*] أنفسهم تواضعًا لله، فتعززوا [137] بالإضافة [138] إلى جانب [139] الله تعالى [140]، أولئك [141] الذين اصطفاهم الله [142] لقربه [143]، وجعلهم [*] من حزبه، نسأل الله العظيم أن يجعلنا [145] منهم، وأن يلحقنا بهم، إنه كريم [146] لطيف حليم وهاب، محسن متفضل جواد رحيم تواب، وإليه المرجع والمآب.

---

(134) في (م): « الخفض ».
(135) في (ت): « الآسماء » وأثبت ما في سائر النسخ.
(136) في (ت): « الانشا » وهو تحريف، صوابه: « الأشياء » كما في سائر النسخ.
(*) في (س): « حفظوا ».
(137) في (م): « فتعززت ».
(138) التوحيد الحق – إسقاط الياءات (ياءات الإضافة) فلا تقل: مني، لي، بي.
اللطائف 1 / 245، 4 / 122، وقيل لبعض المشايخ:
ألك رب؟ فقال: أنا عبد! من أنا حتى أقول لي؟ انظر: اللطائف: 1 / 245، 4 / 122، 4 / 141، وانظر: التحبير في التذكير: 26.
والفكرة دقيقة بين (نحو الإشارة والعبارة) في الإضافة، فالمضاف إليه مخفوض كقولك (دار علي) في نحو العبارة، والخفض أضعف الحركات، إذ الخفض دليل الإهانة والذلة، فلما اعتمد العبد على الإضافة، وعن طريق الإضافة تكون العلاقات، صار العبد إلى أضعف الحالات، وإذا كان الاسم مفردًا – كان له أقوى الحركات مثل: (علي) في المثال السابق فله الرفع، والدليل على ذلك قوله جل شأنه:
« في بيوت أذن الله أن ترفع » وقوله: « يرفع الله الذين آمنوا منكم ».
وكذلك العبد. ما دام مجردًا بقطع مطالبه وعلائقه فله أقوى الحالات.
(139) في (م): « جناب » وما أثبته من (ت ط ج).
(140) ساقطة من (ت).
(141) في (ت): « إليك ».
(142) ساقطة من (م).
(143) في (م س): « بقربه ».
(*) في (س) « فجعلهم ».
(144) « أن يجعلنا منهم » ساقطة من (م). وأثبتها من سائر النسخ.
(145) في (ط): « إنه كريم وهاب، والحمد لله وحده، وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم » وأما خاتمة (ج س) فهي: « إنه كريم وهاب، تم كتاب نحو القلوب، وصلى الله على =

تم كتاب « نحو القلوب » بحمد الله وعونه، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(ملحق)

(في أول نسخة (ن) وردت هذه الأبيات في الصفحة الأولى للعنوان وهي):

1 – (نحـــو القلـــوب) عجيـــب * رفـــع وخفـــض ونصـــب

2 – علامـــة الرفـــع فيـــه * روح وأنـــس وقـــرب

3 – وأحـــرف الخفـــض منـــه * حـــزن وقـــبض وحجـــب

4 – والـــنفس حـــرف لمعنـــى * اســـقاطه مســـتحب

5 – والحـــال ينصـــب مـــا ليـــ * ـــس للفتـــى فيـــه كســـب

6 – هـــذا هـــو النحـــو لا مـــا * قـــد قـــال عثمـــان حســـب

7 – لحـــن اللســـان مبـــاح * واللحـــن بالقلـــب ذنـــب

8 – وأقـــبح اللحـــن عنـــد * كبـــر وتيـــه وعجـــب

= محمد نبيه وصحبه وسلم ». وأما خاتمة (م) فهي: « إنه كريم وهاب. تم الكتاب المبارك بحمد الله وعونه، وحسن توفيقه، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والحمد لله رب العالمين ».

ملحق

نصوص في نحو القلوب وتشتمل على:

نصوص للمؤلف في غير هذا الكتاب

نصوص لأبي العباس أحمد بن عجيبة

لاحظنا أن القشيري لم يستقص في « نحو القلوب » الذي حققناه جميع قواعد النحو العربي وأبوابه التقليدية، ولكنه اقتصر فيه على بعض القواعد والأبواب دون بعض، من ذلك مثلًا أنه ترك:

علامات الأسماء والأفعال، والاسم الموصول، ونواصب المضارع وجوازمه، ونائب الفاعل والمفاعيل، والعوامل الداخلة على المبتدأ والخبر: كان وأخواتها، وإن وأخواتها، وظن وأخواتها، والمصدر والظرف والمستثني، ولا النافية للجنس، والمنادي، والترخيم، والتعجب، والنسب، والجموع ...

فجميع ما سبق وغيره لم يتناوله القشيري، ولذلك آثرنا أن نعرض نصوصًا عثرت عليها في قراءاتي تناولت الموضوع ذاته، للقشيري ولغيره، ولكنها مختلفة عما سبق في كتابه هذا الذي حققناه، وهدفي من ذلك:

1 – أن تكتمل صورة الموضوع إلى حد واضح في ذهن القارئ حيث يرى معالم الحقل الواسع الذي حرث فيه رجال العربية وأعلام الفكر الصوفي.

2 – أن تقوم دراسة مقارنة في المستقبل بين ما كتبه الإمام القشيري وبين ما كتبه غيره من الأئمة الأعلام في الموضوع ذاته.

وقد اخترت نماذج لتكميل موضوعنا من مصدرين:

أحدهما: لإمام يمثل الشرق الإسلامي وهو: الإمام القشيري في كتاب آخر له عثرت عليه وهو « الأصول في نحو أرباب القلوب ».

وثانيهما لشيخ من شيوخ المغرب الإسلامي وهو: أبو العباس أحمد بن عجيبة [1] في شرحه على المقدمة الآجرومية في علم العربية للإمام الصنهاجي. ولقد قام بتجريد هذا الشرح العلامة عبد القادر الكوهني [2] في كتاب سماه « منية الفقير المتجرد، وسيرة المريد المتفرد » [3].

ومنهجي في عرض تلك النصوص:

أولًا: يقوم على عدم التداخل فيها، أو التعليق عليها، إلا بالقدر اليسير، لتقويم عبارة مبهمة، أو تصويب كلمة رجحها السياق. والكتابان:

أولهما: للقشيري، وما زال مخطوطًا لم ير النور [4] بعد.

وثانيهما: وهو كتاب: منية الفقير ... طبع عام 1319 هـ إلا أن الطبعة قديمة متهالكة، كما أنها نادرة كذلك، وهي لهذا أشبه بالمخطوط في نفاسته وندرته، وفي نشر مثل هذا بعث لتراث فكري حضاري إسلامي كاد ينسى في زحمة التاريخ ودروبه.

---

(1) 1160 – 1224 هـ 1747 – 1809 م. أحمد بن عجيبة – بن محمد المهدي بن عجيبة الحسني الإدريسي الشاذلي الفاسي (أبو العباس).
صوفي مفسر من تصانيفه:
إيقاظ الهمم في شرح الحكم لابن عطاء الله في التصوف. البحر المديد في تفسير القرآن المجيد. شرح الآجرومية في النحو. الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية « معجم المؤلفين 2 / 163 عمر كحالة ».

(2) 1253 هـ / 1837 م عبد القادر بن أحمد بن أبي جيدة الكوهني الفاسي، عامل محدث، صوفي، توفى بالمدينة، من آثاره: شرح فاتحة البخاري وخاتمته، وفهرسة تعرف بإمداد ذوي الاستعداد إلى معالم الرواية والإسناد. « معجم المؤلفين 5 / 282 ».

(3) قدم إلي الزميل الدكتور حسني زيدان هذا الكتاب مشكورًا من مكتبته الخاصة.

(4) لهذا الكتاب أصور في دور الكتب: بالقاهرة والإسكندرية وتونس وإيران وتركيا، وجميعها تحت يدي لتحقيق المخطوط بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور إبراهيم بسيوني أستاذ الأدب الصوفي بجامعة عين شمس.

وثانيًا: أن النصوص التي أقدمها من هذين المصدرين تسيران في منهلين متجاورين وتشمل:

1 – نصوص مشتركة بينهما في موضوع واحد.

2 – نصوص تفرد بها كتاب دون آخر.

(أ) نصوص مشتركة بين الكتابين

يقول القشيري « وجوه الإعراب أربعة: الرفع والنصب والخفض والجزم، وللقلوب هذه الأقسام، فرفع القلوب قد يكون بأن ترفع قلبك عن الدنيا وهو نعت الزهاد. وقد يكون بأن ترفع قلبك عن إتباع الشهوات والمنى وهو نعت العباد وأصحاب الأوراد والاجتهاد. وقد يكون بأن ترفع قلبك عنك وتعتقد أنه لا يجئ منك شيء، وهذا نعت أصحاب الانكسار، وأرباب الخضوع والافتقار. وقد يكون برفع القلب إلى الحق، وتصفيته عن شهود الخلق. وقد يكون برفع يدك عن الحرام، ثم برفع ما تضمره من إثبات الأنام (5) ثم ترفع يدك إلى الله بسؤال الحاجات، ثم ترفع الحاجات عن أحكام الصحبة (6) حتى تكون بالله لله، تمحو ما سوى الله.

وأما نصب القلوب فيكون بانتصاب البدن (7) على بساط الوفاق، ثم بانتصاب القلب في محل الشهود بحسن الإطراق، ثم بانتصاب السر بوصف الانفراد، والتنقي عن دقائق الافتراق. وقد يكون العبد منصوبًا لجريان حكم المقادير من غير أن يكون له اختيار، ولا له فيما هو به إيثار، أو منه فيه اشتغال (8)، ولما يلقى به استثقال، ولما ينتظره استقبال، ولا لما

---

(5) في بعض النسخ (الآثام) والصحيح كما أثبتناه.
(6) في بعض النسخ: المحبة، والصحيح ما رأيناه، لأن الغرض تجريد التوكل والتفويض عن كل الناس وعن جميع الأصحاب.
(7) في بعض النسخ: البدل، وهي خطأ.
(8) في بعض النسخ بدون نقط.

يوعد به استعجال، ليس لهم فيه حظ، ولا لهم فيه نصيب، ينصبهم الحق لحقه لا لحظهم ... فهم غياث الخلق، قائمون للحق بالحق.

وأما خفض القلوب فيكون باستشعار الخجل، واستدامة الوجل، ولزوم الذل، وإيثار الخمول، وملازمة الخشوع، وإلقاء النفس في ذبائح الجهاد.

وقد يكون بخفض الجناح لكل من طالبك بشيء ليس في الشرع له نكير من غير رد ولا نزاع، ولا إبرام ولا استكراه ... وهكذا العارف يستقبل أعقاب الكافة مستحقرًا لقدره، مستقذرًا لنفسه وفعله، في عاجله وآجله.

وأما جزم القلوب، فالجزم: القطع، ويكون ذلك بحذف العلائق، وقطع العوائق، والسكوت تحت جريان أحكام الحقيقة، من غير إخلال بشيء من آداب الشريعة.

ويكون جزم القلوب قطعها عن خطرات المنى، فإن الأماني والمعاني متضادة، فيقطع أعناق المطالبات والإرادات والاختيارات [9] بسيوف اليأس، ثم يسكن بالله لله مع الله، فإن رجع إلى ابتغاء الرخص شهدت عليه الطريقة بالشرك والرد [10]. (انظر وجوه الإعراب).

* * *

ويقول الكوهني في تجريده عن ابن عجيبة:

« وأقسام الإعراب أربعة: (رفع ونصب وخفض وجزم)، وأحوال التغير الذي يعتري الإنسان وينزل به أربعة:

---

(9) في بعض النسخ الاختبارات، والصحيح كما أثبتنا.
(10) ربما كانت الردة: لأن القشيري يعتبر من فسخ عقده مع الله ابتغاء الرخص كالمرتد.

رفع – أي رفع القدر والعز والجاه عند الله تعالى، وعامله [11]: العلم بالله، والعمل بطاعته، وصحبة أهل العز والفناء، وهم الأولياء رضي الله تعالى عنهم.

وضده: الخفض – وهو الذل والهوان، وعامله: الجهل وارتكاب المعاصي، وإتباع الهوى كما قال الشاعر:

لا تتبع النفس في هواها * إن إتباع الهوى هوان

وقال آخر:

إن الهوى لهو الهوان بعينه * فإذا هويت فقد لقيت هوانا

فإذا هويت فقد تعبدك الهوى * فاخضع لحبك كائنًا من كانا

والنصب – نصب النفس لمجاري الأقدار، وهو مقام الرضا والتسليم، وهو حال أهل الطمأنينة من العارفين الواصلين.

والجزم – هو التصميم والعزم على السير والمجاهدة والمكابدة إلى الوصول إلى تمام المشاهدة.

فأهل الرفع والنصب – عارفون واصلون، وأهل الخفض تالفون تائهون، وأهل الجزم: سائرون.

وقد يتلون العبد بين الرفع والخفض، فتارة يغلب نفسه فيرتفع، وتارة تغلب عليه نفسه فينخفض، وهؤلاء أهل التلوين قبل التمكين، وقد يكون التلوين بعد التمكين، وهو تلوين العارف مع المقامات، فيتلون في كل مقام بلون، فتارة يظهر عليه الهيبة والخوف، وتارة يظهر عليه الرجاء والبسط، وتارة يظهر عليه الورع الكف، وتارة يظهر عليه الرغبة والأخذ، وتارة

(11) يلاحظ أن الصوفية عندهم (عوامل) ولكنها غير عوامل النحاة، يقول الكوهني: فكلما طلبهم (عامل الخفض استدركهم (عامل الرفع) فيرفعهم فلا خفض لهم أبدًا. باب الإعراب.

يظهر عليه الشوق والقلق، وتارة يظهر عليه السكون والطمأنينة، وقد يطلب العبد الرفع فينخفض وهو من سبق له الحرمان والعياذ بالله. وقد يطلب الخفض فيرتفع وهو من سبقت له العناية، فلا تضره الجناية، ربما قضى عليك بالذنب فكان سببًا للوصول، والله تعالى أعلم (انظر باب الإعراب).

* * *

ويقول القشيري:

« كان وصار ... إلى آخر هذه الأفعال ألفاظ ترفع الأسماء وتنصب الأخبار، تقول: كان زيد قائمًا، فهذه مشبهة بأفعال، وليست بأفعال محضة.

والإشارة: أنها لما ضارعت الأفعال أجريت مجرى الأفعال الحقيقية، فكما أن الفاعل رفع والمفعول نصب، فكذلك اسم كان مرفوع وخبره منصوب، ولكن ينادي عليها أنها ليست بأفعال محضة فكذلك من تشبه بقوم يجري مجراهم، ويحكم له في الظاهر بحكمهم، ولكنه ينادي عليه بأنه متشبه بهم وليس منهم حقًا.

قال الشاعر في هذا المعنى:

إذا انسكبت دموع في خدود * تبين من بكى ممن تباكى

(انظر كان وأخواتها)

ويقول الكوهني في تجريده:

فـ (كان) تشير إلى: كان الله ولا شيء معه، حيث لا شكل ولا رسم. وأمسى وأصبح وأضحى إلى تلوينها بمرور الفلك في الصباح والمساء والضحى. ويشار بظل وبات – إلى تلوينها بمرور الليل والنهار. وبصار – إلى تلوينها بالظهور والبطون، وبليس – إلى تنزيهها كقوله تعالى « ليس كمثله

شيء » وبـ « ما زال » وأخواتها إلى أنه تعالى ما زال وما يزول وما يحول عما كان عليه: فالتغير عليه تعالى محال. وبدام – إلى دوام ربوبيته أزلًا وأبدًا.

ومن شأن هذه الأفعال أن ترفع الاسم وتعظمه وتجلله، وهو الذي كان مبتدأ الأشياء وأصل ظهورها. ورفعها له دلالتها على تلوين الآثار، وتنقلات الأطوار، فتدل بذلك على عظمة الواحد القهار. وتنصب الخبر الذي هو عبارة عن الأثر لجريان أحكام الواحد القهار (انظر باب العوامل الداخلة على المبتدأ والخبر).

* * *

يقول القشيري: المنادي على أقسام: فللمفرد المعرفة وصف، وللمضاف وصف، وللنكرة وصف، كذلك من كان من العباد مفردًا ينادي على وصف غير وصف ما ينادي وهو مضاف. وكذلك من كان بوصف النكرة فالمفرد المعرفة من الأسماء مبني. على الضمة – والضمة أقوى الحركات، وكذلك من كان أبدًا بنعت التفريد كان في أعلى الحالات وأقوى الصفات.

والمنادي المضاف منصوب. وكذلك من أضيفت إليه العلائق فهو في أضعف الحالات – كما أن النصب أضعف الحركات.

والنكرة من الأسماء خص بعلم آخر، كذلك صاحب النكرة وسم برقم آخر (انظر النداء).

* * *

ويقول الكوهني في تجريده:

« المنادي خمسة أنواع: المفرد العلم، والنكرة المقصودة، والنكرة غير المقصودة، والمضاف، والمشبه بالمضاف.

فأما المفرد العلم والنكرة المقصودة فيبنيان على الضم من غير تنوين نحو: يا زيد ويا رجل، والثلاثة الباقية منصوبة لا غير ».

المنادي في الأزمات والمآرب أي الشدائد والمقاصد خمسة:

المفرد العلم، وهو الحق جل جلاله، وهذا هو المقصود بالذات، والأربعة وسائل، وقد يطلق المفرد العلم على الرسول عليه الصلاة والسلام، لانفراده بالكمالات ...

والنكرة المقصودة، وهي سر الولاية، فمن ظفر بها كان بابًا من أبواب الله يفزع إليه في الشدائد، وتقضى بشفاعته الحوائج، لأنه نائب عن الرسول الذي هو الحجاب الأعظم، وإنما فسرنا النكرة المقصودة هنا بسر الخصوصية، لتنكر أولًا، وتقصد ثانيًا بعد التمكن منها، فيظهر صاحبها بعد الخفاء، لينتفع به العباد، وتحيا به البلاد.

والنكرة غير المقصودة هي الخصوصية التي بقيت على حال الخفاء حتى مات صاحبها، فهو كنز من كنوز الخفاء، وعروس الحضرة، لا يعرف إلا أمثاله ومن قرب منه.

والمضاف إلى أولياء الله بالتربية والخدمة، وهو الملحق بهم في المال.

والمشبه بالمضاف: وهو من تزيا بزيهم، وانتسب إليهم، ولم يكن له همة للظفر بسرهم، فلا شك أنه تلحقه بركاتهم وتنسحب عليه أنوارهم، كما قال القائل:

لـــي ســـادة مـــن حـــبهم * أقـــدامهم فـــوق الجبـــاه

إن لـــم أكـــن مـــنهم فلـــي * فـــي حـــبهم عـــز وجـــاه

فأما المفرد العلم ويراد به الرسول عليه الصلاة والسلام، والنكرة المقصود من بني إبراهيم، فيبنيان على الضم على الله، والجمع بالله من

غير تنوين، أي من غير شهود الأثر بسبب غيبتهم في شهود المؤثر فلا يفترقون عنه ساعة.

والثلاثة الباقية منصوبة للمقادير، يجري عليهم ما كتب لهم مع السكون تحت مجاريه، إن قربهم فبفضله، وإن فر منهم فبعدله ...

(انظر باب المنادي)

* * *

(ب) نصوص تفرد بها كتاب القشيري

يقول القشيري: الاسم المفرد إذا تثنيته ألحقته ألفًا في حال الرفع، وياء في حالي النصب والجر، ونونًا بعد الألف والياء، ونو التثنية مكسورة، وهي تسقط عند الإضافة.

والإشارة منه: أن الواحد لا تثنية له من لفظ الواحد، والاثنان لا واحد له من لفظه، فلا يقال من الواحد: واحدان، ولا من اثنين: اثن. وهذا محال في التقدير ... كذلك الذي هو واحد في الحقيقة [12] فيستحيل أن تزول عنه وحدانيته – تقديرًا ووجودًا، والذي يصح أن يكون اثنين فمن المحال أن يصير فردًا لا ثاني له – تقديرًا، قال الله تعالى: « ومن كل شيء خلقنا زوجين » [13].

وما دام الواحد من الأسماء واحدًا فهو بصفته في حروفه، فإذا انضم إليه غيره حتى يصير اثنين، وقع في التغير، فمرة مرفوعًا بالألف، ومرة منصوبًا أو مخفوضًا بالياء. كذلك العبد ما دام بقلبه مفردًا مجردًا فهو في أسمى نعوته [14]- فإذا حصلت علاقة المواصلات [15] وقع في التلوين فمرة ومرة (انظر المفرد والمثنى).

---

(12) المقصود هو الله جل شأنه.
(13) الذاريات : 49. وفي الأصل سقطت (شيء).
(14) في بعض النسخ (نحواه) وأرجح أنها: نجواه.
(15) من آفات الطريق: العلاقات، ويجب إسقاطها لأنها نقص في التوحيد، فلا اثنينية في التوحيد، لأن التوحيد إسقاط السوى.

ويقول القشيري: ومن الحروف ما يدخل على الاسم المبتدأ ولا يغير معنـاه، ولا يوجب له تغيير الإعراب، وهي مثل: إنما وكأنما وليتما ولعلما وغيرها.

والإشارة: أن من الناس من لا تؤثر فيه الواردات بحال، فهو في حـال مـا دخـل عليه مثله في حال تجرده عنها. دخل بعضهم على بعض المشايخ وبالقرب منـه مـلاه [16] فتوهم هذا الداخل أنه متغير بما يجري فرآه لا يؤثر فيه ذلك، ولا يشغله مـا يجري عما كان به من الوقت [17] فقال: فديت من لا تؤثر فيه الجبال الرواسي ...

فقال ذلك الشيخ: يا فلان، إنا قد جردنا عن رق الأشياء في الأزل.

(انظر الحروف التي لا تؤثر على المبتدأ والخبر).

وهناك أبواب أخرى تفرد بها القشيري عن الكوهني في النحو منها:

وجوه البناء، وهمزة الوصل، والإلحاق، والإدغام، والتصغير، وجموع القلة والكثرة. وحسبنا ما ذكرناه منها.

(ج) نصوص تفرد بها كتاب الكوهني وابن عجيبة

« وأما الألف فتكون علامة للرفع في تثنية الأسماء خاصة » وأما ألف الوحدة، أي التحق بها، فتكون علامة لرفع صاحبها وكماله في تثنية الأسماء خاصـة، أي فـي حالة التمسك بالشريعة والحقيقة فقط، فمن تحقق ولم يتشرع فقد تزندق إلا أن يكون مجذوبًا، أو نقول: تكون ألف الوحدة علامة للرفع في تثنية الأشياء الدالة عليها الأسماء.

---

(16) انظر القصة في الرسالة القشيرية ص 35.
(17) يصر القشيري على احترام الوقت، والصوفي ابن وقته.



وتثنيتها جعلها ورؤيتها قائمة بين الضدين: بين الحس والمعنى، بين الحكمة والقدرة، بين العبودية [18] والربوبية، بين الملك والملكوت، بين الأثر والمؤثر، بين الكون والمكون، بين الخلق والحق، فلا يكون العارف كاملًا حتى يبلغ إلى هذا المقام. فإن وقف مع الضد الأول كان محجوبًا مطموس البصيرة، وفيه قال المجذوب }: من نظر الكون بالكون عراه العمى في البصيرة، ومن نظر الكون بالمكون صادف علاج السريرة، وإن وقف مع الضد الثاني كان غير صاح، فانيًا غير باق، مجذوبًا غير سالك، فلا يكون كاملاً، وبالله التوفيق (انظر باب معرفة علامات الإعراب).

ويقول الكوهني في تجريده:

« والمعرفة خمسة أشياء: الاسم المضمر نحو: أنا وأنت، والاسم العلم نحو: زيد ومكة، والاسم المبهم نحو: هذا وهذه وهؤلاء، والاسم الذي فيه الألف واللام نحو: الرجل والغلام، وما أضيف إلى واحد من هذه الأربعة ... ».

المعرفة بالله تظهر في خمسة أشياء. فمن عرف الله تعالى فيها فهو عارف، ومن جهلها أو أثبتها مع الله فهو تالف.

أولها: الكنايات، نحو: أنا وأنت. فما دمت تقول: أنا أفعل، أو أنت فعلت فأنت جاهل مشرك، وإن غبت عنك وعن غيرك فأنت موحد عارف.

ثانيها: أسماء الأشخاص والأماكن، فإن عرفت الله فيها فأنت عارف، وإن أثبتها مع الله فأنت جاهل. الأكوان ثابتة بإثباته، ممحوة بأحدية ذاته، ما نصبت لك العوالم لتراها، بل لترى فيها مولاها.

---

(18) العبودية من حيث الغالب الحسي، والربوبية من حيث المظهر المعنوي، العبودية مرتبة على الحس البشري، والربوبية مرتبة على الأمر المعنوي، العبودية ظاهرة والربوبية كامنة، والضدان يجتمعان في محل واحد مع اختلاف الجهة (منية الفقير المتجرد ص 49).

الثالث: المبهمات ــ من الكائنات: كهذا فعل كذا، وهذه فعلت، فما دام العبد ينسب التأثير للغير، ويتوقع منه ضررًا أو نفعًا فهو جاهل بالله.

الرابع: المعرفة عند الناس بالرياسة والجاه كالحكات والقواد وغيرهما من أهل الرياسة الظاهرة، وكذلك أهل الرياسة الباطنة كالأولياء والصالحين، فمن عرف الله تعالى فيهم، ورأى أنهم متصرفون تحت قهرية الحق، يتصرفون بدرته وإرادته، ليس بيد أحد منهم شيء، بل ولا وجود لهم مع الحق، فهو عارف، وإن أثبت لهم ضررًا أو نفعًا، ودخل قلبه منهم جزع أو خوف فهو جاهل بالله تعالى.

خامسها: ما أضيف لواحد من هؤلاء كأصحاب العشائر فهو منزلتهم لا حول لهم

ولا تأثير، كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان، نعم الإضافة لها تأثير في المضاف، فمن انضاف إلى أهل العز بالحق تعزز ودام عزه، ومن انضاف إلى أهل العز بالخلق أو المال مات عزه، وأعقبه الذل، ولله در القائل:

عليك بأرباب الصدور فمن غدا * مضافًا لأرباب الصدور تصدرا

وإياك أن ترضى بصحبة ساقط * فتنحط قدرًا من علاك وتحقرا

وأرباب الصدور هم العارفون بالله الذين صدرهم الله تعالى لنفع عباده، والدعاء إليه على قدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم. والساقط: وهو الجاهل بالله وبأحكامه كائنًا من كان ... (انظر المعرفة والنكرة).

تعليق

1 – والقشيري، وإن كان قد عقد للمعرفة والنكرة بابًا، لكنه أجمل الحديث عنها فلم يفصل كما فصل الكوهني، ومثل هذا ما فعله القشيري في باب العطف، حيث لم يتعرض لمعاني حروفه. أما الكوهني فقد فصل



حروفه وبين معانيها النحوية والصوفية. كذلك تفرد الكوهني بذكر بابي التوكيد والبدل على حين لم يشر إليهما القشيري.

2 – آثرنا أن نعرض هذه النصوص أمام القارئ خالية من الموازنة والنقد ليحسها الإنسان بروحه ووجدانه حسب طاقته، فكل فرد له مقام وقدر، ومنهل ومشرب و « قد علم كل أناس مشربهم ».

كما أن هذه النصوص الصوفية لا تخضع للقوانين والضوابط العامة التي يخضع لها أي نص أدبي أخر، ونحن نقدمها – كما رأيت – لأهل الأذواق والوجدان. وأصحاب الشهود والعيان.

دراسات للمحقق

في

ضوء الكتاب

(1)

في اللحن

لســـان فصـــيح معـــرب فـــي كلامـــه
فيـــا ليتـــه مـــن حســـرة العـــرض يســـلم
ومـــا ينفـــع الإعـــراب إذا لـــم يكـــن تقـــي
ومـــا ضـــر ذا التقـــوى لســـان معجـــم

(في أول نسخة (ن) وردت هذه الأبيات في الصفحة الأولى للعنوان وهي):

(نحـــو القلـــوب) عجيـــب * رفـــع وخفـــض ونصـــب
علامـــة الرفـــع فيـــه * روح وأنـــس وقـــرب
وأحـــرف الخفـــض منـــه * حـــزن وقـــبض وحجـــب
والـــنفس حـــرف لمعنـــى * اســـقاطه مســـتحب
والحـــال ينصـــب مـــا ليـــ * ـــس للفتـــى فيـــه كســـب
هـــذا هـــو النحـــو لا مـــا * قـــد قـــال عثمـــان حســـب
لحـــن اللســـان مبـــاح * واللحـــن بالقلـــب ذنـــب
وأقـــبح اللحـــن عنـــد * كبـــر وتيـــه وعجـــب

التعليق باختصار على الشعر

* الأبيات السابقة تحدد معالم النحو (الصوفي) أو نحو (الإشارة) أو نحو (الجنان). وذلك في مقابل نحو (العبارة) أو نحو (اللسان).

* الشعر من (المجتث) مستفعلن فاعلاتن.

* أضفت البيت الرابع من « نحو القلوب » لمؤلف مجهول مخطوط بدار الكتب المصرية برقم 116 مجاميع.

* دقة من الناظم في البيت الرابع، وذلك حين أخبر عن النفس بأنها حرف فيجب إسقاطه، لأنها محل الأوصاف المذمومة، والنفس لا تعيش إلا في أوطان الشهوات، فتدعوك اليوم إلى ما فيه هلاكك، ثم تشهد عليك غداً بزلاتك.

* كما أن البيتين السادس والسابع يشيران إلى ما روي عن عثمان } حين فرغ من كتابة المصحف ونظر فيه فقال: « قد أحسنتم وأجملتم، أرى فيه شيئًا من لحن ستقيمه العرب بألسنتها » (المصاحف لأبي داود السجستاني 32). واللحن معناه في قول عثمان: اللغة أو القراءة! قال عمر } : إنا لنرغب في كثير من لحن أبي، يعني لغة أبي، المرجع السابق. وقول بعض العرب: « ليس هذا لحني ولا لحن قومي ». فاللحن: اللغة هنا. وكان عمر أيضًا يقول: « أبي اقرأنا، وإنا لندع بعض لحنه، أي قراءته» فاللحن القراءة. وانظر مادة (لحن) في (اللسان).

ولحن اللسان مباح، أما لحن القلب وهو محل العرفان والمشاهدة. فذنب عظيم.

ولذلك كان معرفة « نحو القلب » أكد وأنفع من معرفة نحو اللسان، فعليك الاشتغال أولًا (بنحو) قلبك لتسلم من لحنه، وتصلح علمك وعملك، وبلحن القلب – تكون جاهلًا في عملك أعمى في بصرك، أصم في سمعك،

أخرس في كلامك، أحمق في عقلك، فإن قدمت الاشتغال (بنحو) لسانك، فنحوك ملحون، وفهمك معكوس، وبصرك مطموس وكلامك مخروس، وألبست الحق بالباطل، وكتمت ما أنزل الله تعالى من البينات والهدى، كما أن نحو القلب – لا يكون إلا بحفظه من الأخلاق المرذولة الذميمة من كبر وتيه وعجب، فإذا انتهى الطالب من معرفة نحو القلب – أسرع في تعلم نحو اللسان على قواعد التراكيب العربية متجردًا من كل خطواته من الرياء والسمعة والمباهاة والتشدق.

* والأبيات السابقة محاولة لنظم القواعد في « نحو القلوب » وهي تناظر ما فعله علماء « نحو العقول » كابن معطي وابن مالك والسيوطي وغيرهم.

* وقد استعملت الشواهد الشعرية المصطلحات النحوية ؛ لتعبر عن فلسفة روحية وإشارات خفية لعمارة الباطن من: طهارة القلوب، ومراعاة الأسرار، والدخول في كل خلق سني، والخروج من كل خلق دني.

* وهذا النص الشعري شبيه بما جاء في (منهاج العارفين للإمام الغزالي ص 82 فما بعدها تحت عنوان: باب الأحكام) وقد طبع هذا الكتاب مع مجموعة تسمى (القصور العوالي من رسائل الإمام الغزالي) جاء فيه:

إعراب القلوب على أربعة أنواع:

رفع وفتح وخفض ووقف

فرفع القلب: في ذكر الله تعالى.

وفتح القلب: في الرضا عن الله تعالى.

وخفض القلب: في الاشتغال بغير الله تعالى.

ووقف القلب: في الغفلة عن الله تعالى.

فعلامة الرفع ثلاثة أشياء: وجود الموافقة، وفقد المخالفة، ودوام الشوق.

وعلامة الفتح ثلاثة أشياء: التوكل، والصدق، واليقين.

وعلامة الخفض: ثلاثة أشياء: العجب والرياء، والحرص، وهو مراعاة الدنيا.

وعلامة الوقف ثلاثة أشياء: زوال حلاوة الطاعة، وعدم مرارة المعصية، والتباس الحلال.

(2)

صوفية الحركات

أعللت علة (قال) وهي قديمة
أعيا الأطبة كلهم ابراؤها

(أبو العلاء المعري)

* * *

آثرت وضع « صوفية الحركات » عنوانًا لنصين من « نحو القلوب » للقشيري.

وقبل الكشف عن سبب إيثاري لهذا العنوان أعرض النصين ثم أتبعهما بدراسة موسعة مفصلة تكشف عن سبب هذا الإيثار وذلك الاختيار.

1 – يقول القشيري: « الأفعال على أقسام: صحيح ومعتل، وكذلك أعمال المكلفين على قسمين: صحيح ومعتل، وكما أن الصحيح من الأفعال ما سلم من حروف العلة، فالصحيح من أفعال العباد ما سلم من صنوف العلة، وحروف العلة ثلاثة: الواو والياء [1] والألف، وصنوف العلة ثلاثة: الرياء، والإعجاب والمساكنة. وبعض صنوف العلة ألطف من بعض، وبعضها أجلى من بعض [2]. ومن الأفعال ما هو أجوف وهو الذي حشوه حرف علة، كذلك

(1) بدون همزة.
(2) في بعض النسخ: « وبعض حروف العلة أضعف وبعضها أقوى، كذلك فإن بعض صنوف علل الأفعال ألطف وبعضها أجلى ».

من أفعال العباد ما هو أجوف، وهو الذي داخله ذلة. ومن الأفعال ما هو ناقص وهو الذي يعقبه آفة، فإن قبول القرب موقوف على وفاء [*] العواقب، ومن الأفعال ما هو لفيف وهو الذي اجتمع (فيه) حرفان من حروف العلة: إما مفترقين أو مقترنين، كذلك من الأفعال ما تتوالى [3] عليه الآفات فصاحبه يعتريه الرياء، ويحلقه الإعجاب ». نحو القلوب ورقة 62 – 63 تصوف. طلعت رقم 1593. ومصورة (ميكروفيلم 7434).

2 – ويقول القشيري في « نحو القلوب »: الاسم صحيح ومعتل. قال أهل العبارة: الصحيح: ما سلم من حروف العلة وهو: الألف والواو والياء، وقال أهل الإشارة: « من سلم اسمه من ألف الإلباس، وواو الوسواس، وياء الياء، فقد صح اسمه وحق له الإعراب وهو البيان ... ».

وللكشف عن إشارة النصين لا بد من الاستعانة:

أولًا: بمصطلحات القشيري التي تتصل بآفات الطريق.

وثانيًا الاستعانة كذلك بعلماء الأصوات القدامى والمحدثين لتوضيح مكانة ما أسماه القشيري بحروف (العلة) ولم اختار هذه الأصوات بالذات دون غيرها من الأصوات الساكنة؟

– 1 -

وأقدم نصوصًا كاشفة في الجانب الأول (الصوفي) للقشيري:

(أ) يقول القشيري في تفسير قوله تعالى: ﴿ **قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا** (103) **الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا** ﴾ [الكهف: 104]...

(*) بدون همزة.
(3) في الأصل: في بوالا.

الـذي ضـل سـعيهم هـم الـذين قرنـوا أعمـالهم (بالريـاء)، ووصـفوا أحـوالهم (بالإعجاب)، وأبطلوا إحسانهم (بالملاحظات) أو بالمن. اللطائف 4 / 87.

(ب) ويقول القشيري عند تفسير قول الحق سبحانه: « إن الله لا يحب كل خوان كفور ».

الخيانة أقسام: خيانة فـي الأمـوال، تفصـيلها فـي المسـائل الشـرعية وخيانـة فـي العمال، وخيانة في الأحوال.

فخيانــة الأعمــال: بالريــاء والتصــنع وخيانــة الأحــوال: بالملاحظــة والإعجــاب والمساكنة، وشـرها: الإعجـاب ثـم المسـاكنة، وأخفاهـا « الملاحظـة » اللطـائف 4 / 218.

(ج) وفي مفتتح سورة الأحزاب: « يا أيها النبي اتق الله ... » اتق الله أن تلاحظ غيرًا معنا، أو تساكن شيئًا من دوننا، أو تثبت أحدًا سوانًا ...

(د) ويقول القشيري: « فمن علـم أنـه المعبـود سـبحانه، دون غيـره أخلـص فـي حالته، وصدق في طاعته، وصفى عن الرياء أعماله، وزكى عن الإعجاب أحواله ... وأما الإعجـاب الـذي هـو رؤيـة المقـام، واسـتكبار القـدر والجـاه، واسـتكثار الطاعـة والفعل، فإنه سبب الحجاب، ولهذا قال الشيوخ: « من أعجب بنفسه، حجب عـن ربـه » شرح أسماء الله الحسنى 87.

ومن إشارات هذه النصوص الصوفية نرى:

1 – أن الرياء يكون في الأعمال، وهـي: جهـود كسـبية. والإعجـاب والملاحظـة والمساكنة تكون في: الأحوال وهي: مواهب فيضية.

2 – وفي نص للقشيري في اللطائف 3 / 160 قرن الملاحظة بالأسرار. ومـرة أخرى في اللطائف 4 / 87 قرن الملاحظة بالإحسان.

3 – شر هذه الآفات الإعجاب، ثم المساكنة، وأخفاها الملاحظة. يؤكد هذا:

أولًا: ما قاله الشيوخ: من أعجب بنفسه حجب عن ربه (شرح أسماء الله الحسنى 87)، والعجب يدعو إلى الكبر، وإلى نسيان الذنوب وإهمالها، كما أن المعجب يستعظم عبادته، ويمن على الله بفعلها، وإذا أعجب بها عمي عن آفاتها، وعلى العجب كما قال الغزالي: الجهل المحض.

ثانيًا: أما (المساكنة) فمن قولك: سكنت إلى فلان: استأنست به، والسكن: ما تسكن إليه النفوس من الأهل والوطن، ومنه قوله تعالى: « والله جعل لكم من بيوتكم سكنًا » 80 / النحل. واستقامة (الأرواح) لا تكون إلا بنفي العلاقة: أي المساكنة.

فمن عرف الله: ... لا يسكن إلى غيره، وعلامة سكون القلب إلى الله، أن يكون بما في يد الله أوثق منه بما في يده، وخطر المساكنة لغير الله، يرويها الخواص حين حدث بأعجب ما رأى في أسفاره. قال: لقيني الخضر ـــ فسألني الصحبة، فخشيت أن يفسد عليّ توكلي بسكوني إليه، ففارقته (الرسالة القشيرية 372).

ثالثًا: أما (الملاحظة): فهو أخفى هذه الآفات جميعًا، لأن استقامة (الأسرار) لا تكون إلا بنفي الملاحظة. وعلامة الحقيقة: ترك ملاحظة العمل، والذين ضل سعيهم هم الذين يلاحظون أعمالهم وما منهم بعين الاستكثار. وكان الواسطي يقول: « إياكم واستحلاء الطاعات فإنه (أي الاستحلاء) سموم قاتلة ». (الرسالة القشيرية 424).

والصوفي الصادق هو الذي يراقب أسراره، ويتجاوز الحدود الفاصلة إلى المستويات العالية، وهو في كل خطوة يراقب مشاعره وأحاسيسه ويلتفت إلى ما يعكر صفو هذا الكمال والجلال. ففي الرسالة القشيرية 66 « أن السري السقطي قال: منذ ثلاثين سنة أنا في الاستغفار من قولي:

الحمد لله مرة. قيل: وكيف؟ فقال: وقع ببغداد حريق، فاستقبلني رجل، فقال لي: نجا حانوتك. فقلت الحمد لله. فمنذ ثلاثين سنة أنا نادم على أم قلت، حيث أردت لنفسي خيرًا مما حصل للمسلمين ». ويرى الصوفية أن من شهد في إخلاصه الإخلاص. احتاج إخلاصه إلى إخلاص.

رابعًا: أما (الرياء) فاشتقاقه من الرؤية، وأصله: طلب المنزلة في قلوب الناس بإيرائهم خصال الخير.

والرياء: أصناف كثيرة: رياء في الدين، والقول، والهيئة، والعمل، وإذا تعلق بالعباد. فهو التلبيس، والمكر، لأنه يخيل إليهم أنه مخلص لربه، وليس كذلك، وإذا تعلق بالله وهو أنه مهما قصد بعبادة الله – سبحانه – خلق الله، فهو مستهزئ بالله، ولذلك قال قتادة: إذا راءى العبد قال الله لملائكته: انظروا إليه كيف يستهزئ بي. وسأل رجل رسول الله > : فيم النجاة؟ فقال الرسول: **« ألا يعمل العبد بطاعة الله يريد بها الناس »**. وسماه الرسول: الشرك الأصغر. وفي الطبقات الصوفية للسلمي ص 13 قال: وسمعت الفضيل يقول: خير العمل أخفاه، وأمنعه من الشيطان أبعده من الرياء.

-2 -

نصوص في علم الأصوات توضح مخارج ومكانة

الألف والواو والياء

أ – يقول ابن جني: « والحروف التي اتسعت مخارجها ثلاثة: الألف ثم الياء ثم الواو، وأوسعها وألينها: الألف، إلا أن الصوت الذي يجري في الألف مخالف للصوت الذي يجري في الياء والواو، والصوت الذي يجري في الياء مخالف للصوت الذي يجري في الألف والواو، والعلة في ذلك: أن تجد الفم والحلق في ثلاثة الأحوال مختلف الأشكال.

أما الألف: فتجد الحلق والفم معًا منفتحتين ... وأما الياء: فتجد الأضراس معها سفلًا وعلوًا وقد اكتنفت جنبتي اللسان وضغطته ... وأما الواو: فتضم لها معظم الشفتين وتدع بينهما بعض الانفراج ليخرج فيه النفس ». (سر صناعة الإعراب: 1 / 8 فما بعدها).

ب – ثم يقول ابن جني « اعلم أن الحركات أبعاض حروف المد واللين، وهي: الألف والواو والياء، فكما أن هذه الحروف ثلاثة، فكذلك الحركات ثلاثة، وهي الكسرة والفتحة والضمة، فالفتحة بعض الألف، والكسر بعض الياء، والضمة بعض الواو، وقد كان متقدموا النحويين يسمون الفتحة: الألف الصغيرة، والكسرة: الياء الصغيرة، والضمة: الواو الصغيرة، وقد كانوا في ذلك على طريق مستقيمة ». (سر صناعة الإعراب 1 / 19 فما بعدها ط أولى 1954 م).

ج – وروى الليث عن الخليل: أنا الألف والواو والياء والهمزة جوف، لأنها تخرج من الجوف ولا تقع في مدرجة من مدارج الحلق ولا اللهاة ولا اللسان إنما هي هواء. وكان الخليل يقول: الألف والواو والياء هوائية: أي أنها في

الهواء ... والحروف اللينة: الألف والواو والياء وهي حروف المد واللين، وقيل لها ذلك: لاتساع مخرجها، والمقطع إذا اتسع انتشر الصوت ولان، وإذا ضاق انضغط فيه الصوت وصلب، إلا أن الألف أشد امتدادًا واستطالة، إذا كان أوسع مخرجًا ... وأخفاهن وأوسعهن مخرجًا الألف « شرح المفصل » لابن يعيش: باب الإدغام.

* ونرى من خلال هذه النصوص وغيرها:

1 – أن مخارج الألف والواو والياء تختلف. ففي الألف يكاد اللسان يكون مستويًا في قاع الفم مع ارتفاع خفيف في وسطه، وحركته متسعة. أما الياء فمن أدنى اللسان وهي حركة أمامية ضيقة، والواو من أقصى اللسان، وهي حركة خلفية ضيقة شفوية.

2 – أن الحركات تنقسم إلى قصيرة وهي: الفتحة والكسرة والضمة، وطويلة وهي: الألف والياء والواو، وتسمى: حروف المد واللين، ولا فرق بينهما إلا أن الحركات الطويلة تساوي من حيث الكم والمدى حركتين قصيرتين، والحركة الطويلة أقوى من القصيرة حيث تكون عنصرًا واستقرارًا في الصيغة.

3 – أن جميع الحركات القصيرة والطويلة مجهورة، وأنها أقوى في الوضوح السمعي من الأصوات الساكنة.

4 – أن هذه الحركات كثيرًا ما يحدث لها تغييرات طارئة من: حذف وإدغام وقلب وإبدال وإعلال.

* ومن عرض هذه النصوص نستطيع أن نربط في نص القشيري الأول بين الرياء والإعجاب، والمساكنة والملاحظة، وبين حروف المد واللين وهي: الألف والواو والياء (صوتيًا) و (صوفيًا)، لأنه لم يربط بين هذه الآفات وبين ما أسماه حروف العلة في هذا النص. وأرجح:

1 – أن الألف من الجانب الصوتي تناسب (المساكنة والملاحظة) في الجانب الصوفي. فالألف (أخفى) و (أوسع) مخرجًا، و (الين) [4] و (أشد امتدادًا واستطالة). وفيما سبق، ذكرنا أن الملاحظة والمساكنة، تكون في (الأحوال)، واستقامة (الأرواح) لا تكون إلا بنفي المساكنة واستقامة (الأسرار) لا تكون إلا بنفي الملاحظة، وكلها تتصل بالدقائق (الخفية)، والرقائق غير المنظورة. وهي تشبه (خفاء) الألف، ولقد كان القراء يعدون من الحروف الخفية الألف، بل الألف أخفى هذه الحروف (لطائف الإشارات لفنون القراءات 1 / 200، شهاب الدين القسطلاني. تحقيق الشخص عامر عثمان، والدكتور عبد الصبور شاهين). ثم (اتساع) الألف لتحتوي الإنسان ومن يساكنه، و (الانفراج) في مخرجه ليسع أصحاب الأسرار، والأحوال والإحسان، كما أن (امتداد الألف واستطالته) يشبه من (يساكن) غيره حيث يستأنس به، ويلين له، ويفئ إليه، فما أشبهها في الجانب الصوتي (بامتداد الألف واستطالته). فإذا أضفت إلى ذلك ما جاء عن الخليل من قوله « إن الألف اللينة أضعف الحروف المعتلة » (تهذيب اللغة 1 / 44، 51 للأزهري، تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون. ط المؤسسة المصرية العامة). وقول العكبري في إعراب القراءات الشواذ ج 1 لوحة 4 مخطوط بدار الكتب المصرية، تفسير رقم 1199 « والألف ضعيفة في غاية اللين »، أدركت معي مدى انطباق الجانب الصوتي على الجانب الصوفي، فمن تسكن إليه نفسك وتهواه من: مالك أو زوجك أو ولدك، تلين له وتذل، وتصبو إليه وتخضع، وتدنو إليه وتأنس، وتقرب إليه وتضعف، فما أشبه ذلك بوصف الخليل للأسف بأنها « أضعف الحروف ». والألف فيها من الضعف: الرخاوة والانفتاح، وكذلك شأن المساكن.

---

(4) يلاحظ أننا نأتي بنفس المصطلحات عند القدماء من علماء الأصوات والعربية وننظر لها الصوفية عند القشيري.

كما يمكن أن نربط بين الفتحة التي هي بعض المدّ واللّين في كثرة [5] دورانها في النسيج العربي وبين المساكنة والملاحظة وهما من آفات الطريق وأكثرها شيوعًا كذلك، إذ قلما يتجرد منهما عبدا! فمن منا سلم من مساكنة ماله، أو زوجه أو صاحبه؟ وفي الرسالة القشيرية 194 أن القشيري سمع من شيخه الأستاذ أبي علي الدقاق رحمه الله، يقول في معنى قوله : **« إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله تعالى في اليوم سبعين مرة »**، أنه كان > أبدًا في الترقي من أحواله، فإذا ارتقى من حاله إلى حالة أعلى مما كان فيها، فربما حصل له ملاحظة إلى ما ارتقى عنها، فكان يعدها (غينا) بالإضافة إلى ما حصل فيها، فأبدًا كانت أحواله في التزايد.

2 – أما الواو من الجانب الصوتي فتناسب (الإعجاب) في الجانب الصوفي.

وذلك أن الواو من أقصى اللسان وهي حركة خلفية ضيقة حيث يضيق مجرى النفس في الفم « وإذا ضاق انضغط فيه الصوت وصلب » كما يقول ابن يعيش في شرح المفصل، (باب الإدغام). ويزيد ابن جني في « سر الصناعة » ص 1 / 8 قوله:
« وتضم لها معظم الشفتين » وهي أثقل وأظهر من الكسرة والفتحة ؛ لأن لها مستويين: خلفية بالنسبة للحلق، ومستديرة بالنسبة للشفتين، وقد التقى رأي علمائنا القدامى والمحدثين على أن الضم الذي هو بعض حركات المد واللين أثقل وأقوى من الكسر والفتح (المحتسب 2 / 299 ط. المجلس الأعلى، الإنصاف في مسائل الخلاف 1 / 14 ط4، أسرار العربية 31 لابن الأنباري، التصريح 1 / 59 للشيخ خالد الأزهري، في اللهجات العربية 85 د. أنيس).

---

(5) الفتحة: هي الحركة الخفيفة المستحبة، ويميل إليها العربي كثيرًا وهي أخف الحركات (إحياء النحو: ص. ز. 50، 78 إبراهيم مصطفى) وقد ثبت إحصائيًا أن نسبة شيوع الفتحة كبير، يجاوز 50% من الحركات على حين يبلغ الكسر والضم 25% من الحركات.

وقد دلت أحدث التجارب على أن نسبة وجود الفتحة التي هي بعض الألف 460 في الألف على حين تليها الكسرة 184 في الألف، ثم الضمة 146 في الألف (الألسنية العربية ج 2 ص 29 ريمون طحان، دار الكتاب اللبناني – بيروت)، وانظر إحصاء آخر في بعض الصيغ في القرآن الكريم، أكد هذه التجارب الحديثة (في اللهجات العربية 157) د. إبراهيم أنيس ط 2، وانظر إحصائية أخرى لثلاثة نصوص قرآنية من (البقرة 1 – 18) و (طه من 2 – 34) و (الروم من 2 – 20) أي من كل سورة مائتين كلمة.

وكانت النتيجة لهذه الستمائة كلمة هي: الفتحة 59,4% ، الكسرة 20,8%، والضمة 19,8% (العربية الفصحى 36 – هنري فليش، تعريب د. عبد الصبور شاهين، الكاثوليكية – بيروت).

فإذا لاحظنا هذه المعالم الصوتية وضح لنا ما يشبهها صوفيًا في: صفة الإعجاب والمعجب. فالمعجب (ثقيل) في نفسه، (قوي) في مظهره، لأنه متكبر مغرور، يستكبر قدره، ويستكثر طاعته، وينظر إلى غيره بعين الاحتقار والذل. وإذا كانت الواو: خلفية في مستوى الحلق، ومستديرة في مستوى الشفتين فتلك إشارة إلى أن صفة الإعجاب تحيط بالإنسان وتملكه وتدخل عليه من كل جانب!

والمعجب يشعر بالزيادة عن غيره ويبالغ في ذلك حتى استقر ذلك في سمته، وأصبح سجية له وخلقًا، وغريزة وطبعًا، وفي الجانب النحوي الصرفي تجد طبق هذا، فكل فعل أردت التعجب به أو المدح، أو قصدت به المبالغة في معناه، أو قصدت به الزيادة أو للدلالة على أن معناه صار كالطبع والغريزة في صاحبه – حولته إلى باب فعل – بضم العين التي هي بعض واو المدّ واللين، وإن لم يكن من هذا الباب. فتقول في الفعل كتب – بفتح العين – حين تريد المبالغة في معناه، أو التعجب، أو قصدت أنه زاد على قرنائه في صفة الكتابة، قلت: كتب الرجل عليّ! بضم عين الفعل بمعنى: ما أكتبه !.

فإذا أضفت إلى ذلك أن الضمة في العربية دائمًا – علامة الإسناد، بمعنى أنها تدل على تحقيق الارتباط بين الركنين الأساسيين: المسند إليه والمسند – أيقنت أنها قوية، لأنها تقوم بدور خطير في الإسناد، وهي في قوتها تذكرك بقوة هذا المعجب المتكبر !! كما ترى في الدراسات الصوتية أن الواو حرف مجهور، والجهر من صفات القوة والقوة من صفات المعجب كما أن تفخيم الألف يكون بإمالته نحو الضم، والتفخيم: تغليظ الحرف في مخرجه كقراءة ورش: الصلواة والزكواة والحيواة. وقد عد علماء القراءات التفخيم من صفات القوة، ولهذا كتبت ألف التفخيم بالواو في القرآن كما سبق. والصلة واضحة بين الجانب الصوتي في (التفخيم) والجانب الصوفي في (الإعجاب).

3 – أما الياء من الجانب الصوتي فيناسبها آفة (الرياء) في الجانب الصوفي.

وذلك أن الياء أيسر نطقًا من الواو ؛ لأن الياء تتكون بتحريك أدنى اللسان، وتحرك أدنى اللسان أيسر من تحرك أقصاه، وهو مخرج الضمة التي هي بعض واو المدّ (في اللهجات العربية 85، أسرار العربية 316 ابن الأنباري). كما مالت العربية إلى الكسرة التي هي بعض ياء المد. كلما كان لها أن تختار بينها وبين الضمة مما يؤكد ثقل الواو. كما تميل العربية إلى قلب الواو إلى الياء وهذا دليل على خفة الياء.

ويقول ابن الأنباري: « إلا أنه لما اجتمعت الواو والياء والسابق منهما ساكن قلبوا الواو ياء، وجعلوها ياء مشددة فقالوا: طيًا وليًا وشيًا. والأصل فيها طويًا ولويًا وشويًا. وإنما وجب قلب الواو إلى الياء دون قلب الياء إلى الواو لأن الياء أخف من الواو فلما وجب قلب أحدهما إلى الآخر كان قلب الأثقل إلى الأخف أولى (الإنصاف 1 / 14 ط. السعادة. ط 4).

والمرائي أضعف من المعجب، لأنه يتظاهر بما ليس فيه، ويرى الناس خلاف ما هو عليه ليخدعهم به، فسبيله ملتوية، وطرقه غير مستقيمة ؛ ولذا

ناسبه الياء، والياء من علامات التصغير في العربية فهي علامة ضعف، ونرى الياء – صوتيًا – ضعيفة أيضًا بالاستفال والرخاوة، والحروف المستفلة ضد المستعلية، وما أدق قول ابن الجزري في النشر 1 / 202 حين قال: وأسفل (الحروف) المستفلة الياء. وكذلك المرائي يحس بحقارة نفسه، وصغر شأنه في كل أموره، كما أن كلمة (الرياء) تشتمل على حرف الياء، فهي بها أولى.

وفي الجانب الصوتي نجد الواو والياء تعتبران صوتيًا حركتين متقابلتين (متنافرتين)، إذ الواو حركة خلفية، والياء أمامية، ومثل هذا التنافر تجده في الجانب الصوفي، لاحظ الواو للإعجاب، والإعجاب يتصل (بالأحوال)، والياء للمرائي، والرياء يتصل (بالأعمال). والواو يميل إلى البدوي، لأنها مظهر من مظاهر الخشونة البدوية، والبدوي ميله إلى الكبر والإعجاب أشد، أما الياء فتميل إليها المجتمعات المتحضرة، (في اللهجات العربية 83 ط 2 دكتور إبراهيم أنيس)، وانظر: (اللهجات العربية في التراث 313 دكتور أحمد علم الدين الجندي. الهيئة المصرية العامة للكتاب). وفي البيئات المتحضرة يكثر الرياء والتصنع [6].

هذا، ولما كان المعجب يعجب بنفسه ويتعامل معها، والمرائي يرائي الناس، وهم أكثر عددًا وأوسع شمولًا، ناسبه صوت الياء. يؤكد هذا ما يقرره علماء النحو من أن « باب الياء أوسع من باب الواو » (همع الهوامع 471).

ونعرض أمامك نصًا صوتيًا لعالم من علماء الأصوات والعربية يقوي ما نذهب إليه هنا، وما ذهبنا إليه من قبل من:

* أن قوة الواو والضمة (صوتيًا)، لتناسب قوتها قوة المعجب في تكبره وغروره، وثقله وصلفه (صوفيًا).

* وأن انحطاط الياء والكسرة عن الواو والضمة (صوتيًا)، لتناسب الياء حقارة المرائي وهوانه في مجتمعه، وصغر نفسه (صوفيًا).

---

(6) وما أكثر ما تعانيه مجتمعاتنا المتحضرة المعاصرة من هذا الداء الوبيل.



* وأن الألف والفتة كانت أعذب أخواتها وألينها وأخفاها (صوتيًا) وهي في ذلك أقرب إلى صفة المساكنة وما فيها من: ضعف ولين، وخضوع وذل في الجانب (الصوفي)، وإليك النص:

قال أبو الفتح ابن جني: غلا في (قوله): غلوًا، وغلا (السعر): يغلو غلاء. فصلوا بينهما في المصدر وإن اتفقا في الماضي ... فلما اتفق اللفظان والمثلان في الماضي والمضارع خالفوا بين مصدريهما ليكون ذلك الخلاف بين مثاليهما أنفسهما فقالوا: غلوًا وغلاء (المحتسب 2 / 139 ط المجلس الأعلى).

نعم، وخصوا (غلا) في (القول) بالغلو، لأن لفظ (فعول) أقوى من لفظ (فعال)، للواوين والضمتين (وضعف الألف) والفتحتين، وذلك أن الغلو في (القول) أعلى وأعنى عندهم من غلاء السعر، ألا ترى إلى قول الله تعالى: « تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًا أن دعوا للرحمن ولدًا » وقال تعالى: « يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم » وأما غلاء السعر فلا يدخل النار ولا يحرم الجنة.

ثم أنهم قالوا: غلت القدر تغلي غليانًا – فلما (صغر) هذا المعنى في أنفسهم أخذوه من الياء، لأنها تنحط عن الواو والضمة إلى الياء والكسرة، (أي في المضارع: تغلي).

فإن قلت: فقد قالوا: علوت في (المكان) أعلو علوًا، وعليت في (الشرف) علاء، فجعلوا الشرف دون ارتفاع النصبة. قيل: لم يجف الشرف عندهم، ولا تبشع تبشّع الكفر والغلو في القول المعاقب عليه، والمنهي عنه، فلان جانبه، ونعم وعذب في أنفسهم، فبنوه على (فعل) لتنقلب الواو ياء، ومصدره على (الفعال)، لعذوبته بالفتحتين والألف.

وهذه أماكن إن رفقت بها، وسانيتها، وتأنيتها، ولم تبء عليها (لم تتفاخر ولم تتسام) وتختبطها – أولتك جانبها، وأركبتك ذروتها، وقبلتك لها

ضيقًا، وبسطتك يدًا وسيفًا. وإن أخلدت بها إلى ضد هذا أخلدت بك إلى ضده، فتلافيًا ورفقًا، لا مغالاة ولا خرقًا (المحتسب 2 / 140 ط المجلس الأعلى).

* تلك هي المذكرة التفسيرية التي توضح إشارة القشيري في النص الأول في المعتل من الأفعال حيث قال « وبعض صنوف العلة ألطف من بعض، وبعضها أجلى من بعض » والصحيح من أفعال العباد: ما سلم من صنوف العلة، وهي الرياء والإعجاب والمساكنة، وإذا كانت عقبات الطريق وقوادحه بعضها ألطف وبعضها أخفى، فقد كشفنا عن حروف (العلة) ما كان منها ألطف وأخفى، وما كان منها أظهر وأجلى.

– 3 -

* أما النص الثاني فقد كفانا القشيرية مؤونة الكشف عن إشاراته حيث قرن كل حرف من حروف العلة، بآفته في المعتل من الأسماء فقرن الألف (بالإلباس)، والواو (بالوسواس) والياء (بالياس).

ولنذهب إلى المعاجم فنراها تقول:

1 – لبس عليه الأمر: اختلط، وفي أمره لبس ولبسة: إذا لم يكن واضحًا.

والتبس عليه الأمر: اختلط واشتبه، واللبس: الشك. واللبس: الشبهة، وأمرٌ ملبس: مشتبه.

وفي القرآن الكريم « ولا تلبسوا الحق بالباطل » (42 البقرة).

لا تخلطوا الحق بالباطل لتخفوه، أو لا تستروا الحق بالباطل لتجعلوه معمي مشكوكًا فيه.

فالمعنى اللغوي دائر بين التخليط، والتعمية، والشك والحيرة والتدليس والشبه. فإذا اتجهت إلى الجانب الصوفي الإسلامي وجدت أن العبد عليه أن يترك أبوابًا من الحلال خوفًا من الوقوع في الحرام. وهذا معنى قوله

الرسول > : **« لا يكون العبد من المتقين حتى يدع ما لا بأس به، حذرًا لما به بأس »**، (المسائل في أعمال القلوب والجوارح 201).

وإذا كان اللبس هو الشبهة، فأنت منهي عنها ليطيب مطعمك ومشربك وملبسك ولا تكن كالذي يرتع حول الحمى فيوشك أن يقع فيه وفي الحديث: « من ترك الشبهات استبرأ لذمته ودينه وعرضه، ومن واقع الشبهات، فكأنما واقع الحرام » (المسائل في أعمال القلوب 201). وكان مطرف بن الشخير يقول: « صلاح العمل بصلاح القلب، وصلاح القلب بصلاح النية، ومن صفا صفي له، ومن خلط خُلط عليه» (علم القلوب 181).

وتستطيع أن تربط صوتيًا بين الألف وهي أخفى حروف العلة، وأضعفها، وألينها – وبين التلبيس بمعنى الخفاء والشك والتعمية، كما أن ألف المد يصيبها التخليط والتلبيس وعدم الوضوح والاشتباه حين تكون (مشوبة) [7] بالكسرة في الإمالة، والإمالة أشكال وأنواع ودرجات، كما تكون ألف المد واللين (مختلطة) (7) بالضمة وهي المسماة بألف التفهيم، وقد تكون الألف بين التفخيم والترقيق، والفاصل بين هذه الدرجات في الجانب الصوتي دقيق جدًا، كذلك الحرام والحلال بينها مشبهات والصوفي يترك هذه الشبهات والآفات.

2 – أما الوسواس: فترى المعاجم أن:

أ – الوسوسة: حديث النفس وهو ما يخطر بالبال ويهمس بالضمير، ويقال لصوت الحلي: وسواس.

ب – الوسوسة: الخطرة الرديئة.

ج – الوسواس: الشيطان الذي يوسوس لغيره.

فالمعنى اللغوي دائر بين: الكلام الخفيّ، وحديث النفس، والشيطان. فإذا اتجهت إلى الجانب الصوفي وحدث أن الخاطر – وهو خطاب يرد على

---

(7) يلاحظ أننا نأتي بالمصطلحات الصوتية نفسها وننظر لها بالمصطلحات الصوفية عند القشيري.

الضمائر – إذا كان من الملك فهو الإلهام، وإذا كان من قبل النفس فهو الهاجس، وإن كان من قبل الشيطان فهو: الوسواس، وما كان من قبل الشيطان فهو يدعو إلى المعاصي، وما كان من قبل النفس فأكثره يدعو إلى إتباع شهوة، أو استشعار كبر « والشيطان طالت مقارنته للإنسان وتفقده له ولأحواله، حتى لم تخف عليه حاله، فعرف مطالبه ومذاهبه » (المسائل في أعمال القلوب 81). وهو مجبول على عداوتك، ومنتصب أبدًا لمحاربتك يرميك بسامه، وله مع العباد عداوة عامة ومعك أيها المجتهد في العبادة عداوة خاصة،، ومعه عليك أعوان أشدها عليك: نفسك وهواك وله أسباب ومداخل، وهو يراك وأنت لا تراه (منهاج العابدين 32) وهو يأتيك من جميع جوانبك.

والطريق لدفعه بالمجاهدة والمخالفة والاستغراق في الذكر، وفي الحديث عن أنس: **« إن الشيطان واضع خرطومه على قلب ابن آدم، فإن هو ذكر الله خنس، وإن نسي الله التقم قلبه »**. (منهاج العابدين 36)، ومن ختله وعداوته ووقوفه لك بالمرصاد، أنه عادى أبويك فأذاقهما المرارة بعد اللذة، وغرهما بفجوره، ونزع عنهما لباسهما، ولم يرجع إلى اليوم عن غيه « إن الشيطان لكم عدوّ فاتخذوه عدوًا ».

وتستطيع بعد هذا أن تربط صوتيًا بين الواو – وهي أثقل وأقوى من نطق الياء والألف – وبين الشيطان عدوك اللعين الجاثم على قلبك، يأتيك من وجه الإفساد إغواءً وضلالًا، ومن وجه الخير والصلاح مكرًا وخداعًا، كما أنها تحتاج إلى جهد عضلي أكثر، والشيطان يحتاج إلى جهد ومجاهدة، ثم لاحظ أن الواو خلفية في مستوى الحلق، ومستديرة في مستوى الشفتين، والإشارة من ذلك أن الشيطان قوي يحاول أن يوقعك في قبضته. لأنه يأتيك من جوانب متعددة من الخلف (في مستوى الحلق) [8]

(8) يلاحظ أننا نأتي بالمصطلحات الصوتية نفسها وننظر لها بالمصطلحات الصوفية عند القشيري.

والأمام (في مستوى الشفتين) (8) وقد استعاذ العباد برب الناس « من شر الوسواس، الخناس الذي يوسوس في صدور الناس ».

3 – أما: اليأس.

فهو ضيق باب الأمل والرجاء: وفتح باب القنوط والشقاء ولعلك تستطيع أن تلمح ما بين المعنى الصوفي والصوتي من رباط يظهر في (ضيق) (8) مخرج الياء، كما يظهر في الجانب الصوفي من (ضيق) باب الأمل والرجاء، زد على ذلك أن التصغير في العربية يكون بزيادة الياء، والتصغير علامة ضعف، وفي الفصيلة الهندية – الأوروبية على العموم تجد الكسرة (التي هي بنت الياء) تعبر عن صغر الحجم، والرقة، وقصر الوقت (من أسرار اللغة 148) دكتور إبراهيم أنس ط 4) وتلك الملامح السابقة من تصغير، ورقة، وصغر حجم تشير إلى الضعف، وهي من هذا الجانب أشبه بمن أصابه اليأس والقنوط، فتراه ضعيفًا غاية الضعف، ألم تغلق نفسه أمامه النوافذ؟ وتسد حوله الفرج، وسبل الرجاء والأمل؟ وكذلك الياء ضعيفة بالاستفال والرخاوة، والاستفال ضد الاستعلاء، ويقول ابن الجزري (في النشر 1 / 202): « وأسفل المستفلة الياء ». ولهذا حذر القشيري من هذه الآفات، ودعا إلى كبح جماح النفس بلجام التقوى، وسوقها على خلاف الهوى، وشن عليها حربًا لا هوادة فيها، يصارعها في معركة ضارية لا تهدأ ولا تلين، وكان القشيري خبيرًا بآفاتها، مدرك لخلجاتها، حكيمًا بأدوائها، ولهذا ردد اسم هذه الآفات السابقة وهي: المساكنة والملاحظة، والإعجاب، والرياء والوسوسة ... كثيرًا محذرًا منها ومنذرًا. ولهذا قمت بإحصائية في (رسالته) المشهورة لهذه الآفات والأمراض النفسية فأشارت (لغة الإحصاء) إلى شيوع تلك الآفات وانتشارها:

نوع المرض	عدد وروده	نوع المرض	عدد وروده
المساكنة ومشتقاتها	24	الرياء ومشتقاته	11
الوسواس ومشتقاته	11	الملاحظة ومشتقاتها	7
اليأس ومشتقاته	6	الإعجاب ومشتقاته	4

وهذا إن دل فإنما يدل على أن (النفس) محل الأوصاف المذمومة، أليست هي التي تنهمك في الشهوات، وتمتنع عن الطاعات؟ وتعتاد الشهوة واللذات! وصدق رسول > حين قال في دعائه « ... لا تكلني إلى نفسي طرفة عين » ولهذا كان أول قدم في القصد إلى الله الخروج عن النفس، وكسر شوكتها بالتبري عن حولها، وانسلاخها عن اختيارها.

وإذا كانت الآفات السابقة قد انتشرت وذاعت في رسالة القشيري كما رأيت في الإحصاء، فتلك إشارة منه إلى شيوعها وذيوعها في المجتمعات وبين الناس كذلك، لأنها آفات وأمراض، ومن خصائص هذه الآفات وتلك الأمراض: الانتشار والذيوع، والعدوى، والشيوع. إذا وضح هذا عرفت سر انتشار قرنائها ومثيلاتها كذلك، وهي: أصوات المد واللين: الألف والواو والياء في الجانب الصوتي.

فقد جاء في كتاب « بصائر ذوي التمييز [9] في لطائف الكتاب العزيز » ج 1 ص 563 فما بعدها: أن القرآن الكريم قد اشتمل على:

48800 ألفًا

26565 واوًا

23909 ياء

(9) تأليف مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي بتحقيق الأستاذ محمد النجار. القاهرة 1964 م.

وبمقارنتها بالأصوات الصامتة في القرآن تعرف مدى كثرة: الألف والواو والياء وشيوعها في نسيج القرآن وسداه:

فالشينات 2253

والصادات 1081

والطاءات 2274

والظاءات 8499

ولم يقارب (الألف والواو والياء) في الإحصاءات إلا:

اللامات	33522
الميمات	26135
النونات	26525

والسر في هذا التقارب أن اللام والميم والنون تعد من الناحية الصوتية شبيهة بأصوات المد واللين، ونلخص من هذا بأن شيوع الألف والواو والياء في النسيج العربي معناه شيوع مدلولاتها وهي: الإلباس، والوسواس، واليأس، والمساكنة، والملاحظة، والإعجاب، والرياء.

ويمكن أن نعلل لانتشار المساكنة وكثرتها في رسالة القشيري حيث وردت 24 مرة، وهو عدد لم ينله مرض آخر بأن السر في ذلك: أن المساكنة من أكثر الآفات شيوعًا في الطريق الصوفي، فمن منا يتجرد منها، ومن منا يسلم من مساكنة ماله، أو ولده أو صاحبه؟

وبهذا أمكننا في ضوء تلك الإحصاءات بين الجانبين أن نؤكده الرباط الصوتي الصوفي ونقويه، ونزيده توثيقًا وبيانًا، وإحكامًا ونظامًا.

وليس بدعًا ما عرضناه في تلك المحاولة وأثبتناه، فقد نجد في تراثنا العربي اللغوي نتفًا تقوي ما نذهب إليه، ففي سيبويه (2 / 218) يرى في

المصادر التي جاءت على الفعلان أنها تأتي للاضطراب والحركة نحو: الغليان والغثيان، فقابلوا بتوالي حركات المثال (يقصد البناء) توالي حركات الأفعال، كما يري ابن جني في الخصائص (2 / 152 فما بعدها): أن قوي اللفظ ينبغي أن يقابل به قوة الفعل، وضرب أمثلة لمساوقة الصيغة للمعاني، فمن ذلك:

(أ) خضم وقضم: فالخضم لأكل الرطب، والقضم للصلب اليابس، وفي النهاية لابن الأثير (باب القاف مع الضاد) حديث أبي ذر }: تأكلون خضمًا ونأكل قضمًا. فاختاروا الخاء لرخاوتها للرطب، والقاف لصلابتها لليابس، حذوا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث.

(ب) والنضح – بالحاء غير معجمة – ما كان رشًا خفيفًا. والنضخ – بالخاء – ما كثر حتى يبل. فجعلوا الحاء لرقتها للماء الضعيف، والخاء لغلظها لما هو أقوى منه.

(ج) وكل أن تنقل الفعل إلى باب (نصر ينصر) للمفاخرة والمبالغة، وذلك مطرد عند رجال التصريف، كما تنقل الفعل إلى باب (علم يعلم) إذا أردت الدلالة على التغير خلوًا وامتلاء وجودًا أو عدمًا، وتنقل الفعل إلى باب (كرم يكرم) إذا أردت الدلالة على الأوصاف الخلقية، والطبائع والغرائز إذا كان لها رسوخ ومكث، ويعلل الضم فيها، لانضمام الطبيعة إلى الذات عند صدور هذه الأفعال منها، كانضمام الشفتين عند خروج الضم منها (اللسان العربي مجلد 10 ج 1 ص 69) فإذا قلت: لؤم: دلت على الكثرة والدوام والثبات وهي تمثل أعلى درجة من هذه الصفة، وتنقل الفعل إلى باب (فعل يفعل) بكسر العين فيهما إذا أردت الدلالة على التقسيم والتجزئة مثل: ورث يرث.

(د) ينفر – بالضم من النفار والاشمئزاز، وينفر – بالكسر من نفر الحجاج من عرفات (المزهر 1 / 208).

والإنسان في عالمه إما مؤثر وإما متؤثر، أو إما أن يقوم بالحركة بنفسه وإما تحصل له من غيره ممن يعيش معه أو من عناصر الطبيعة من: رعد ومطر ونار ... (والعربي لما رأى في عالمه أبعادًا ثلاثة بنى لغته على ثلاث حركات أيضًا:

1 – الفتح: وهو ما صدر عن إرادتك مثل: ضرب خرج قطع أكل ...

2 – الكسر: وهو ما صدر عن العالم الخارجي مثل: مرض حزن عطش سقم، فالفعل مكسور العين وقد دل على كل ما يحصل للفاعل بدون إرادة منه.

3 – الضم: وهو يشير إلى التجمع والكثرة والثبات مثل: حسن كبر ... وهو يشير إلى حصول الشيء للفاعل بكثرة ودوام (اللسان العربي).

إذن الحركات قصيرها وممطولها لا يرجع عامل الاستحسان والاستخشان، أو الثقل والخفة فيها أو اختلاف الدلالة عليها إلى عوامل ظاهرية فحسب وإنما ترتبط بعوامل أخفى وأدق: صوتية عضلية فيزيائية كيميائية نفسانية، وهي التي تجعل الصيغة تؤثر حركة على أخرى. وكلما ازدادت الحركة شبهًا بالمعنى كانت أدل عليه، وأشهد بالغرب منه.

ومن هنا كانت قفزتنا ولفتتنا جين جعلنا رحمًا وثيقة بين عالم الأصوات في حركات المد واللين وبين عالم الأرواح والأسرار، حيث كنا نتعامل مع حركات المد: الواو والألف والياء ملاحظين أنغامها وأجراسها ورنينها وتفاعلاتها على اعتبار أنها تمثل خلية تنمو وتتطور، وترسل وتتقبل وتنبسط وتتحجر. كما ظهر أن تلك الحركات عندما تختلف على الصيغة فإنها تؤلف نمطًا منسجمًا يتواكب مع المعاني. وهذه المساوقة بين الحركات ومعانيها تعد نمطًا فريدًا لسياسة الحروف والحركات في العربية، وهي في ذلك لا مثيل لها في اللغات، حيث تمتاز بحساسية وطواعية للتعبير عما يدور في النفس من خلجات وأفكار.

– 4 -

ويتجلى لك من نص القشيري السابق: « من سلم اسمه من ألف الإلباس وواو الوسواس، وياء اليأس – فقد صح اسمه، وحق له الإعراب وهو البيان ».

1 – أنه جسم هذه الآفات، وأبرزها عن طريق النغم في موازاة فقراتها وتساويها، وإلزامها حرفًا موسيقيًا واحدًا، وهو السين، وهو صوت رخو مهموس، فكأن القشيري (يهمس) في أذنك ليحرك خلجات نفسك، وخطرات قلبك، ودقائق مشاعرك، ورقائق أحاسيسك، فتقطع العوائق، وتمحو العلائق، وتتخلى عن الآفات والمفاسد، وتتحلى بالفضائل والمحامد، وتنفذ الأوامر الإلهية في دقة وورع، فيتم لك اكتشاف أبعاد نفسك، وتنطلق من مرحلة إلى أخرى حيث انتظار الفيض، والتطلع إلى الرضى، ويكون ظاهرك مع الخلق، وباطنك مع الحق.

2 – أن القشيري استغل أصوات اللين والمد وما سما، (حروف العلة) فحملها معاني نفسية، وجوانب أخلاقية دقيقة، وكلها غير مرغوب فيها ؛ لأنها معلولة منحرفة كحروف العلة.

وإنما آثر حروف (العلة) في نصيه أول الملحق ؛ لأنها (عرض) أما الأصوات الساكنة فهي (الجوهر) والأصل، وحروف العلة إذن أقرب إلى العلل والآفات والأمراض: كالإعجاب والرياء، والمساكنة والملاحظة، والإلباس والوسواس واليأس، ولذا كان النحاة يصفون هذه الأصوات – نظرًا لما كان يتوارد عليها من: الحذف والقلب والإعلال، والإدغام والإبدال – بالاعتلال.

3 – أن هذه الأصوات اللينة الممدودة المعلولة – يرتبط بعضها ببعض فهي متدرجة متداخلة صوتيًا ؛ لأن ثلاثتها يرتكز على الشفتين، ضمًا وانفراجًا، وعلى اللسان صعودًا وهبوطًا، وكذلك نلمح هذا التدرج والتداخل في الآفات والأمراض النفسية، والخلقية التي تحدثنا عنها آنفًا. من ذلك:

بثر (بالفتح) وجهه: أخرج بثورًا. وبثر (بالكسر) وجهه: حصلت له بثور. وبثر (بالضم) وجهه. أصبح ذا بثور. فهناك تدرج واضح في المعاني بين الصيغة الواحدة حين تقاصفت عليها الحركات والتي هي أبعاض من حروف المد.

ولهذا لم يستعمل القشيري الأصوات الصامتة ؛ لأن كل حرف صامت لا صلة له بصاحبه، فالفاء غير القاف، والحاء غير الخاء ...

4 – وأهم خاصية لحروف المد واللين (المعلولة) الجهر وقوة الوضوح السمعي إذا قيست بالأصوات الصامتة، ولما كانت أوضح في السمع كان الانحراف في نطقها نابًا في الأسماع، وكذلك تلك الآفات والأمراض فهي نابية مرفوضة، حيث إن أصحابها لم يكبحوا جماح نفوسهم، ولم يحاربوا أهواءهم وأطماعهم، واستداموا المنى والمطالبات ورتعوا في مرابض الشهوات.

5 – أن زيادة حروف المد واللين: الألف والواو والياء (العلة) في الصيغة تخرجها عن أصولها ؛ ولهذا عدّوا الصيغ الآتية من ضروريات الشعر، لأنها خرجت عن الأصل، وأقبح الضرائر عندهم، الزيادة المؤدية إلى ما ليس أصلًا في كلامهم:

أ – كقول الفرزدق:

تنفي يداها الحصي في كل هاجرة * نفي الدراهيم تنقاد الصياريف

والأصل: الدراهم والصيارف (كتاب سيبويه: 1 / 10، ديوان الفرزدق 2 / 570، شرح البرقوقي. القاهرة، شرح أبيات سيبويه 9 للنحاس، حلب 1974 م).

ب – وقول ابن هرمة في رثاء ولده:

فأنت من الغوائل حين تُرمَي * ومن ذم الرجال بمنتزاح

والأصل: بمنتزح.

ج – وقول عنترة:

ينباع من ذفري غضوب جسرة * زيافة مثل الفنيق المكدم

والأصل: ينبع. (22 ديوان عنترة: التجارية، القاهرة، الخصائص 3 / 121).

وكما مطلت الكسرة والفتحة، وجدناهم يمدون الضمة حتى تصبح واوًا، فمن مطلها وزيادتها في الاسم:

أ – وليلة خامدة خمودًا * طخياء تغشي الجدى والفرقودا

والأصل: الفرقد. (الصاحبي 193، السلفية، القاهرة).

ومن مطلها في الفعل:

ب – وإنني حوثما يثني الهوى * من حيث ما سلكوا أدنوا فأنظور بصرى

والأصل: أنظر. (خزانة الأدب 1 / 58، 3 / 477 و 540 بولاق، الهمع 2 / 156).

ج – (لو أن عمرًا هم أن يرقودا).

والأصل: يرقد (الصاحبي 193).

فهذه الأسماء والأفعال لما زيدت عليها حروف المد واللين (العلة) أخرجتها عن أصلها وألحقتها بالضرائر، وليست الآفات والأمراض النفسية والخلقية التي ذكرها القشيري من: الإعجاب، والرياء والمساكنة، والملاحظة، والوسواس، والإلباس، والياس، إلا عللًا وزيادات وعوارض وقوادح طارئة، تخرج العبد عن أصله ؛ لأن الأصل أن يكون العبد متخلصًا منها في الطريق الصوفي، فإذا لحقته خرج عن أصل العبودية الصحيحة، وكذلك عندما لحقت حروف العلة تلك الصيغ أخرجتها عن أصلها، وانحرفت بها عن طريق العربية السديدة. وقد كان المعري كذلك يمقت الفضول والتزيد – في الحروف والأناسي جميعًا – ويدعو الله أن يجنبه

ذلك فلا يجعله كالحروف الزائدة ؛ لأنها – فيما يرى – فضولية غير أصلية. « فأما واو عمرو – فأعوذ بك – رب الأشياء – إنما هي صورة لا جرس (لا صوت) لها ولا غناء – مشبهها لا يحسب من النسمات » (رسالة الهناء. أبو العلاء المعري. آخرها هامش).

6 – والقشيري جرى في تقسيم حروف المد واللين مجرى النحاة مع خلاف يسير، فهو يذكر: ألف الإلباس، وواو الوسواس، وياء الياس، فيضيف الألف والواو والياء إلى الآفات التي تعترض طريق العبد في الطريق الصوفي، لكن النحاة تضيفها إلى جزئيات النحو ومسائله، وقضاياه، وأبوابه وفصوله. فيقولون:

- ألف الأصل، ألف الوصل، ألف القطع، ألف الترنم، ألف الإشباع، ألف التعجب، ألف التعريف، ألف التسوية، ألف العوض، ألف التفخيم، ألف التقرير، ألف الإيجاب، ألف التخيير. (بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز 2 / 6 ط المجلس الأعلى. القاهرة 1964 م). وانظر: (كتاب معاني الحروف ص 143 لأبي الحسن الرماني بتحقيق الدكتور عبد الفتاح شلبي. ط نهضة مصر).

كما يقولون:

- واو الحال، واو الاستئناف، واو القسم، واو النسق. كتاب الأزهية في علم الحروف. 240، تأليف أبي الحسن علي بن عيسى الرماني بتحقيق عبد المعين الملوحي، دمشق 1971 م). وانظر: (بصائر ذوي التمييز 5 / 145، تحقيق الأستاذ الطحاوي 1970 م القاهرة).

كما يقولون أيضًا:

- ياء الوقف، ياء التصغير، ياء النداء.

فتقسيم القشيري أشبه بتقسيم النحاة إلا أن القشيري يوضح بهذه

الحروف جوانب سلوكية، ويكشف بها آفاقًا مرضية، والنحاة يقصدون منها جوانب: نحوية، لسانية، أسلوبية.

وأخيرًا: فقد رأيت أن القشيري حمل أصوات المد واللين (العلة) دلالات ومعاني دقيقة، فاستشف من الحروف رموزًا هي أقرب إلى وحي الأصوات، واستوحى منها دقائق المعاني ورقائقها، على أن الخلاف قد دب بين القدماء من علماء اليونان والعربية في الصلة بين الألفاظ ومدلولاتها، وفي مناسبة الحروف لصوت الأحداث [10]، كما انعكست آراء هؤلاء على المحدثين من علماء الشرق والغرب، فمنهم من عارض هذا الربط، ومنهم من أيده، وأرى أن الألفاظ بمرور الزمن تكتسب قدرًا أكبر من الرمزية، وهم لهذا يعتزون بها، وينقبون عما تتضمنه من أسرار، وينسبون لها فوق ما لها في الحقيقة والواقع (انظر دلالة الألفاظ: الفصل الثالث والرابع. دكتور أنيس ط 3)، ولقد كان القشيري بارعًا حيث مدته قدرته بظلال من الدلالات استوحاها من تجربته العلمية، وحياته الباطنية، ورحلاته النفسية، فقد استشف من أصوات الواو والياء والألف دلالات لا تراها إلا نفسه، وظلالًا وألوانًا لا تفسرها غير ريشته. وهو بذلك أشبه بالفنان الذي يرى في الصورة ما لا يراه غيره، أو الشاعر الذي يرى أن الحركة في قصيدته ذات ألوان.

أما حديث (ابن جني) اللغوي عن الواو والياء والألف فهو حديث العالم الذي لا يهمه فيها إلا الجانب العلمي الصوتي.

وقد يهم بعض العلماء من الحروف جوانب أخرى فمثلًا: ابن مسرة ت 319 هـ. يربط بين حروف (الألف والواو والياء) التي هي حروف العلة وبين

---

(10) انظر الخصائص لابن جني 2 / 152 – 168، 1/ 64 – 66 « باب في امساس الألفاظ أشباه المعاني » والخصائص 3 / 264 – 269 « باب في قوة اللفظ لقوة المعنى » والخصائص 2 / 145 – 152. « باب في تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني ».

النفس في مراتبها الثلاث: النفس الناطقة، والنفس الحيوانية، والنفس النباتية، واستغلال الشكل الكتابي لهذه الحروف في تأييد هذه الفكرة » الألف قائمة هكذا (أ) والياء ساجدة هكذا (ي) والواو منحنية هكذا (و).

ويضيف ابن مسرة إلى ذلك قوله: « وكذلك نجد هذه القوى النفسانية الثلاثة في الخلق، وذلك أن الحيوان الذي له نفس ناطقة منتصف القامة، مثل الألف، وما له نفس حيوانية فقط فهو راكع منحن مثل الواو، وما له نفس نباتية فهو ساجد في هيئته ؛ لأن رأسه مما يلي الأرض فقط كالنبات كله (من مؤلفات ابن مسرة المفقودة – ص 54 فصلة من مجلة كلية التربية جامعة طرابلس. للدكتور كمال جعفر).

أما المعري فله مداعبات وملاعبات مع الألفاظ والحروف [11]، يصورها ويسبح فيها خياله ويتمثل حياتها، وقد يجري حوارًا بين أصواتها وحروفها، فيشبه نفسه أو غيره بها ومن ذلك قوله:

والناس – بين حياتهم ومماتهم - * مثل الحروف: محرك ومسكن

ويتفجع لفقد بصره، ويقابل بين نفسه وبين (معتل العين) فيقول:

أعللت علة (قال) وهي قديمة * أعيا الأطبة كلهم إبراؤها

كما يرجو المعري ربه ألا يكون معتلًا كـ « واو يقوم » ولا مبدلًا كـ « واو موقن » تبدل من الياء. بل يذهب المعري إلى أكثر من ذلك، فهو يرى أن الحروف تستشعر خوف الله تعالى. (آخر رسالة الهناء (هامش) لأبي العلاء المعري بشرح كامل كيلاني. بيروت). والصوفية وإن اتفقوا على ضرورة دراسة الحروف إلا أنهم يختلفون هدفًا وغاية، ويتشعبون في مذاهبها طرائق قددًا.

---

(11) من هذه المداعبات مثلًا قول بعضهم: رحم الله عبدًا راح يبحث عن النقط ليضعها فوق الحروف، فلما وجد النقط وعاد بها لم يجد الحروف !.

وقد وقفت على أن غاية القشيري منها تتمثل في تصحيح السلوك الإنساني، وربطها بمذهبه في التخلق، فكانت بمثابة علامات ونذر في الطريق الصوفي، فمن سلم اسمه من ألف الإلباس، وواو الوسواس، وياء اليأس. فقد صح اسمه، لعدم تأثير الأطماع والشهوات فيه، وتخلصه من الشواغل والعوائق، ونبذه الآفات والمفاسد.

ولما كانت حروف المد واللين: الواو والياء والألف لها قيمة مهمة في الجانب الصوفي فقد آثرت تسميتها « صوفية الحركات » أو « أخلاقية الحركات » وهي كذلك لا تقل خطرًا عنها في الجوانب: الصوتية، والصرفية، والنحوية.

فمن وظائفها في الجانب الصوتي: الجهر وقوة السمع، ومكانتها في العروض العربي حيث سجلت في موازين الشعر (اللغة العربية: معناها ومبناها ص 71 دكتور تمام حسان. الهيئة المصرية. القاهرة).

وفي الجانب الصرفي: نراها مناطًا لتقليب صيغ الاشتقاق، وهي تمثل عنصرًا أساسيًا في تأليف الصيغ المتفرعة، فالصور الصرفية المأخوذة من (قتل) ما كان لها أن توجد بدون حروف المد واللين (العلة): قاتل قتيل، قتول، مقتول، قتال ...

وأنها تمثل عنصرًا مهمًا في كل من: النبر في الجانب الصرفي، والتنغيم في الجانب النحوي، رد على ذلك أنها تكون قمم المقاطع العربية.

وفي النهاية تشكل علامة إعراب فرعية في أبواب: المثني، وجمع المذكر، وما ألحق بهما، والأسماء الستة.

(3)

بين المباني والمعاني في النحو

« من وقف مع حس المباني كان محجوبًا عن الله »

« ومن وقف مع حس المعاني كان عارفًا بالله »

- 1 -

كان الإعراب ولا يزال أصلًا من أصول النحو، إلا أن الإعراب طغى عليه حتى انصرف النحو عن أصوله الأخرى إلى هذا الإعراب يفلسفه ويعلله. وعرفوا الإعراب بأنه: تغيير أواخر الكلم لاختلاف العوامل الداخلة عليها لفظًا أو تقديرًا، فالإعراب يتكون من عنصرين:

أولهما: العامل وهو المؤثر.

وثانيهما: الأثر.

وقد اختلف علماء العربية أمام حركات الإعراب، وهل هي دالة على المعاني أم لا؟

وأول من أشار إلى ذلك الخليل بن أحمد حين قال: إن الفتحة والكسرة والضمة زوائد وهن يلحقن الحرف ليتوصل إلى التكلم به، والبناء هو الساكن لا زيادة فيه [12]، وقد اشتد الجدل بين تلاميذ الخليل، فمن قائل: بأنها دالة على المعاني من فاعلية ومفعولية وإضافية [13]، ومن قائل [14] بأن حركات الإعراب ليست لها بالمعنى علاقة مفهومة، فلا مدلول لها ولا معنى. وصاحب هذا الرأي: قطرب، أبو علي محمد بن المستنير ت 206 هـ.

---

(12) كتاب سيبويه 2 / 315.
(13) الإيضاح للزجاجي 69، تحقيق: مازن المبارك، دار العروبة، لع الأدلة، لابن الأنباري 109، تحقيق: سعيد الأفغاني، دار الفكر، الأشباه والنظائر: للسيوطي 1 / 76 فما بعدها. حيدر آباد.
(14) الإيضاح للزجاجي 70، الأشباه والنظائر 1 / 79.

وهو تلميذ سيبويه، ويختصر أبو البقاء العكبري ت 616 هـ. رأى قطرب فيقول: لم يدخل الإعراب لعلة، وإنما دخل تخفيفًا على اللسان [15].

ويذهب أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس في كتابه [16] إلى أن تحريك أواخر الكلمات كان صفة من صفات الوصل في الكلام شعرًا ونثرًا، ويستند في ذلك إلى قواعد العربية في الوقف، فالحركات لا تعدو أن تكون في كثير من الأحيان لوصل الكلمات بعضها ببعض.

أما جمهور النحاة فقد أسرفوا على أنفسهم حين أغرقوا ظاهرة الإعراب في متاهات المنطق والفلسفة، فالحركات آثار، وكل أثر لا بد له من مؤثر، وليس هذا المؤثر غير (العامل)، وجعلوا للعامل أقسامًا وقواعد.

وكثيرًا ما ينسى النحاة (المعنى) بالحرص على نظرية العامل [17] حتى جعلوا الإعراب حكمًا لفظيًا خالصًا يتبع لفظ العامل وأثره [18]. وأصبحت كل نظرة في أبواب النحو ومسائله وقضاياه لا بد أن تطل من نافذة (العامل).

على أننا لا ننكر أن يكون الإعراب جزءًا من النحو. وليس كل النحو، كما أن الإعراب وحده ليس دليل المعاني كما توهم النحاة، وكذلك العلامة الإعرابية لا تعدو أن تكون واحدة من القرائن الدالة على المعنى، فإذا بنينا المعنى النحوي عليها، وبنينا النحو كله على أساسه فقد رجحنها دون مرجح، على أن الحركة الإعرابية قد أهدرت عند أمن اللبس في القرآن الكريم والتراث، وحين أهدرت كانت هناك قرائن أخرى تحافظ على المعنى [19].

---

(15) المسائل الخلافية للعكبري. ورقة 101 خط دار الكتب المصرية رقم 28.
(16) من أسرار اللغة 208 ط 3.
(17) من ذلك: أنهم قدروا (أدعوا أو أنادي) عبد الله، في قول العرب: يا عبد الله، حيث رأوه منصوبًا بفعل مضمر، فهم تعسفوا على تقدير (عامل) ينصبه بناء على أن كل منصوب لا بد له من ناصب، وبذلك انحرف الأسلوب على يد النحاة، حتى صار الداء خبرًا بعد أن كان إنشاء فسار في طريق لا يريده المتكلم، وغاب عنهم أن المتكلم لا يحذف أو يذكر أو يصل أو يفصل إلا إذا كان مرد ذلك إلى حالته النفسية، وهي جزء من الأسلوب: انظر: الرد على النحاة ص 90.
لكن علماء البلاغة كانوا يلاحظون مثل هذه الأساليب وغيرها ومطابقتها للمقام والحالة النفسية للمتكلم.
(18) احياء نحو. إبراهيم مصطفى. في أماكن متفرقة.
(19) القرائن النحوية. بحث فاز بالدرجة الأولى للمكتب الدائم للتعريب. دكتور تمام حسان.

ومن أجل هذا انحرف النحو العربي عن وظيفته، وتنكب منهج النحاة سبيل (المعاني) حتى اتسمت الدراسات النحوية بسمة الاتجاه إلى (المباني). ولم يكن قصدها إلى (المعنى) إلا في المنزلة الثانية من عنايتهم، فلم يهتموا كثيرًا بالمعاني التركيبية، ولم يفطنوا إلى أهمية الظواهر السياقية في تحديد المعنى النحوي، ففصلوا دراسة (المعاني) عن النحو وألحقوها داخل علم من علوم البلاغة يسمى (علم المعاني) فقطوا أوصالها، وأي شيء يبقى للنحو إذا درست قضاياه ومسائله بمعزل عن تلك (المعاني)؟

وإحقاقًا للحق لم يتنبه أحد إلى تناول هذه المعاني في النحو غير رجلين: أولهما ابن جني، وثانيهما عبد القاهر الجرجاني:

أما الأول [20] فيرى: « إن العرب قد تحمل على ألفاظها لمعانيها حتى تفسد الإعراب لصحة المعنى ».



ويقول [21] أيضًا: « فإن أمكنك أن يكون تقدير الإعراب على سمت تفسير المعنى، فهو ما لا غاية وراءه، وإن كان تقدير الإعراب مخالفًا لتفسير المعنى، تركت تفسير المعنى على ما هو عليه، وصححت طريق الإعراب ».

وأما الثاني فقد رسم طريقًا جديدًا للبحث النحوي، حيث تجاوز أواخر الكلام وعلامات الإعراب، وبين أن للكلام (نظمًا) وأن رعاية هذا النظم هي السبيل إلى الإبانة والإفهام، وأنه ليس شيء من هذا النظم إلا وبيانه إلى علم النحو، يقول عبد القاهر موضحًا فكرته في كتابه دلائل الإعجاز [22]: « واعلم أنه ليس (النظم) إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو ... فلست بواجد شيئًا يرجع صوابه إن كان صوابًا وخطؤه إن كان

---

(20) المحتسب 2 / 211 ط المجلس الأعلى. القاهرة.
(21) في كتابه الخصائص 292، ط الهلال.
(22) 61 ط الثانية.

خطأ إلى النظم، ويدخل تحت هذا الاسم إلا وهو (معنى من معاني النحو) قد أصيب به موضعه، ووضع في حقه ... ».

فعبد القاهر لا يهتم بالنحو لذاته ولا لإعرابه، بل لوضعه وترتيبه من تقديم وتأخير وتوكيد وشرط، وفني واستفهام وذكر وحذف، فإذا انتقلت الجملة من الاستفهام النحوي إلى التوبيخ، ومن التوبيخ إلى التعجب، ومن الإنشاء إلى الخبر وبالعكس كان ذلك هو صلب النحو واسمه الحقيقي: علم معاني النحو. فعبد القاهر سنّ سنة في الدراسات النحوية تجاوز بها علامات الإعراب إلى ما وراءها من وضع الكلمة في الجملة، وموضع الجملة مع الجمل، ولكن هذه العلامات المضيئة من مصباح هذين العالمين قد أطفأتها جحافل الظلام بسبب انتصار الجمود الذي خيم على العقول حتى همدت، والأفكار حتى خمدت، كما أن أكثر علماء العربية آنذاك كانوا واقفين من اللغة عند ظاهر لفظها، لا يتجاوزونه ليذوقوا ما ذاق عبد القاهر من حس لغوي مرهف، فارتد النحو سريعًا ليبحث في (المباني) والقوالب التي لا روح فيها ولا حياة، ارتد ليبحث عن أحوال أواخر الكلم إعرابًا وبناء **!!** [23].

وبذلك صار الإعراب وهو دليل المعاني يدرس بمعزل عن تلك (المعاني). ومن ذلك أن بعض مشايخ الإقراء أعرب لتلميذ له بيت المفصل:

لا يبعـــد الله التلبـــب والـــ * غـارات إذ قـال الخمـيس: نعـم

فقال: نعم. حرف جواب. وليس بصحيح لأنه لم يراع المعنى. ونعم: واحد الأنعام، وهو خبر لمحذوف تقديره: هذه نعم.

---

(23) من ذلك أن كثيرًا من المؤلفات النحوية قد صنفت على حسب الآثار الإعرابية، وكان ملاك ترتيب الأبواب النحوية يرجع إلى التشابه في شكل الحركة الإعرابية وإهمال ما سواها من الظواهر المعنوية المهم التي ينبغي أن تلاحظ آثارها في مجال التصنيف، ويكاد الترتيب المتبع في التأليف بين النحاة يلتزم: بالمقدمات النحوية العامة، ثم ذكر الأبواب النحوية مرتبة على حسب حركتها الإعرابية، المرفوعات فالمنصوبات فالمجرورات.
انظر: تقويم الفكر النحوي 141، بتصرف. د / علي أبو المكارم. دار الثقافة. بيروت.



ومن ذلك إعراب (حيث) في قوله تعالى: « الله أعلم حيث يجعل رسالته »، فالمتبادر أن (حيث) ظرف مكان، لأنه المعروف في استعمالاتها، وهو فاسد في المعنى، إذ المعنى أنه تعالى يعلم المكان المستحق للرسالة، لا أن علمه في المكان، فهو مفعول به، لا مفعول فيه، وناصبها (يعلم) محذوفًا مدلولًا عليه بـ (أعلم). لأن أفعل التفضيل لا ينصب المفعول به (مغني اللبيب 2 / 582، 531) تحقيق محيي الدين.

وإذا لم تكن مهمة النحوي دراسة معاني الكلام إلا تبعًا، فقد انحصرت مهمته في بيان العلاقات التي تتصل بالبينة اللغوية، ولهذا يستطيع النحوي إعراب جملة: فعل فاعل فعلا فعيلا في المفعل المفاعل، لأنه يجد فيها كلامًا تامًا من حيث العلاقات البنيوية، وإن كانت لا تحمل معنى، وغاية ما يسعى إليه نحو المعاني هي (المعاني) ذاتها، لا (المباني)، أو الجوهر لا العرض، أو المركز لا الهامش.

وإذا كان علماء النحو قد اشترطوا لصحة الإعراب معرفة المعنى، إلا أنهم لم ينظروا إلى المعاني على أنها غايات في نفسها، بل إنها وسيلة للكشف عن العلاقات البنيوية، وليس الإعراب عندهم إلا الكشف عن تلك العلاقات البنيوية.

ولما كان الإعراب في حقيقته فرع المعنى، كان المعنى هو الذي يوجه الإعراب. من ذلك قوله تعالى: « ولقد آتيناك سبعًا من المثاني » إن كان المراد بالمثاني القرآن.
فـ (من) للتبعيض، وإن كان المراد به الفاتحة فـ (من) لبيان الجنس. (الإتقان في علوم القرآن 1 / 180 مصطفى الحلبي ط 3).

فإذا جعلت الإعراب يوجه المعنى، كما إذا علقت (إلى) بـ (تكتبوه) في قوله تعالى: « ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرًا أو كبيرًا إلى أجله » أفسدت المعنى، لاقتضائه استمرار الكتابة إلى أجل الدين، والصحيح انه متعلق بمحذوف حال أي: مستقرًا في الذمة إلى أجله. (مغني اللبيب 2 / 530 تحقيق محيي الدين).

– 2 -

وفي نحو (المباني) يعد الإنسان لاحنًا إذا خالف قواعد نحو العبارة، لأن نحو العبارة نحو (مبان)، بخلاف الصوفي فإنه لا يعدّ لاحنًا إذا خالف قواعد هذا النحو العباري، لأن نحو الإشارة نحو (معان)، كما أن للصوفي إشاراته التي تعصمه من هذا الخطأ وذلك الزلل، وإن بدا أنه لحن، وقد لحنوا أبا حنيفة – وكان في الفتيا ولطف النظر واحد زمانه، وسأله رجل فقال له: ما تقول في رجل تناول صخرة فضرب بها رأس رجل فقتله. أتقيده به؟ فقال: لا، ولو ضربه بأبا قبيس [24]؛ لأنه كان يتكلم على مستوى نحو (المباني)، لكن لو قالها إنسان في مقام آخر، كما إذا قالها الصوفي في ذروة صفائه لا يعد لاحنًا، لأنه ينطق بها من فوق مناطق عليا، وهيهات أن تصل إليها معيارية النحاة.

والعبد يفهم من (المعاني) على قدر مقامه عند الله، وليست المعاني عملًا عقليًا يرتكز على المهارة والذكاء، وإنما هي فضل إلهي، ولا تتاح إلا لمن أوتي حظًا من صفاء البصيرة. والصوفي لا يشغله ظاهر اللفظ ومبناه، وحسنه ومغناه، بل يمرق منه إلى بواطن المعاني وما وراءها. من ذلك:

أ = أنه قرئ على الشيخ مكين الدين الأسمر } قول القائل:

لو كان لي مسعد بالراح يسعدني * لما انتظرت لشرب الراح إفطارًا

الراح شيء عجيب أنت شاربه * فاشرب ولو حملتك الراح أوزارا

يا من يلوم على صهباء صافيةٍ * كن في الجنا ودعني أسكن النارا

فقال أحد الحاضرين: لا تجوز قراءة هذه الأبيات، فقال الشيخ مكين الدين للقارئ: اقرأ، هذا رجل محجوب. فالشيخ لم يكتف بمعنى (المباني)

---

(24) البيان والتبيين للجاحظ 2 / 212 تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون.

أو بالمنطوق، أو بظاهر النص كما يقول الأصوليون، بل تخطى المعنى الحرفي، وضم إليه معنى المقام. أي ما يسمى: بروح النص، وكان الصوفية يفرقون بين المعنى المقالي، والمعنى المقامي، ويغوصون وراء المعنى الدلالي، وهذا هو معنى: المقام، وللأسف لم يستطع نحو (المباني) أن يفهم المقال في ضوء المقام، ولهذا كانوا يطلقون على أصحاب هذا النحو:

(أهل صناعة النحو) فهو مرتبط بطابع الصناعة، بل ذهبوا إلى ما وراء الصناعة. واستمع معي إلى أبي علي الفارسي وهو يتحدث عن (نحو) علي بن عيسى الرماني، إذ يقول: لو كان النحو ما يقوله الرماني لم يكن معنا منه شيء، ولو كان النحو ما نقوله لم يكن معه منه شيء [25]. فقد تأثر النحو بروح الفلسفة، ولهذا ضاق الناس بطريقة النحاة، وطالبوا بتهذيب النحو وإصلاحه، أو تركه حتى قال القاسم بن مخيمرة [26].

« النحو أوله شغل وآخره بغي ».

ب – ومن هذا أن ثلاثة سمعوا مناديًا يقول: (يا سعتر بري) ففهم كل منهم مخاطبة عن الله تعالى يخاطب بها في سره. فسمع الأول: (اسع تر بري)، وسمع الثاني: (الساعة ترى بري)، وسمع الثالث: (ما أوسع بري) فالمسموع واحد، واختلف أفهام السامعين كما قال سبحانه: « تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل ».

فأما الذي سمع: اسع تر بري فمريد دلّ على النهوض إلى الله بالأعمال، يستقبل الطريق بالجد، فقيل له: اسع إلينا بصدق المعاملة تر برنا بوجود المواصلة.

وأما الثاني: فكان سالكًا إلى الله طاولته الأوقات فخاف أن تفوته المواصلة، فقيل له ترويحًا على قلبه لما أحرقه نار الشغف: الساعة ترى بري.

---

(25) نزهة الألبا 310 لابن الأنباري. ط حجر 1294 هـ.
(26) صبح الأعشى 1 / 171.

وأما الآخر: فعارف كشف له عن وسع الكرم فخوطب من حيث أشهد فسمع: ما أوسع بري [27]!

فالصوفي استخرج من الكلمة دلالات وقضايا فائقة رائقة، وأخذ من أحرفها علومًا، ومن حركاتها وسكناتها فهومًا. ولم يعوّل على المعنى الحرفي، أو ظاهر النص، لأنه يعتبرهما مدعاة لقصور الفهم.

ومن الذين تحجروا على (المباني وظاهر النص) ما حدث لليهود وكانوا يعولون على المعنى الحرفي كثيرًا: لأنهم طلاب مادة، فقد فهموا من قوله سبحانه: « إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام » [28]، أن الله قد خلق العالم في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع بعد أن تعب من العمل الشديد المضني في الأيام الستة، ولكن القرآن سخر منهم لهذا الفهم الحرفي المادي حيث نزل فيهم قوله سبحانه:
« ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب » [29].

ومن ذلك أن اليهود أيضًا حينما سمعو الآية: « من ذا الذي يقرض الله قرضًا حسنًا» [30]، قالوا: « إن الله فقيرٌ ونحن أغنياء » [31]، فهم لم يفهموا (المقام) فهمًا حقيقًا، بل استغلوا معنى (المقال) للمراوغة، ولكن أبا الدحداح } كان فاهمًا (للمقام والمعاني) عندما عقب بقوله: « إن الله كريم استقرض منا ما أعطانا » [32].

ولم يتنبه نحاة (المباني) إلى معنى المقام، وإنما الذي تنبه إليه بحق هم علماء البلاغة ورجال التفسير، والتصوف. ويذكر الدكتور تمام في كتابه

(27) منية الفقير المتجرد: ص 9.
(28) الأعراف 54.
(29) ق 38، وانظر تفسير القرطبي. المجلد 17 ص 23 فما بعدها. دار الكتاب العربي. القاهرة 1967 م.
(30) البقرة 245، والحديد / 11.
(31) آل عمران: 181.
(32) اللغة العربية معناها ومبناها 338 دكتور تمام حسان.

السابق 339. أن أحد المستشرقين سمع أحد الدراويش في إحدى طرقات القاهرة يصيح (مدد!) فقال المستشرق: أي نوع من المدد يريده هذا الرجل؟ فالمستشرق هنا عرف المعنى المعجمي للكلمة، ولكن غاب عنه ما وراءها من (المقام).

ويرى الدكتور تمام: أن الوقوف على المعنى العجمي، وعلى المستوى الوظيفي: الصوتي والصرفي والنحوي – لا يعطينا إلا معنى (المقال)، أو: المعنى الحرفي، وهو معنى فارغ من محتواه الاجتماعي والتاريخي.

ج –ومن هذا ما روي عن أبي بكر } أنه طرق الباب على رسول الله >، فسأل الخادم: من الطارق؟ فقال: أبا بكر، فهنا آثر أبو بكر النصب والفتح واللغة العربية في نحو (المباني) تأباها. لأن استعمالها بالواو، وتعليل ذلك: أنه استعمل (الفتح) في هذا المقام إشارة منه أن (يفتح) له ذلك الباب، أو (نصبه) بالألف (لانتصابه) في مقام الخلافة، وإنما آثر الفتح، لأنه أخف الحركات وألطفها، والباب المطروق أسمى الأبواب وأشرفها [33].

فأبو بكر لم يكن يلحن، لأنه وافق مقتضى عالم الحقائق فيما نطق به في الظاهر، لكن نحو (المباني) المعياري يلحنه، لأنه لم ير إلا (مباني) النحو، فهو محجوب لم يشاهد حقائق (المعاني) ودواعي الحق، ولو شاهدها أو رعاها ما خالفها.

د – وقد ينصب الصوفي المخفوض، أو ينخفض المنصوب، أو يرى الفاعل فينطق به مفعولًا. فيظنه السامع لحن أو أخطأ، والحق أنه لم يلحن أنه ولم يخطئ ؛ لأنه يدور مع حقائق (المعاني).

ففي الحالة الأولى: نصب المخفوض لما تعطيه حقيقته من الفتح والانتصاب للحق.

---

(33) منية الفقير ص 8.

وفي الثانية: خفض المنصوب لما تعطيه حقيقته من أنه بالخفض أحق.

وفي الثالثة: جعل الفاعل مفعولًا، لأنه رأى ألا فاعل إلا الله، فهو وحده المستحق (للرفع) دون غيره، وهذا حكم الفاعل.

فحقائق (المعاني) هي التي أجرت على لسانه هذا الأسلوب المخالف لما عليه نحو (المباني).

هـ - وإليك اتجاهين مختلفين في نحو (المباني) عن نحو (المعاني) وهما يدوران حول قضيتي (المبتدأ) و (الزمن) في النحو التالي:

أولًا: المبتدأ:

وهو عند الصوفية قائم بذاته، ولا يحتاج إلى خبر، فإذا قلت: (هو) كان حاضرًا لا غائبًا، وتامًا مفيدًا عندهم، وفي نحو (المباني): (هو) يمثل ضميرًا غائبًا ناقصًا لا معنى له إلا بوجود الخبر الذي هو جزء متمم للفائدة، وبدون الخبر يظل المبتدأ عديم المعنى، بعكس الحال في نحو (المعاني).

ثانيًا: الزمان:

وكذلك (الزمان) يختلف باختلاف النحوين، فالزمان في نحو المباني:

ماض وحال ومستقبل. أما عند نحاة (المعاني) وهم الصوفية فلا زمان عندهم.

أما موقف القرآن الكريم من الزمان: فكان يتحدث حينًا عن نظام الزمان البشري المألوف كقوله سبحانه: « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا في كتاب الله ... منها أربعة حرم » (34)، فهو يتحدث عن أشهر السنة بما فيها الأشهر الحرم، وكقوله سبحانه: « هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورًا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب» (35). فهنا يتحدث

---

(34) 26 من التوبة.
(35) يونس 5.



عن الزمان الذي يقاس بدوران الكواكب، وحينًا آخر يتحدث عن نظام الزمان الآلهي، أو (اللا زمان) فهو آن أبدي، وحاضر سرمدي يعلو فوق جميع اللحظات، ولا يخضع للتغير أو التطور كقوله سبحانه: « إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له: كن فيكون »[36]، كن: فكان كل شيء، فهنا أسقط الماضي والحاضر والمستقبل بضربة واحدة بحيث لا يكون قائمًا سوى (اللا زمان الآلهي) الذي هو جزء من الأزل [37]. فأمره وفعله لا يحتاجان إلى وقت أو زمان أرضي.

والوصوفي وإن كان يعيش في زمان، إلا أنه في لحظة إشراقه استطاع أن يلتقط الزمان الإلهي، أو (اللا زمان أو الأزل)، ولهذا قالوا في تعريف الصوفي: « هو من لا ماضي له ولا مستقبل » فلا يشغله وقت سابق أو لاحق عما هو عليه في الوقت، فالزمان عندهم مجرد من النسبية التي جردوا أنفسهم منها، ولأن الصوفي مستغرق في شهود الموقت عن مراعاة جميع الأوقات، وكذلك تلاشت عنده أبعاد المكان أيضًا، ومعنى هذا أنهم قد سبقوا الحضارات حين دعوا إلى التخلص من عقدتي الزمان والمكان، وتحرر النفس الإنسانية من إرهما.

... ولكن أي الاتجاهين أجدى للنحوي: المباني أو المعاني؟ والذي أراه أن الذي يتحدث على مستوى (المباني) لا بد وأن يلتزم قواعد نحو المباني، وهي القواعد الظاهرية، ولها سلطتها وقوانينها التي توجب وتجيز وتمنع، وقد لخصها ابن مالك النحوي في ألفيته المشهورة بقوله:

فما أبيح افعل ودع ما لم يبيح

والحق أن بعض قواعد وقوانين نحو (المباني) قد ضاق بها النحاة أنفسهم، وهذا (دماذ) صاحب أبي عبيدة يروي عنه أنه قرأ من النحو إلى

---

(36) النحل: 40.
(37) بتصرف من: الزمان د. إمام عبد الفتاح، مجلة الثقافة العربية عدد 4 إبريل 1976 م.

باب الفاء والواو، فلما استمع إلى قول الخليل وأصحابه: إن ما بعدهما ينتصب بـ (إن) مضمرة وجوبًا نبا فهمه عن ذلك وكتب إلى المازني يشكو إليه ما لقيه من عنت في أبيات ختمها بقوله:

لقد كدت يا بكر من طول ما * أفكر في بابه أن أجن [38].

أقول: ولم لا يجن، وهذا ابن العريف القرطبي ت 367 هـ قد وضع لولد أبي عامر المنصور مسألة فيها من العربية مائتا ألف وجه، واثنان وسبعون ألف وجه، وثمانية وتسعون وجهًا [39]. وما كان أيضًا من ملك النحاة ت 568 هـ حيث استشكل عشر مسائل وسماها: « المسائل العشر المتعبات إلى الحشر » [40].

... وإن كنت تتحدث على مستوى (المعاني) فالتزم بآداب وسلوك نحو (المعاني) من: حسن الخدمة، وحفظ الحرمة، وتعظيم النعمة، وعليك أن تكون منتصبًا إلى مجاري الأقدار بالرضى، مستسلمًا لله في أمره ونهيه، مستغرقًا في شهوده، غائبًا في وجوده، تقابل عز الربوبية بذل العبودية، وشعارك ألا يراك مولاك حيث ينهاك، وألا يفتقدك حيث أمرك. فإذا أصلحت لسانك دون أن تصلح جنانك، فذلك فسق وضلال. وهذا طابع عصرنا الذي نعيشه، فمحاولاتنا في معاهد العلم ومدارسه لإصلاح ألسنتنا، ونصيب القلوب من الإصلاح أقل بكثير من نصيب الألسنة. ولعل هذا ما يعنيه الرسول > بقوله: **« فساق أمتي قراؤها »** [41].

---

(38) أخبار النحويين البصريين 77 للسيرافي، نشر كرينكو، وبكر هذا هو أبو عثمان بكر المازني شيخ نحاة البصرة في عصره.
(39) بغية الوعاة للسيوطي 230، ط أولى. السعادة. مصر 1326 هـ.
(40) المصدر السابق :220.
(41) وقريب من هذا مقالة عيسى —: « إلى متى تصفون الطريق للمدلجين وأنتم مقيمون مع المتحيرين؟ » وفي هذا المعنى يقول عمر > « إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة: المنافق العليم، قالوا: وكيف يكون منافقًا عليمًا؟ قال: عليم اللسان، جاهل القلب والعمل ».

وإن أصلحت جنانك دون أن تصلك لسانك فذلك كمال دون الكمال، وإن أصلحتهما معًا فهذا كمال الكمال.

وكذلك كل جمال فني رائع يحصل من: المباني والمعاني معًا، و (مباني) التصوف كانت يومًا ما في الأعماق ثم دفعت إلى السطح، فهي لذلك وثيقة الصلة (بالمعاني) التي هي أساس التفكير ومستودع الإلهام، والمعاني تظهر من خلال المباني، والأشباح تعظم بشرب الأرواح، ولون الماء لون إنائه.

على أن (المباني) وحدها لا تستطيع أن تحرث في حقل التصوف وإلا باءت بالفشل والعقم، لأنها تعني بالشكل والمظهر، لا اللباب والجوهر. وصاحب المباني يعتمد على عقله، وصاحب المعاني يعتمد على ذوقه وكشفه، وهذا أبو علي الفارسي النحوي قد كان كثيرًا ما يتردد في التوجيه النحوي بين المباني والمعاني، أو بين النحو والذوق الأدبي، وكان يقول « قسمة الأعشى » يريد بيته المشهور:

فقال ثكل وغدر أنت بينهما * فاختر وما فيهما حظ لمختار

وكثيرًا ما كان المعنى والإعراب يتجاذبان الأسلوب، فالمعنى يدعو إلى آمر، والإعراب يمنعه، من ذلك:

أ – قوله تعالى: « إنه على رجعه لقادر يوم تبلى السرائر » فالمعنى يقتضي أن يتعلق الظرف بالمصدر (رجع)، أي أنه على رجعه في ذلك اليوم لقادر، لكن الإعراب يمنع منه لعدم جواز الفصل بين المصدر ومعموله. والقاعدة إن يؤول الإعراب، وأن نتمسك بالمعنى ونتقبله. فنجعل العامل فعلًا مقدرًا دل عليه المصدر تقديره: يرجعه.

ب – وما يصور تشاحن المباني والمعاني قولهم: هذا تفسير معنى، وهذا تفسير إعراب، فقد ورد في الكافية لابن مالك: ومن الاستثناء بـ (ليس) قول النبي ﷺ: يطبع المؤمن على كل خلق ليس الخيانة والكذب.

والتقدير الذي يقتضيه (الإعراب): ليس بعض خلقه كالخيانة والكذب، والتقدير الذي يقتضيه (المعنى): يطبع على كل خلق إلا الخيانة والكذب، (الأشباه والنظائر للسيوطي 2 / 176).

والفرق بينهما أن تقدير الإعراب لا بد فيه من ملاحظة الصناعة النحوية، وتقدير المعنى لا تضره مخالفة ذلك:

ففي قوله تعالى: « وثمودًا فما أبقى » يمكن أن تعرف (ثمودًا) مفعولًا مقدمًا، وهذا يتفق والمعنى، ولكنه في صناعة النحو يمتنع ؛ لأن لـ (ما) النافية الصدر، فلا يعلم ما بعدها فيما قبلها، ولذلك رأى النحاة إن يكون معطوفًا على (عادًا) أو ينصب مفعولًا به على تقدير: وأهلك ثمودًا.

ومما يؤكد قوة المعاني على المباني أن أساليب كثيرة لم تلتزم بقواعد النحاة، ولم يجد النحاة مندوحة لقبول تلك الأساليب في نظرهم إلا بحملها على المعاني، و (الحمل على المعنى) مصطلح يكثر دورانه في قضايا النحو العربي، وتلك الأساليب المخالفة لم تلبث أن ثبتت أقدامها، حتى أصبحت من سنن العرب، ويرى ابن جني أنه أسلوب يدل على « غور من العربية بعيد، ومذهب نازح فسيح » (الخصائص 2 / 411) ويشير ابن الحاجب كما نقل عنه السيوطي في الأشباه والنظائر 1 / 212 إلى قوة هذه الأساليب بقوله: إذا حمل على المعنى ضعف الحمل بعده على اللفظ ؛ لأن المعنى أقوى ويظهر (الحمل على المعنى) في نماذج نذكر منها:

1 – ذكر الواحد والمراد به الجمع.

2 – ذكر الجمع والمراد به ما دونه.

3 – معاملة المثنى معاملة الجمع.

4 – تذكير المؤنث، وتأنيث المذكر.



5 – اتصال الفعل بحرف (ليس) مما يتعدى به ؛ لأنه في معنى فعل يتعدى به.

على أن الخلاف قد دب بين نقاد اليونان والعرب حول الألفاظ والمعاني، فمنهم من يرى جانب المعنى، ومنهم من يرى جانب اللفظ، وآخرون يذهبون إلى مساواة الألفاظ بالمعاني [42] على أنني أرجح جانب المعاني ؛ لأن المعاني أشرف من الألفاظ، والألفاظ أوضح من المعاني، ومن أجل هذا اتهم متّى بن يونس 328 هـ النحاة بأنهم يبحثون عن الألفاظ [43] وعماد البلاغة عند الجاحظ: ألا تكثر الألفاظ وتقل المعاني. ويقول ابن جني [44] في (باب الرد على من ادعى على العرب عنايتها بالألفاظ وإغفالها المعاني): « فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظها وحسنوها، وحموا حواشيها وهذبوها، وصقلوا غروبها وأرهفوها، فلا ترين أن العناية إذا ذاك إنما هي بالألفاظ، بل هي عندنا خدمة منهم للمعاني وتنويه وتشريف ». فإذا كانت العرب تدبج ألفاظها وتعني بها، فذلك من أجل المعاني التي وراءها، وبمثل تلك النظرة كان ينظر عبد القاهر الجرجاني حيث كان لا يرى الجمال إلا في المعاني وفي ذلك يقول: « فإذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعرًا، أو يستجيد نثرًا، ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللفظ فيقول: حلو رشيق، وحسن أنيق، وعذب سائغ، وخاوب رائع، فاعلم أنه ليس ينبئك عن أحوال ترجع إلى أجراس الحروف، وإلى ظاهر الوضع اللغوي، بل إلى أمر يقع من المرء في فؤاده، وفضل يقتدحه العقل من زناده » [45]. فمزايا الكلام التي بها يسمو ويتفاضل تأتي من حيث المعاني، وليست من حيث تسمع بأذنك، بل حين تسمع بقلبك، وتستشف بروحك.

---

(42) انظر: الخصائص لابن جني 1 / 225، 217 ط دار الكتب المصرية، دلائل الإعجاز للجرجاني 51 ط الثانية، القاهرة، بلاغة أرسطو 355 فما بعدها. د. إبراهيم سلامة ط. الثانية.
(43) بلاغة أرسطو 355 د. إبراهيم سلامة.
(44) في الخصائص 1 / 217 ط دار الكتب المصرية.
(45) أسرار البلاغة 2، 3 ط 1925 م.

والمعائي هي المقاييس الحقيقة التي تقاس بها الاشاء، وكانت شهادة المعنى دائمًا أصدق من شهادة الحس، وفي هذا يشير الشيخ أبو مدين } إلى شيء من ذلك:

فقل للذي ينهي عن الوجد أهله إذا * لم تذق (معنى) شراب الهوى دعنا

إذا اهتزت الأرواح شوقًا إلى اللقا * تراقصت الأشباح يا جاهل (المعنى)

أما تنظر الطير المقفّص يا فتى * إذا ذكر الأوطان حن إلى المغنى

إلى أن قال:

كذلك أرواح المحبين يا فتى * تهززها الأشواق للعالم الأسنى

أنلزمها بالصبر وهي مشوقة * وهل يستطيع الصبر من شاهد (المعنى)

(منية الفقير المتجرد ص 61)

ولهذا كان سجن المعاني أشق من سجن المباني، وكان تعبير القرآن رائعًا عن سجن المعاني وهو يصور واقعة الثلاثة الذين تخلفوا عن الغزو مع الرسول > حيث « ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم » (التوبة 118). فالأرض حولهم فضاء يمشون ويأكلون ويشربون ولكنهم في سجن المعاني مقيدون، فلا المسلمون يكلمونهم، ولا نساؤهم تقربهم، والأرض تضيق عليهم، ونفوسهم كذل تضيق بهم من الضجر والحرج ؛ لأنهم في سجن بغير حدود أو سدود، سجن معنوي سجن الأنفس وقيد الأرواح، وصدق أرسطو حين قال: « علل الأفهام أشد منه علل الأجسام ». في مثل ذلك يقول المتنبي:

يهون علينا أن تضام جسومنا * وتسلم أعراض لنا وعقول (*)

(*) ديوان المتنبي 3 / 386 بشرح البرقوقي.

– 3 -

وكان القشيري يتوسع في بعض مصطلحات النحو، ويخلع عليها معاني أخرى جديدة حتى أضحت قواعد هذا النحو صورة لعقيدته، وتطورت هذه القواعد النحوية عنده إلى مدلولات تختلف كل الاختلاف أو بعضه عما يفهم منها نحويًا، وكان ينفذ من وراء مباني الجزئيات النحوية إلى معانيها الروحية ليرتقي منها إلى عوالم أخرى، وذلك يحتاج منه إلى قدرة على تكييف قواعد هذا النحو وهي تنتقل من مدار



أرضي إلى مدار سماوي، وهذا المنقل يثير الإعجاب لدقته ورقته، لأنه كان يحرك القاعدة في نحو (المباني) لتبحث وتصيح بأختها في نحو (المعاني) فتذوب فيها وتتلاشى، ثم يلفها بغلالة من قلبه وروحه فتزداد حركة وحياة، وفيضًا وإشراقًا، لما أحدثه فيها من مذاقات لم تكن، وأسرار لم تعهد.

* من ذلك قوله في كتابه « نحو القلوب الكبير » (46).

(أ) « الحروف التي تجزم الفعل المستقبل معلومة وهي: لم ولمّا وأخواتها، والتي تنصبه معلومة: أنْ ولن وكي وإذن .

والإشارة منه: أن الفعل المضارع ما دام منفردًا (47) كان له أقوى الحركات، فإذا عملت فيه العوامل تغير عن استحقاق أقوى الحركات وآل إلى الضعف.

وكذلك العبد عند تجرده (48) فهو ينعت استقلاله وقوته، فإذا عملت فيه الواردات من الرغبة والرهبة وغيرهما رد إلى الضعف. فبعد ما كان بالله مستقلًا صار أسير حظ، وصريع نصيب، ثم ... بعض العوامل فيه تنصبه فتعرضه لكل قاصد، وبعض العوامل تجزمه فتنقطع عنه الفوائد ».

---

(46) مخطوط بمكتبتي.
(47) التفريد: وقوفك بالحق معك. والتفريد: مصطلح صوفي.
(48) التجريد: إماطة السوى عن القلب والسر، والتجريد: مصطلح صوفي.

وقوله:

(ب) « جواب الأمر والنهي والدعاء والاستفهام والجحد والعرض والتمني بالفاء منصوب، ويجزم عند حذف الفاء.

والإشار منه: لما حصلت الفاء واسطةً بين الجواب وهذه الأشياء، أخرج الجواب عن واجب استحقاقه إلى صفة أخرى، فكذلك شرط الواسطة: تغير حكم المدخول عليه، فمن عاش مع الله تعالى بواسطة المعلوم تغير عليه حكم ما وجب له عند التفرد عن المعلوم.

أما العيش مع الله بلا علاقة فيبقي العبد على ما يجب من تحقيق الوصل في الأصل ».

والقشيري في هذين النصين يستعمل عوامل النصب والجزم وفاء السببية رموزًا ليست مقصودة لذاتها، وإنما تشير إلى هجوم العلائق ووقوع العبد تحت تأثير الحظوظ، والخنوع في أوطان الجموح في الطريق الصوفي، ويصور الحياة حين تتجرد من أوشاب الضعف، وتسمو فوق دنيا الحس. وقد وجد أن المظهر الخارجي للقواعد النحوية في هذين النصين نموذج ناقص لعالم الحقائق الكامل، فحولهما إلى مفاهيم صوفية رائعة، حتى كاد هذا النحو – الجديد الفريد – يتوغل في النفوس والأرواح جميعًا، ليحل المعقد من قضايا البشر على الأرض بعد أن أفلست الحضارات الوافدة – وهي تشق غبار السنين – وناءت بكلكلها – وهي ترزخ تحت معاول الذل والهوان – فلم تجد طريقًا، ولم تقدم حلًا!

أليس يدعوك (نحو المعاني) إلى التحرر والتجرد عن رق الأشياء، وإسقاط العلاقات والعائقات! والتخلص من تأثير المطالبات والإرادات، لتكون في أقوى حالاتك، وأسمى نعوتك، فتصبح عبدًا واقفًا مع الله بالله، لا إشراف لأحد عليه، ولا سبيل لمخلوق إليه، قد صفّى عن شهود الخلق

نفسه، وسلم من تأثير الأطماع فيه! أما من التجأ لمخلوق فقد سقط في مهواة من الغلط، وأحاطت به وافدات المطامع والخواطر.

ثم لاحظ معي كيف ربط القشيري بين مصطلحي (التجرد) في النحو، و (التجريد والتفريد) في التصوف، وكيف لمح هذا الربط الدقيق الرقيق فأعطى الحركات (49) ألوانًا، والمذاقات أنغامًا، وجعلها تدور في أفلاك مهيمة متيمة.

وتعال معي تتسمع عبور جزئيات (نحو المباني) على جسور (نحو المعاني) وقد صاحبتها لغة الرمز وذلك حيث يقول:

(ج) « وحروف القسم تجر المقسم به بإضمار فعل ... وبعض هذه الحروف أكثر تعرفًا، وأعم دخولًا كالباء، وبعضها أقل: كالتاء والواو، وواسطة بين القليل والكثير، والكل حروف القسم ».

والإشارة منه: الجميع من جملة الخدم، ولكن منهم من يدخل الدار ويتمكن في الصدر، ومنهم من حده أن يحضر الباب ويقف من البعد « قد علم كل أناس مشربهم» (50).

فالقشيري جسد لك هذه الحروف، وكأنها تتحرك وتحس، فمنها السابق ومنها اللاحق، ومنها المقبول ومنها المطروح، ومنها من ينتظر، ومنها من يترقب، ومنها من تتعثر قدمه، ومنها من تسرع به، فحروف القسم رموز ليست مقصودة لذاتها، وإنما هي أناسي تتفاوت معادنها، وتختلف منازلها، فمنهم من ينادي على الباب، ومنهم من يناجي على بساط القرب، فموقف العابد أبواب الخدمة، ومربع الواجد بساط القربة، ولا يكون المحجوب عن شهوده كالمستهلك في وجوده.

---

(49) حركات الفعل المضارع في: رفعه ونصبه وجزمه ودلالة هذه الحركات على لمحات صوفية.
(50) آية 60 من البقرة.

فأين (نحو المباني) من (نحو المعاني) حين يلفتك الأخير بشدة عندما (تجرد) الفعل المضارع من النواصب والجوازم، فتذكر (تجريد) ظاهرك عن الأغراض، وباطنك عن الأعواض، وسرك عن الملاحظات، فلا ترى غيرًا، ولا تراعي خلقًا، متفردًا بالله، متجردًا له.

أما (نحو المباني) وأصحابه، فاستمع إلى رأس أئمتهم بعد سيبويه، وهو: أبو الحسن الأخفش ت 211 هـ. حين يسأله الجاحظ قائلًا: أنت أعلم الناس بالنحو، فلم لا تجعل كتبك مفهومة كلها، وما بالنا نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها، وما بالك تقدم بعض العويص وتؤخر بعض المفهوم؟ قال: أنا رجل لم أضع كتبي هذه لله، وليست هي من كتب الدين، ولو وضعتها هذا الوضع الذي تدعوني إليه، قلت حاجتهم إلي فيها، وإنما

كانت غايتي المنالة [51]. فهذا رجل على رأس النحاة يشيع في كتبه النحوية الغموض والإبهام حتى يلتمس الناس تفسيرها منه رغبة في المال، فغرضه من علمه: كسب مادي، وربح دنيوي!

ومن أجل هذا برم الناس من النحو والنحاة، وهذا أعرابي يقف على حلقة أبي زيد فظن أبو زيد أنه يريد أن يسأل في النحو، فقال الأعرابي مرتجلًا:

لســـــت للنحــــو جئـــتكم * لا. ولا فيــــــه أرغــــــب!

أنـــــا مـــــالي ولامـــــرئ * أبـــــد الـــــدهر يضــــرب

خـــــل زيـــــدًا لشـــــأنه * حيـــث مـــا شـــاء يـــذهب

وها هو نحوي كبير يعترف بالضجر والضيق، من الشوائب التي عكرت صفو النحو، وما ناله من تعصب النحاة، وتزمتهم المقيت، وتكسبهم به. ويتساءل أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب ت 291 هـ. عن عاقبة أمره ومصيره أمام الله بعد أن اشتغل بهذا النحو. قال ثعلب:

---

(51) الحيوان 1 / 91 للجاحظ. تحقيق: الأستاذ عبد السلام هارون.

« اشتغل أهل القرآن بالقرآن ففازوا، واشتغل أهل الفقه بالفقه ففازوا، واشتغلت أنا بزيد وعمرو فليت شعري ماذا يكون حالي في الآخرة [52] » وكأني بثعلب يضيق (بنحو المباني) ويتطلع إلى نحو آخر!

وهذا النحو الذي يتطلع إليه ثعلب ورفاقه هو ما نحن بسبيله في عملنا هذا.

(د) والقشيري يستغل جميع الإشارات والرموز التي تحمل في ثناياها مضامين المعنى وتصوره تصويرًا بديعًا مركزًا. وهي كثيرة، منها ما هو بصري أو سمعتي أو صوتي، وحسبنا في هذا المقام أن نشير إلى نص واحد به، أخذ رمزه وإيحاءه من الخط والكتابة. يقول: « ومن الحروف ما يلحق بغيره، والمقصود منه تمييز ذلك الغير مما سواه: كالواو المحقة بعمرو في الخط لتكون فرقًا بين: عمرو، وعمر، وهذا الإلحاق لا يدوم عند الاستغناء عنه ...».

والإشارة منه: أن من الناس من يلحق بالطريق لأجل الغير، ثم يطرح ... وأنشدوا:

أيها المدعي سليمي هواها * لست منها ولا قلامة ظفر

إنما أنت في هواها كواو * ألحقت في الهجاء ظلما بعمرو

فالقشيري يشير إلى أن زيادة الإلحاق لا تفيد معنى ولا تطرد، وإنما جئ بها في المثال الذي ذكره لتكون فارقًا خطيًا في حالات خاصة [53] ثم تحذف ؛ لأن تلك الزيادة الملحقة يستغني عنها، وكان المعري يدعو الله ألا يجعله كالحروف الزائدة ؛ لأنها فضولية غير أصيلة وفي ذلك يقول:

---

(52) نزهة الألباء 298. ابن الأنباري ط 1294 هـ.
(53) تزاد الواو في اسم (عمرو) إذا كان مرفوعًا أو مجرورًا تمييزًا له عن اسم (عمر) الممنوع من الصرف، وتزاد هذه الواو بشرط: أن يكون علمًا، لم يضف لضمير ولم يقع في قافية، ولم يصغر، ولا محلي بأل، ولا منسوبًا، ولا منصوبًا منونًا.

« فأما واو عمرو فأعوذ بك – رب الأشياء – إنما هي صورة لا جرس لها ولا غناء، مشبهها لا يحسب من النسمات » [54].

ومثل الإلحاق في ذلك (همزة الوصل) فهي تلحق الأسماء والأفعال في أحوال مخصوصة [55]، وهي تثبت في ابتداء الكلام، وتسقط في الوصل، وهي كالإلحاق تلعق ما تلحق بنية الحذف عند الاستغناء عنها.

وحال كثير من الناس – كظاهرة الإلحاق وهمزة الوصل – ينتسبون للطريقة ظاهرًا، ومآلهم في النهاية: السقوط والطرح ؛ إذ لم يكن في نيتهم يقين، وفي سلوكهم صدق، وفي عهودهم وفاء.

ومن خلال هذه النصوص وغيرها ترى: أن (نحو المباني) مولع بالتفصيل كما رأيت في ظاهرة الإلحاق وهمزة الوصل على سبيل المثال، و (نحو المعاني) يتسم بالإجمال واللمح وشمولية النظرة، كما أن المعاني في نحو المباني مكشوفة، ودلالات نحو المعاني مستورة مكنونة ؛ ولهذا كانت أقدر على أن تهز المشاعر، وتهيم الأرواح، لما فيها من ظلال وإيحاء. وهيهات أن يصل الإنسان إليها إلا ذوقًا، ولا تزور إلا من هام بها عشقًا وشوقًا ؛ من أجل ذلك كان لغتها الرمز، والصوفي لا يرضى السفور أبدًا، ويرى الجمال في السترة والحجاب، أليس يتسمع إلى مناجاة السرائر، وما تكنه الأرواح وترقبه الخواطر، حتى كأن حرامًا أن تتجلى معانيهم سافرة لا نقاب لها، وبادية لا حجاب دونها.

كلماتنا في الحب تقتل حبنا * إن الحروف تموت حين تقال

---

(54) رسالة الهناء. آخرها، هامش.
(55) تزداد همزة الوصل: 1 – سماعًا: في: أل، وفي الأسماء العشرة (ابن، ابنة، ابنم، اسم، امرؤ، امرأة، است، اثنان، اثنتان، أيمن.
2 – وتزداد قياسًا: في المصادر التسعة وما تصرف منها من فعلي الأمر والماضي – وهي الثلاثة الخماسية (افتعال، انفعال، افعلا) والستة السداسية (استفعال، افعنلال، افعيلال، افعوال، افعيلاّل، افعلاّل).

وأخيرًا:

رأينا الكلمات في (نحو المعاني) تتميز بالصدق، كما يتميز معناها بالخلود (ونحن المعاني) هادف أبدًا، لحمته وسداه: معرفة الله. وهي: غاية الغايات، ثم إعلاء ما في الوجود من حق، وتزكية ما فيه من خير، وتجلية ما وراءه من تذوق وكشف.

وسبحانك اللهم وبحمدك، أشهد ألا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، أستغفرك وأتوب إليك.

فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- الإتقان في علوم القرآن.
للسيوطي، مصطفى الحلبي. ط 3. القاهرة.
- إحياء النحو.
الأستاذ إبراهيم مصطفى. لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة.
- أخبار النحويين البصريين.
للسيرافي، نشر كرينكو.
- أسباب حدوث الحروف.
لابن سينا. ط. السلفية. القاهرة.
- أسرار البلاغة.
لعبد القاهر الجرجاني 1925 م.
- أسرار العربية.
لابن الأنباري. تحقيق: محمد بهجة البيطار. مطبوعات المجمع العلمي العربي – دمشق.
- الإسلام وتحديات العصر.
دكتور حسن صعب. بيروت. ط 2.
- الإسلام يتحدى.
وحيد الدين خان. تعريف: ظفر الإسلام خان. مراجعة وتحقيق: الدكتور عبد الصبور شاهين. بيروت.
- الأشباه والنظائر.
للسيوطي. حيدر آباد الدكن. ط 1316 هـ.
- أصوات اللغة عند ابن سينا.
أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس. مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

الجلسة السابعة.
- الأصوات اللغوية.
أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس. ط 2. القاهرة.
- إعراب القراءات الشواذ.
للعكبري. مخطوط بدار الكتب المصرية. تفسير رقم 1199.
- الأعلام.
الزركلي.
- الألسنة العربية.
ريمون طحان. دار الكتاب اللبناني. بيروت.
- الأنساب.
للسمعاني. ليدن.
- الإنصاف في مسائل الخلاف.
لابن الأنباري. تحقيق محمد محيي الدين. ط السعادة الطبعة الرابعة. القاهرة.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل.
القاضي البيضاوي.
- الإيضاح في علل النحو.
للزجاجي. تحقيق: مازن المبارك. مكتبة دار العروبة. القاهرة.
- البداية والنهاية.
لابن كثير. ط. السعادة. مصر.
- البسملة بين أهل الإشارة والعبارة.
دكتور إبراهيم بسيوني. دار الكاتب العربي. القاهرة.
- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز.
الفيروز آبادي. القاهرة.
- بغية الوعاة.
للسيوطي. ط. أولى. مصر.

- بلاغة أرسطو.
دكتور إبراهيم سلامة. ط الثانية.
- تاريخ الأدب العربي.
بروكلمان (الأصل الألماني).
- تاريخ بغداد.
الخطيب البغدادي. ط. السعادة.
- تاريخ ابن الأثير.
طبعة الاستقامة. مصر.
- تبيين كذب المفتري.
لابن عساكر. ط. ليدن.
- التحبير في التذكير.
عبد الكريم القشيري. تحقيق. إبراهيم بسيوني. دار الكاتب العربي للطباعة والنشر. القاهرة.
- تحقيق ديوان ابن الاردخل.
با بكر الجازولي. مخطوط بمكتبة كلية دار العلوم.
- التصوف طريقًا وتجربة ومذهبًا.
دكتور محمد كمال جعفر، دار الكتب الجامعية 1970 م.
- التعريفات.
للجرجاني. ط مصطفى الحلبي 1357 هـ - 1938 م.
- تقويم الفكر النحوي.
دكتور علي أبو المكارم. دار الثقافة. بيروت.
- تهذيب اللغة.
للأزهري. تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون. ط. المؤسسة المصرية.
- جمهرة أنساب العرب.
لابن حزم. دار المعارف. القاهرة.

- جواهر القرآن.
لأبي حامد الغزالي. ط 2 – 1933 م.
- حاشية الخضري على شرح ابن عقيل.
للشيخ محمد الخضري. ط الكستلية.
- حاشية الصبان على شرح الأشموني.
للشيخ الصبان ط. أولى 1366 هـ - 1947 م.
- حلية الأولياء.
أبو نعيم الأصفهاني. ط السعادة.
- الحيوان.
للجاحظ. تحقيق: الأستاذ عبد السلام هارون.
- خزانة الأدب.
للبغدادي. ط. بولاق.
- الخصائص.
لابن جني. تحقيق (أستاذنا) الشيخ محمد النجار. ط. دار الكتب المصرية بالقاهرة.
- دائرة المعارف الإسلامية.
الترجمة العربية.
- دراسات في علم اللغة. القسم الأول.
دكتور كمال بشر. ط. دار المعارف. القاهرة.
- دلائل الإعجاز.
عبد القاهر الجرجاني. ط. الثانية.
- دلالة الألفاظ.
أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس. ط 3. 1972 م. القاهرة.
- دمية القصر وعصرة أهل العصر.
الباخرزي. ط أولى. حلب 1348 هـ - 1930 م.

- ديوان عنترة.
المطبعة التجارية. القاهرة.
- الرسائل القشيرية.
تحقيق الدكتور فير. نشرة المعهد المركزي. باكستان.
- رسائل متبادلة:
بيني وبين الدكتور عرفة مصطفى (بألمانيا الغربية).
- الرسالة القشيرية.
عبد الكريم القشيري. ط 1367 هـ. 1957 م. وطبعات أخرى بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود وزميله، وغيرها.
- رسالة الهناء.
أبو العلاء المعري. تحقيق كامل كيلاني. بيروت.
- روح القدس في مناصحة النفس.
لابن عربي. مصور عن جامعة استانبول. بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية رقم 237 تصوف.
- سر صناعة الإعراب.
لابن جني. الجزء الأول. ط 1 – 1954 م تحقيق مصطفى السقا وزملائه، ط. مصطفى الحلبي. القاهرة.
- شذرات الذهب.
لابن العماد الحنبلي. ط. القاهرة وط. بيروت.
- شرح أبيات سيبويه.
للنحاس المصري. حلب 1974 م.
- شرح أسماء الله الحسنى.
تحقيق الأستاذ الحلواني. ط 1 – 1969 م. القاهرة.
- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك.
تحقيق محيي الدين عبد الحميد.



- شرح التصريح على التوضيح وبهامشه حاشية الشيخ يس بن زين الدين تأليف خالد الأزهري. دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة.
- شرح الكافية.
لمحمد بن الحسن الرضى اللاستراباذي 1375 هـ. مصر.
- شرح المفصل.
لابن يعيش. المطبعة المنيرية. القاهرة.
- شروح سقط الزند.
لأبي العلاء المعري. القسم الرابع. الدار القومية 1964 م.
- شواهد الشافية.
شرح عبد القادر البغدادي. ط حجازي. بمصر 1359 هـ.
- الصباحي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها.
لابن فارس. السلفية بالقاهرة – 1910 م.
- صحيفة الأخبار القاهرية بتاريخ 25 / 3 / 1973 م.
- طبقات الشافعية الكبرى.
الإمام السبكي. ط. أولى. الحسينية. مصر، وطبعة أخرى نشرها: عيسى الحلبي.
- طبقات الصوفية.
لأبي عبد الرحمن السلمي. تحقيق نور الدين شريبة. ط 2 – 1969 م.
- الطبقات الكبرى.
الشعراني 1939 م.
- طبقات المفسرين.
الإمام السيوطي.
- العربية الفصحى.
هنري فليش. تعريب دكتور عبد الصبور شاهين. الكاثوليكية. بيروت.

- عقائد المفكرين في القرن العشرين.
العقاد. الأنجلو المصرية.
- علم القلوب.
أبو طالب المكي. تحقيق: عبد القادر عطا. ط. أولى 1964 م.
- علم اللغة.
دكتور علي عبد الواحد وافي. القاهرة.
- علم اللغة العام. القسم الثاني.
دكتور كمال بشر. دار المعارف. القاهرة 1970 م.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري.
- الفتوة.
لابن عمار البغدادي. تحقيق: دكتور فؤاد حسنين. القاهرة 1959 م.
- في الفلسفة والأخلاق.
دكتور كمال جعفر. دار الكتب الجامعية. القاهرة 1968 م.
- في اللهجات العربية.
أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس. ط الثانية.
- القرائن النحوية.
دكتور تمام حسان. بحث نال الجائزة الأولى من مكتب التعريب بالرباط.
- القشيري « الإمام » دكتور إبراهيم بسيوني، مجمع البحوث الإسلامية 1392 هـ - 1972 م.
- قوت القلوب في معاملة المحبوب.
أبو طالب المكي. ط. الحلبي.
- الكتاب.
سيبويه. ط أولى – بولاق. مصر.
- كتاب الأزهية في علم الحروف.
علي بن محمد النحوي الهروي – تحقيق الملوحي – دمشق 1971 م.

- كتاب الحروف.

الخليل بن أحمد الفراهيدي. تحقيق: الدكتور رمضان عبد التواب.

- كتاب الرد على النحاة.

لابن مضاء القرطبي. تحقيق: الدكتور شوقي ضيف. ط. الفكر العربي 1947 م القاهرة.

- كتاب المصاحف.

لابن أبي داود السجستاني. صححه آرثر جفري. ط أولى. الرحمانية 1355 هـ 1936 م.

- كتاب معاني الحروف.

لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني النحوي. تحقيق الدكتور عبد الفتاح شلبي. نهضة مصر. القاهرة.

- كشف الظنون.

حاجي خليفة. ط أولى. دار سعادات.

- لطائف الإشارات.

للقشيري. تحقيق: الدكتور إبراهيم بسيوني. دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة، وتنشر لأول مرة في ستة أجزاء.

- لطائف الإشارات لفنون القراءات.

للإمام شهاب الدين القسطلاني ج 1 تحقيق الشيخ عامر عثمان والدكتور عبد الصبور شاهين، القاهرة 1972 م.

- اللغة بين المعيارية والوصفية.

لأستاذنا الدكتور تمام حسان (الأنجلو) القاهرة.

- اللغة العربية: معناها ومبناها.

لأستاذنا دكتور تمام حسان. الهيئة المصرية بالقاهرة.

- اللمع.

السراج. دار الكتب الحديثة. القاهرة.

- لمع الأدلة.
لابن الأنباري. تحقيق سعيد الأفغاني. دار الفكر.
- اللهجات العربية في التراث.
دكتور أحمد علم الدين الجندي. تصوير الهيئة العامة للكتاب. مصر.
- مجلة الراي الليبية.
- مجلة مجمع اللغة العربية. القاهرة.
- المحتسب.
ابن جني. تحقيق أستاذنا علي النجدي ناصف، والدكتور عبد الفتاح شلبي وأستاذنا المرحوم الدكتور عبد الحليم النجارة، ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. القاهرة.
- مدارك التنزيل وحقائق التأويل.
النسفي.
- المدخل إلى التصوف الإسلامي.
السيد الفيضي (المنوفي) ط الدار القومية. مصر.
- مذاهب التفسير الإسلامي.
المستشرق جولد تسهر. ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار. القاهرة.
- مرآة الجنان.
لليافعي.
- المزهر في علوم اللغة,
السيوطي. ط. إحياء الكتب العربية. القاهرة.
- المسائل الخلافية.
العكبري. دار الكتب المصرية، مخطوط رقم 28.
- المسائل في أعمال القلوب والجوارح.
الحارث بن أسد المحاسبي، تحقيق: عبد القادر عطا. ط 1 – 1929 م.

- معجم ألفاظ القرآن الكريم.
مجمع اللغة العربية. ط أولى. الأميرية – القاهرة.
- المعراج.
القشيري. تحقيق: الدكتور علي حسن عبد القادر. دار الكتب الحديثة. القاهرة.
- مغني اللبيب.
ابن هشام الأنصاري. ط. مصطفى محمد 1356 هـ. وأخرى بتحقيق محيي الدين ط. المدني القاهرة.
- مفتاح السعادة ومصباح السيادة.
طاش كبرى زاده.
- مقدمة ابن خلدون.
تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي.
- مقدمة لطائف الإشارات.
حسن عباس زكي.
- من أسرار اللغة.
أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس. ط الأنجلو. الطبعة الرابعة وغيرها.
- من بلاغة أرسطو بين العرب واليونان.
أستاذنا الدكتور إبراهيم سلامة. الأنجلو المصرية.
- من مؤلفات ابن مسرة المفقودة.
- فصلة من مجلة كلية التربية. طرابلس. تأليف الدكتور كمال جعفر.
- منهاج العابدين، ومعه الكشف والتبيين.
أبو حامد الغزالي. ط أولى 1954 م. القاهرة.
- منهاج العارفين.
أبو حامد الغزالي (طبع مع مجموع القصور العوالي).

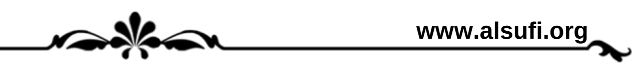
- منية الفقير المتجرد.
عبد القادر بن أحمد الكوهني على متن الأجرومية، للإمام الصنهاجي، ط أولى 1319 هـ. مصر.
- نحو القلوب الكبير.
القشيري، مخطوط رقم 1593 تصوف، بمكتبة طلعت، دار الكتب المصرية.
- نحو القلوب.
لمؤلف مجهول، مخطوط رقم 116 مجاميع بدار الكتب المصرية.
- نزهة الألباء في طبقات الأدباء.
ابن الأنباري. ط. نهضة مصر. تحقيق أبي الفضل إبراهيم.
- نشأة التصوف الإسلامي.
دكتور إبراهيم بسيوني. دار المعارف. القاهرة.
- هدية العارفين.
إسماعيل باشا البغدادي. استانبول 1951 م.
- همع العوامع بشرح جمع الجوامع.
السيوطي. ط. السعادة.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان.
لابن خلكان. تحقيق محيي الدين عبد الحميد. مصر.

فهارس الكتاب

فهرس الآيات القرآنية

سورة آل عمران		
3	نزل عليك الكتاب بالحق مصدقًا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل	44
28	لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين	88
30	ويحذركم الله نفسه، والله رءوف بالعباد	62
31	قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله، ويغفر لكم ذنوبكم	62
42	وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين	67
97	ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلًا	66
181	سنكتب ما قالوا	44
181	قالوا: إن الله فقير ونحن أغنياء	194
200	يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا	68
(سورة المائدة)		
54	يحبهم ويحبونه	5
(سورة الأنعام)		
1	الحمد لله الذي خلق السموات والأرض	91
52	ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه	77
79	إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفًا	87
91	قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون	124
124	الله أعلم حيث يجعل رسالته	191

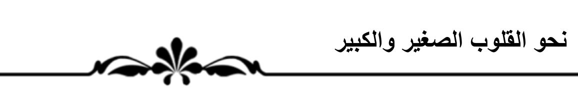
162	قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين	10
(سورة الاعراف)		
54	إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام	194
172	وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم، وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم، قالوا: بلى شهدنا	122
(سورة الانفال)		
37	ليميز الله الخبيث من الطيب	132
64	يا أيها النبي حسبك الله ومن أتبعك من المؤمنين	91
(سورة التوبه)		
1	براءة من الله ورسوله	41
5	فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم	121
14	قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزيهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين	50
21	يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان	42
36	إن عدة الشهور عند الله اثنا عشرًا شهرًا في كتاب الله	196
100	رضي الله عنهم ورضوا عنه	5
111	إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة	43
112	والحافظون لحدود الله	64



118	ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم	202
(سورة يونس)		
5	هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورًا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب	196
36	وما يتبع أكثرهم إلا ظنًا	39
62	ألا أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون	133
(سورة هود)		
9	ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناهم منه أنه ليئوس كفور	40
(سورة يوسف)		
24	عبادنا	5
(سورة إبراهيم)		
26	فمن تبعني فإنه مني	62
87	ولقد اتيناك سبعًا من المثاني	191
(سورة النحل)		
40	إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون	197
80	والله جعل لكم من بيوتكم سكنًا	162
97	من عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة	77
(سورة الإسراء)		
1	سبحان الذي أسرى بعبده	122
44	تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن	

	من شيء إلا يسبح بحمده، ولكن لا تفقهون تسبيحهم	12
68	أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر	43
109	ويخرون للأذقان يبكون	89
(سورة الكهف)		
13	إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى	13
50	بئس للظالمين بدلًا	133
103	قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالًا	130 ، 160
104	وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا	160
(سورة طه)		
110	ولا يحيطون به علمًا	92
(سورة الأنبياء)		
60	قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم	13
(سورة النور)		
22	وليعفوا وليصفحوا	68
36	في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه	135
(سورة الفرقان)		
70	فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات	119
(سورة القصص)		
71	قل أرأيتم أن جعل الله عليكم الليل سرمدًا إلى يوم القيامة، من إله غير الله يأتيكم بضياء	50
(سورة العنكبوت)		
69	والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا	51

(سورة فاطر)		
6	إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوًا	174
10	إليه يصعد الكلم الطيب، والعمل الصالح يرفعه	130
(سورة يس)		
39، 40	والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر، ولا الليل سابق النهار	52
(سورة الزمر)		
25	كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون	36
(سورة الشورى)		
11	ليس كمثله شيء	92
25	وهو الذي يقبل التوبة عن عباده	89
26	ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله	92
(سورة ق)		
38	ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب	194
(سورة الذاريات)		
49	ومن كل شيء خلقنا زوجين	147
(سورة النجم)		
3	وما ينطق عن الهوى	88
51	وثمود فما أبقى	200



	(سورة الحديد)	
3	هو الاول والاخر، والظاهر والباطن	75
11	من ذا الذي يقرض الله قرضًا حسنا	194
	(سورة المجادلة)	
11	يرفع الله الذين امنوا منكم	135
22	اولئك حزب الله	5
	(سورة الجمعة)	
2	هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم اياتهم ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة	5
	(سورة المزمل)	
5	انا سنلقي عليك قولا ثقيلا	14
	(سورة القيامة)	
22، 23	وجوه يومئذ ناضرة، إلى ربها ناظرة	135
	(سورة الانفطار)	
6	يا ايها الإنسان ما غرك بربك الكريم	37
	(سورة المطففين)	
2	الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون	88
24	تعرف في وجوههم نضرة النعيم	38
	(سورة الطارق)	
8	إنه على رجعه لقادر	186
	(سورة الفجر)	
24	يا ليتني قدمت لحياتي	89
	(سورة الشرح)	
7، 8	فإذا فرغت فانصب، وإلى ربك فارغب	131

(سورة العلق)		
1	اقرأ باسم ربك الذي خلق	123
3	اقرأ وربك الأكرم	123
(سورة الزلزله)		
5	بأن ربك أوحى لها	89
(سورة العصر)		
2	إن الإنسان لفي خسر	67
(سورة النصر)		
3	فسبح بحمد ربك	88
(سورة الإخلاص)		
2	الله الصمد	48
(سورة الناس)		
4	من شر الوسواس الخناس، الذي يوسوس في صدور الناس	175

فهرس الأحاديث النبوية [1]

---

(1) رتبناها حسب ورودها في الكتاب.

10	وقال > : **« كنت نبيًا وآدم بين الماء والطين »**	119
11	وقال > : **« أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها »**	121
12	وقال > : **« إني أنا النذير المبين »**	126
13	ويروي الصوفية قول الرسول: **« الشريعة مقالي، والطريقة فعالي، والحقيقة حالي »**	127
14	وقال > : **« إنه ليغان على قلبي حتى استغفر الله تعالى في اليوم سبعين مرة »**	167
15	وقال > : **« من ترك الشبهات استبرأ لذمته ودينه وعرضه، ومن واقع الشبهات فكأنما واقع الحرام »**	173
16	وقوله > : **« ولا يكون العبد من المتقين حتى يدع ما لا بأس به، حذرًا لما به بأس »**	173
17	وكان > يقول في دعائه: **« ... لا تكلني إلى نفسي طرفة عين »**	176

فهرس القوافي

	(ح)	
تباح	الكامل	75
	* * *	
بمنتزاح	الوافر	181
	* * *	
يبح	الرجز	197
	(د)	
أبيد	الوافر	47
محمود	البسيط	86
يراد	الوافر	72
سدوا	الطويل	19
يعتقده	الرمل	33
	* * *	
الفرقودا	الرجز	182
	* * *	
مشهد	الطويل	120
فؤادي	الخفيف	37
	* * *	
عهده	الكامل	36
	(ر)	
قصار	الخفيف	45
قصير	الوافر	46
فأنظور	البسيط	182
المناظر	الطويل	45
السرائر	الطويل	38
	* * *	

صغارا	الخفيف	32
افطارا	البسيط	192
تصدرا	الطويل	150
	* * *	
خماري	الكامل	33
مختاري	البسيط	199
الصبر	الطويل	68
ظفر	الخفيف	207
	(س)	
جلوسي	الكامل	120
	(ض)	
باغض	الطويل	41، 126
	(ط)	
النقط	الطويل	73
	(ع)	
خليع	الخفيف	35
ضائع	الكامل	47
	* * *	
تسمعا	الطويل	45
التوديعا	الكامل	32
	(ف)	
انطفا	الطويل	41
	* * *	
الصياريف	البسيط	181
تصانيفه	السريع	37
	* * *	

الإيجاف	السريع	75
	(ق)	
	* * *	
تحقيق	الكامل	41
عناقة	الكامل	40
	* * *	
ائتلافا	الوافر	72
	* * *	
مطرق	الطويل	99
ذائق	الطويل	47
	(ك)	
ضاحك	الطويل	32
	* * *	
تباكى	الوافر	46، 144
	* * *	
خالقك	السريع	34
أفعالك	السريع	38
	(ل)	
يطول	الطويل	44
عقول	الطويل	202
تقال	الكامل	208
يرتحلوا	البسيط	43
	* * *	
والقال	البسيط	45
المعالي	الوافر	33
نزوله	الكامل	45

ذلها	**الكامل**	**47**
مطالها	الكامل	34
	* * *	
أجمل	مجزوء الرمل	53
	(م)	
ليسلم	الطويل	155
	* * *	
دائما	الطويل	72
	* * *	
المكدم	الرجز	182
	* * *	
نعم	الكامل	190
	(ن)	
مسكن	الكامل	185
هوان	مخلع البسيط	34
عنوانها	المتقارب	44
	* * *	
وكانا	الكامل	42
الناظرونا	الوافر	133
نونا	الوافر	72
هوانا	الكامل	143
دعنا	الطويل	202
جننا	الخفيف	134
	* * *	
حزن	البسيط	58
	* * *	

أجن	المتدارك	198
المكان	مجزوء الكامل	34
(هـ)		
ألقاه	البسيط	45
* * *		
الجباه	مجزوء الرجز	146
(ي)		
كواسيا	الطويل	46
المناديا	الطويل	46
وراثيا	الطويل	65
حشائيا	الطويل	120
عليا	الخفيف	31
* * *		
معاليه	البسيط	30
مجاريها	البسيط	64
الألف اللينة		
ليلى	الطويل	48
انصاف الابيات		
لو أن عمرا هم أن يرقودا:	مشطور السريع	182



فهرس المصطلحات اللغوية

(صوتية، صرفية، نحوية)



فهرس المصطلحات الصوفية



فهرس المواضع والبلدان

فهرس الجماعات والطوائف والفرق

المتيمون: 48	المغول: 14
المجوسية: 88، 124	النورمنديون: 14
المسلمون: 14	

فهرس الأعلام



فهرس

محتويات الكتاب الأول



نحو القلوب الكبير

للإمام زين الإسلام عبد الكريم القشيري

قد له وحققه وعلق عليه
دكتور أحمد علم الدين الجندي

شارك في التحقيق
دكتور إبراهيم بسيوني



مدخل

كلانا –علم الدين الجندي وأنا – ندين بالفضل الكبير لله سبحانه – ولشيخنا وإمامنا عبد الكريم القشيري زين الإسلام في كل عصوره: فطوال اقترابنا منه منذ عهد بعيد ونحن نغترف من أفضاله وكراماته خيرًا من بعد خير.

وحينما أهلت ذكراه الألفية فتح الله علينا بالحصول على أربع مخطوطات. لكتاب نادر من كتبه – شهد له علماء المراجع والمصادر في الشرق والغرب بعلو القيمة والنفاسة، فجمعنا هذه المخطوطات من أصقاع العالم المتبعدة، ثم بدأنا منذ سنين ذات عدد نقرؤها ونعيد، ثم لنحققها، ثم لنشرحها فتحصل في آخر الأمر كتاب يحتل في الثقافة الرفيعة شأنًا كبيرًا.

ولعل أهم ما فيه هو هذه النظرة الابتكارية التي انماز بها الشيخ، إذ جعل النحو الظاهري بعناوينه الكبرى والصغرى وتفاصيله ثم أدق تفاصيله مناطًا لاستخراج كنوز ثمينة من علوم أرباب الأحوال، وإذا بنا أمام علم ثالث جديد كل الجدة هو « نحو القلوب »، وللقشيري في هذا كتابان أحدهما صغير سبق لـ « علم الدين الجندي » أن أصدره، وهذا الكبير الذي بين يدي القارئ.

ولسنا نخشى شيئًا أكثر مما يصاب القارئ للوهلة الأولى بصدمة ثقافية تنأى به عن الكتاب، وهذا شيء ملاحظ كثيرًا في أول تعامل المرء

مع كتاب تراثي رفيع المستوى، لكنه - وهذا كل شيء نؤكده تأكيدًا – سيجد نفسه مع قليل من الصبر في روضة أنيقة، بديعة الزهر حلوة الثمر.

فالقشيري معروف في الشرق والغرب على السواء بأنه صاحب قولة الحق المستنيرة المعتدلة، وأن أعمالة تمتد لتشمل علوم الكلام والتوحيد والتفسير والحديث والتصوف والتربية والأخلاق ... فضلًا عن اللغة والأدب، إذ هو شاعر ومتذوق بصير.

والله وحده يعلم كم من الجهود بذلنا حتى نخفف الأحمال الباهظة لهذا الكتاب فيصبح ميسور الفهم والمنال لدى الناس وبصفة خاصة لدى الباحثين الذين يقتربون من هذه المناطق، ويعرفون وعورة الدروب المؤدية إليها ... بحيث يمكن القول إنه لا غنى عنه للمتأدبين الأصلاء.

وكل الذي يسعدنا الآن أن يطل القشيري على الناس في حلة من حلله الرائعة، وأن يتقبل الناس هذا العمل الجليل أحسن القبول إن شاء الله.

والله الموفق وعليه الاعتماد ومنه التيسير.

د. أحمد علم الدين الجندي

د. إبراهيم بسيوني

القاهرة في رجب من عام 1414 هـ



تعريف بالكتاب وصاحبه

أولًا: الاتجاه الإشاري في منهجه بعامة

للإمام عبد الكريم القشيري منهج في التأليف ينماز بخصائص جمة، ولكننا نتوقف هنا عند خصيصة تهمنا ونحن نقدم هذا الكتاب: فنحن طوال عشرتنا ومعايشتنا معه من خلال مصنفاته نلحظ أنه يميل إلى استنباط الإشارة المحكمة ابتداء بالقرآن الكريم في لطائف الإشارات ومرورًا بالتحبير والمعراج والترتيب ... وغيرها.

هذا الخط الإشاري ينبني على أن المعاني الظاهرة في القرآن وفي العلوم العقلية والنقلية المعتمدة على اللغة والفقه والأصول والتفسير ونحوها لها معان باطنة لطيفة تخفى على الذهن العادي ولكنها تتاح للمتحققين وقبل أن نتعرف مقاصده البعيدة من هذا الاتجاه وهذه الجهود نعرض عرضًا سريعًا لبعض مصنفاته للتدليل على تعشقه لهذا المنهج من ناحية وليكون تقبله في كتابنا الجديد الذي نقدمه الآن أمرًا معتادًا. من ناحية أخرى.

فالتحبير في التذكير – كما يتضح من عنوانه كتاب معد للاستفادة منه في « الذكر » ورأى الشيخ أن أسماء الله الحسنى وصفاته هي أليق الموضوعات للذاكرين، ورأى أيضًا أن يخرج بها عن نطاقها في علم الكلام والجدل إلى نطاق جديد. فبينما كانت قضية نفي الصفات وإثباتها موضع شد وجذب بين المعتزلة والأشاعرة، وبينما شغلت قضية صفة واحدة وهي « الكلام » حيزًا ضخمًا من التاريخ الإسلامي بل قامت لأجلها فتن وفتحت سجون وعذب مفكرون إذا هي هنا على يد القشيري في « تحبيره » قلبًا

نابضًا بالحياة، منعشًا للفكر والذكر على السواء. ويتلخص منهجه في ذلك في خطوات ثابتة، فهو بعد أن يعالج الصفة « كالجبار » مثلًا من ناحية اللغة حيث يصرفه إلى « جبر الكسر » أو « إلى نخلة جبارة » أي لا تنالها الأيدي، أو إلى « الجبروت » والجبروت في حق الخلق مذموم، وفي حق الله محمود ... يبدأ باتخاذ كل معنى بداية لمعارف مخصوصة تتلاءم وكل وصف، ثم يرتب على كل صنف من المعرفة سلوكيات مخصوصة أيضًا ويبدأ على النحو التالي « ومن آداب من عرف ذلك أن يفعل كذا وكذا ... ».

معنى هذا أن منهجه اتخذ من موضوع نظري جاف اشتجر حوله الخلاف بداية لعلم عملي تطبيقي له جدوى، ويمكن أن يكون أساسًا ركينًا في الحياة الروحية للإنسان. فكأن القضية باختصار قد خرجت من نطاق محدود إلى نطاق غير محدود بمقدار ما تتسع آفاق الذكر أمام بصر الإنسان وبصيرته ... وهو بلا شك اتجاه مبتكر استفاد منه الغزالي بعد نصف قرن وهو يضع كتابًا حول نفس الموضوع وهو « المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى » إذ اتبع المنهج ذاته وتبنى الغايات نفسها.

وفي كتابه « المعراج » يتخذ من قصة الإسراء والمعراج إشارات عجيبة، الهدف منها إعلاء قدر المصطفى هذه المعجزة بطريق مقنع ممتع وهو يتابع كل نقلة من نقلاتها.

أما « لطائف الإشارات » فهو كما يتضح من اسمه يعتمد على استنباط الإشارة من النص القرآني بحيث يضيف إلى تفاسيرنا التقليدية المنكبة على الاشتغال بالعبارة: نحوًا وصرفًا واشتقاقًا ولغةً وفقهًا وأخبارًا. أشياء جديدة تغيب كثيرًا عن أفهامنا. وهو في مقدمة كتابه يعترف أن هذه ميزة لا يتمتع بها سائر الناس وأنها وقف على أصفياء الله وأوليائه: « ... أودع سبحانه صدور العلماء معرفة القرآن الكريم وتأويله، وأكرمهم بعلم قصصه ونزوله، ورزقهم الإيمان بمحكمه ومتشابهه وناسخه، ووعده ووعيده ». ثم

يستطرد مفصلًا شأن هؤلاء المرادين لهذه المهمة: « ... وأكرم الأصفياء من عباده بفهم ما أودعه من لطائف أسراره وأنواره لاستبصار ما ضمنه من دقيق إشاراته وخفي رموزه، بما لوح لأسرارهم من مكنونات، فوقفوا – بما خصوا به من أنوار الغيب – على ما استتر عن أغيارهم، ثم نطقوا على مراتبهم وأقدارهم، والحق – سبحانه وتعالى - يلهمهم بما يكرمهم ... فهم عنه ناطقون، وعن لطائفه مخبرون، وإليه يشيرون، وعنه يفصحون ... والحكم إليه في جميع ما يأتون ويذرون ».

ومن عجيب الأمر أن يطول النفس الإشاري عند الشيخ حتى يتمكن من تفسير القرآن الكريم كله سورة سوْرة وآية آية، بل أحيانًا يحلل الآية الواحدة إلى كلماتها، ويصل الأمر ذروته عند البسملة فيفسرها واحدة بعد الأخرى – وهي التي تتكرر في مفتتح كل السور بنفس ألفاظها – تفسيرًا متجددًا يليق بالجو العام لكل سورة على حدة، والإشارات المنطلقة من كل بسملة بدورها تتجدد على نحو مذهل.

غير أن مقدرته هذه تجد تفسيرًا لها في سيرته ... كما سنرى، فقد انكب على العلوم العقلية والنقلية ما وسعه، وثقف على أيدي كبار الشيوخ أمثال الإسفراييني والباقلاني وابن فورك والدقاق وغيرهم من أئمة نياسبور في أزهى عصورها كما أنه قبل ذلك وبعده أديب ... له شعر خاص وله أسلوب أدبي ممتاز، ومن هنا تذوقه للشعر خارج البيئة الصوفية والمجلوب للاستشهاد به على الموضوعات الصوفية يأخذ بدوره الطعم الإشاري المعهود، فنحس أن هذا الشعر المنقول عن المتنبي أو صريع الغواني أو العذريين قد ارتدى ثوبًا جديدًا حين ضم إلى الخمريات أو الغزليات الإلهية أو نحوها بحيث تعجز عن تمييزه في السياق الإشاري. وكتابنا هذا لا يخرج عن ذلك كما سيتضح بعد قليل ...

والسؤال الذي يطرح نفسه لماذا هذا الاهتمام بالخط الإشاري عند الشيخ في معظم تصانيفه؟

نرجئ الجواب على هذا السؤال إلى الفقرة التالية بعد أن نضم إلى تصانيفه الإشارية هذا الكتاب الجديد

ثانيًا: الاتجاه الإشاري في « نحو القلوب الكبير »

نعلم أن علم النحو هو العلم بالقواعد التي نضبط بها أواخر الألفاظ حتى يسلم الكلام وتتحقق الفائدة المرجوة منه فنأمن وقوع « اللسان » في اللحن والخطأ. وهو علم وضحي شارك فيه أفذاذ من علماء المشرق والمغرب. هذا هو المفهوم السائد الذي عرفه الناس وألفوه.

وجاء الشيخ. فأراد أن يكسب له وللطريقة بل للتدين عمومًا نصيرًا جديدًا يؤيد به حقائق تتصل « بالقلوب » لا « باللسان » وحده.

النحو علم مستقل، والتصوف بدوره علم مستقل، أما الجمع بينهما في صعيد واحد فهو علم جديد يمكن أن نسميه:

علم النحو الصوفي: أو « نحو القلوب »:

وقد بدأ الشيخ جهده في هذا الخصوص فوضع كتابًا صغيرًا خطط فيه لفكرته الأساس، واختار نماذج قليلة لتوضيح « اكتشافه » ولكنه ما لبث أن صنف هذا الكتاب الكبير ليشمل ستين فصلًا تكاد تستغرق كل موضوعات النحو المألوفة. وخضعت كلها للإشارة وعلم الباطن.

ولكي نتصور البداية العقلية لهذا الأساس علينا أن نرد فيما بيننا وبين أنفسنا مصطلحات النحو التقليدية مع استحضار التصورات الدينية في ذات الوقت فالاسم المبتدأ، وخبره، والفاعل، والفعل، والمفعول، والمرفوع، والمنصوب، والمخفوض، والوقف والسكون والجزم ... إلخ، هذه الألفاظ ذات الدلالات المعروفة، ولسوف يحدث بالقطع – من قبيل تداعي المعاني – أن نصرف هذه الدلالات ذات الرائحة النحوية الصرفة إلى دلالات عميقة كل

العمق في المفهوم الديني. فليس من شك في أننا في الوعي أو في اللاوعي سنحس بنوع من اللقاء المعنوي الحميم بين الله والمبتدأ، وبين الخالق والفاعل، وبين الكون والمفعول، وبين من هو (مرفوع) في القيمة وآخر (مخفوض)، وبين من تؤثر فيه العوامل ومن لا يتأثر ... هكذا بالتداعي بين المعاني المشتركة، تمكن القشيري أن يضع أساس هذا العلم الجديد « نحو القلوب ».

فإذا كانت الفكرة بسيطة في بدايتها فهي عند رجل كالقشيري يتحالف مع الإشارة، ويؤمن بها ويعمل لها. كما أوضحنا ... الفكرة هنا تأخذ مداها البعيد، وتتسع وتدق وتحتد وتكبر لتلد في النهاية هذا الوليد الغض « نحو القلوب ».

وأشهد أننا ونحن نتعامل مع هذا الكتاب لم نجد عنده من البداية إلى النهاية افتعالًا أو تكلفًا، بل العكس هو الصحيح فإننا كنا نسمح لأنفسنا أحيانًا أن نتابع الفكرة الكبرى للباب النحوي، ونتسرب مع التفاصيل والتفاريع كما تذكره مطولات النحو فأدهش، إذ أجد إمكان سريان الفكرة الإشارية إلى مستوى الأعماق البعيدة في أغوار الموضوع ... وقد نوهنا في الشرح بذلك ونحن شديدو الإعجاب بالرجل حتى لقد حدثنا أنفسنا كثيرًا أنه يتمتع بميزة أكبر من الفطنة والذكاء ودقة النظر ... إنها نفح روحي عميق يلهمه هذه الفتوحات ... ونحن نقول لأنفسنا: إن السر في ذلك كله أنه لا يقترب من هذا العمل إلا بيد متوضئة!

ولسنا نبالغ فيما نذهب إليه فإنا لا مصلحة لنا في المبالغة، بل إننا نقترب من هذا العمل العلمي ونحن مجردون من كل الأهواء الشخصية ... ولسوف يحث القارئ – إن شاء الله – بقيمة هذا الصنيع وتقديره حق قدره. يكفي للتدليل على ذلك قياس النتائج بمحصولها النهائي، فالشيخ قد جرب الإشارة مع معظم أبواب النحو فلم يتخل إلى عن بابي « البديل »

« والتوكيد » تقريبًا وفي كنف ذلك استطاع أن يلم بأطراف التجربة الصوفية كلها بأدق دقائقها - كما يتضح من المتن ومن الشروح ... فماذا ننتظر من الرجل لإثبات نجاحه أكثر من ذلك. أليست الحقيقة واحدة مهما اختلفت المعارف؟ ومع أن الشيخ كان يكتفي وهو يورد فقرات النحو الظاهري بسطور قلائل يراها جديرة بالاهتمام لإطلاق الإشارة نحو هدف محدد يفصح عنه أو يلغز ... إلا أن هذا القدر من النحو الظاهري يكفي الآن كي نقتحم به محاولة تيسير النحو، وتخفيفه من أثقاله التي ينوء بها شبابنا فيزوورون عن النحو وعما يتصل بالنحو إذ تنقبض نفوسهم من مناهجه وطرق عرضه ووسائل تطبيقه ... نتصور أنه يمكن الاستفادة من تجربة الشيخ في هذا التخليص كي نعيد تقديم هذا العلم بعد تنقيته من طول ومشقة لا جدوى منهما، ونكتفي بما يكن أن نسميه الحد الأدنى والضروري من النحو، ذلك القدر الذي يعلق بالأذهان ولا يكون قابلًا للنسيان عبر الأزمان ... بل يظل نافعًا في أمورنا الحياتية عند التحدث وعند الخطاب وعند القراءة والكتابة ... تلك فائدة محققة من هذا الكتاب. ومع ذلك فإن هذا ليس الهدف من تأليف الكتاب ... فلم يكن في الواقع يطمع إلى زيادة كتب النحو كتابًا جديدًا فهو يعلم أن مكتبة النحو متخمة ... إنما كان يهدف حسب خطه الفكري في كل مصنفاته أن حول العلم إلى عمل والنظرية إلى تطبيق، والمبادئ إلى سلوك ... هذا جزء أساسي في تخطيط تصنيفه .. فكيف تم له ذلك؟

استحضر الشيخ في ذهنه الجزئية التي يريد أن يتناولها في فصل « النحو » وانتقى من كل التراكمات النحوية الكثيرة ما يكفي لسلامة « اللسان » من الخطأ واللحن، وأوجز ذلك في عبارات مركزة كأنه يصوغ دستورًا ذا مواد محددة ضابطة، بلا حشو ولا استطراد. ثم صاغ لأجل أهل « القلب » - ما يناظر ذلك تمامًا – شيئًا نافعًا في العلوم الصوفية من الناحيتين النظرية والعملية. وخرج من هذا التنظير بشيء ممتع مقنع

للمريدين والسالكين والواصلين. وظل هكذا ينتقل بين الستين فصلًا من فصول النحو واضعًا نصب عينيه أن يضيف جديدًا في كل فصل، بحيث يكون استجماع هذين المحصولين المتوازيين في نحو اللسان ونحو القلب ثروة ثمينة في نهاية الأمر.

وكأني بالشيخ بعد كل هذه الجهود يريد أن يقول للمريد:

هأنت بعد هذا قد أدركت أن كل صغيرة وكبيرة في علم من العلوم العقلية التي يتحمس لها أهلها لها أصل عندك في العلوم الصوفية، وبكلمات أخرى: فإن علوم الصوفية ليست بدعة ... وإنما هي مستمدة من أصول مألوفة تعارف الناس على احترامها وتقديرها ... وهكذا ... ما يصدق على النحو يصدق على الفقه، التفسير والأصول، والكلام ... وكل العلوم التي في خدمة الشريعة:

وبالتالي فإن الشريعة والحقيقة تتلاقيان، فهما وجهان لشيء واحد، فالحقيقة بيت والشريعة بابه، ولا دخول للبيت إلا من الباب، فأي تقصير في أحدهما على حساب الآخر « فغير مأمول وغير محصول » ولو وصلت في الكرامة حتى طرت في الهواء أو مشيت فوق الماء فسننظر أولًا في موقفك من الشريعة، وأي تقصير لك فيها ولو في هينة منها يذهب بك وبكرامتك أدراج الريح!

ذلكم هو المقصد الأسمى والأسنى لهذا الإمام الجليل من كل منهجه الإشاري، اعتراف كامل بفكرة الظاهر والباطن، وإتاحة الفرصة أمامهما ليتبادلا النفع ... نفع العابدين والسالكين ... بل المتدينين بصفة عامة، والذائقين بخاصة. وإذا كان توضيح الأمور « الحقيقة » بواسطة علوم « الشريعة » هدفًا، وإذا كان « الحب الإلهي » هو جوهر هذه « الحقيقة » ...

فكأن هذا الكتاب في الواقع إنما جاء لتصنيع فكرة هذا الحب، وبيان

أشواقه ومكابداته، وتفتيح الأبصار والبصائر أمامه كي يقوم بدوره العاطفي النبيل في تجميل الحياة أمامنا، وتنظيم مجتمعاتنا ...

وتستطيع أن تتمثل قيمة هذا الدور لو تخيلت الناس وقد أقاموا علاقاتهم الحياتية على أساس محبة الله ومحبة بعضهم بعضًا ... تلك المحبة التي تعطي للوجود طعمًا، وللتحرر مذاقًا ... وبدونهم تصبح الحياة أشبه بغابة موحشة تمتلئ بالصخور الرخامية الباردة وتعج بالوحوش الكاسرة!

وهكذا تحول النحو – ذلك العلم الجاف الذي يشق على الدارسين – إلى واحة وارفة ذات ميلاه وظلا – ونسائم وخيرات، فيها ينتعش القلب والروح والسر، ويزدهر الجمال والجلال، وتنمو العاطفة المشبوبة صاعدة نحو « المنعم » شاكرة له مثنية لعيه، وعلى نعمه (ظاهرة) و (باطنة).

ثالثًا – خطتنا في الشروح

لو ترك القارئ – في مواجهة مع المتن وحده بدون الشروح لأخافه الإيجاز المركز والإشارة المبهمة وربما أزاحه بعيدًا دون أن يعطيه قدره الحقيقي. وربما أيضًا يكون في ذات الوقت له عذره، فالشيخ لم يكتب كتابه لأي قارئ، وإنما للمريدين، وليس لكل المريدين بل لمن لهم خبرة بحقائق علم النحو من ناحية وبقضايا علم القلوب من ناحية ثالثة وبالقدرة على تنظير هذه بتلك حتى يتم الاستمتاع والاقتناع ... ونتصور أنهم قلائل – من حيث العدد – في كل زمان ومكان.

فإذا جئنا نحن الآن في هذا العصر ووضعنا في غاياتنا أن ندنو بالكتاب من أكبر عدد من الناس كي نعرفهم – وهذه مهمتنا الأساس – بالشيخ وأفضاله فإن ذلك يلقي علينا عند شرح الكتاب مهام ثقيلة ... نعترف أننا تخوفنا من حملها في بداية الاقتراب من هذا العمل.



لم تكن المهمة سهلة ... لأن استنباط الإشارة من العبارة أمانة علمية يلزم الوفاء بها قدر الوسع، ثم إن صياغة الشرح تحتاج إلى أسلوب واضح يتيسر للكافة فهمه. وقد تكون مهمة الشراح في الزمن القديم أسهل منها في عصرنا، لأنهم كانوا جميعًا – المؤلفون وشراحهم يعيشون في زمن واحد أو متقارب، وكانت أنماط الثقافة في عصورهم غير بعيدة عما يصدر من مصنفات، وللناس اعتياد على ذلك كله – أما نحن فهناك ما يشبه القطيعة بين تراثنا القديم وبين ثقافاتنا الحاضرة ... ونزعم أن النتيجة – إن شاء الله – كانت لصالحنا، فقد أصبح ممكنًا أن يوصف هذا العمل بأنه من نماذج الأعمال القديمة المعروضة في أسلوب معاصر بعيدًا عن الإعنات والمشقة ... ونزعم كذلك أن خبرتنا خلال مصنفاته قد ربت لدينا حسًا حتى بما يريد أن يقوله لا لما يقوله فقط ... فتلك أجل الثمار التي جنيناها من طول خدمتنا له.

ومع ذلك كله فيبقى الأمر من الناحية العلمية المحضة أن الشروح تنبني على التذوق والذوق شيء ليس في الكتب، فمن حق القارئ الواعي أن يتقبل ما ذهبنا إليه، وأن يرفضه، وأن يقدم جديدًا في فهمه ... وفي جميع الأحوال نحن نتقبل النتائج بصدر رحب. فيكفينا أن نشغل أفهام الناس بشيخنا، وأن نجعله منطلق تفكيرنا ... فذلك حسبنا.

والعمل رمزي إشاري ... وكلاهما ملغز، وربما يدفع ذلك إلى الهيام في أودية شتى، فكان رائدنا أن نتفهم بداية الدرب في كل فصل، ثم ننطلق في حدود مرسومة دون استطراد أو إملال أو افتعال أو مخاطرة.

ونحن الذين رقمنا الفصول ووضعنا لها العناوين ... ولم يكن ذلك بالمتن، كما أننا قمنا بوضع علامات الترقيم وترتيب الأسطر بحيث تغدو مفهومة عند قراءتها الأولى ... وليس هناك شيء من ذلك في المتن أيضًا.

والكتاب يتكون مت ستين فصلًا تستوعب موضوعات النحو التقليدية ما عدا التوكيد والبدل.

وليس بالضرورة – كما يرى الشيخ – أن يكون الفصل ذا أصل كبير، فقد يجد في شيء صغير (كواو عمرو) أو ألف الوصل أو دخول (ما) في كثير من أبواب النحو ملحظًا يستحق إشارة نافعة ومهمة فيغتنمه.

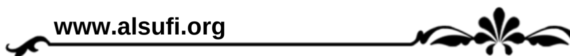
ولاحظنا أيضًا أن الشيخ – وهو بصدد التركيز – قد تجنب المسائل التي يشتجر حولها الخلاف عادة بين النحاة، فاجتهد أن يختار على نحو انتقائي الثوابت التي لا خلاف حولها تاركًا ذلك لمن يريد أن يمخر عباب النحو في مظانه ... فالمهمة هنا مختلفة إذ إن ذلك شيء لا يعنيه.

وفي معظم الأحيان كان استخراجنا لمفهوم الإشارة محددًا بحدود العبارة، ولكننا كنا نجد أنفسنا أحيانًا أمام عبارات لها صفة التعميم بحيث يمكن أن يدخل تحت العام خصوصيات كثيرة، فكنا نقدم الاحتمالات التأويلية الممكنة، ونساير كل احتمال إلى آخر مداه ... لأن الحدس بواحد فقط غير مأمون العاقبة.

ونحاول في الشروح تقديم أنماط شتى لأسلوب العرض، فأحيانًا نجد الموقف يتطلب بسطة في قضايا من علم الكلام، أو من علم النفس أو الشعر، أو القصص، أو الأسانيد عن الشيوخ ... ونحو ذلك وقد اخترنا هذا التلوين في وسائل العرض لمقتضيات الأمر من ناحية ولمحاولة التخفيف عن القارئ ودفع السأم عنه من ناحية أخرى.

ونلجأ إلى تفريعات في « نحو الظاهر » تتطلبها الإشارة كي يزداد التنظير إحكامًا، ونتجنب ذلك إذا لم تدع إليه الضرورة، وسيجد القارئ الذي يعنيه أمر النحو الظاهر فقط أننا وفينا الكيل ولم نطفف ... إذا وازن بين كفة العبارة وكفة الإشارة.

ولم نشغل أنفسنا بقضية تحقيق انتماء الشيخ نحويًا إلى مدرسة البصرة أو الكوفة أو بغداد أو المغرب لأن ذلك ليس في حسابنا هنا، وربما تصدى لذلك باحث غيرنا، لأننا وجدنا الشيخ يهتم بالقواسم المشتركة بين



النحاة، ولا يطمح أن، يكون امتدادًا للمطولات أو طرفًا في الخلافات. ولكن ذلك لم يمنع أن ننبه أحيانًا إلى ما نلاحظه على منهجه، وعلى مصطلحه لأننا شعرنا أن معايشة المسائل العقائدية والمفاهيم الصوفية قد أورثه رؤية خاصة لمعنى (الفاعلية) و
(الابتداء) و (الرفع والنصب والخفض والجزم والسكون) ... إلخ، فالجرس اللغوي للفظة يقع في سمعه وعقله ووجدانه موقعًا متفردًا بحكم الخلفية الثقافية التي يحملها، وهكذا تحولت معطيات النحو إلى مردودات له، وتم التفاعل بين المفكر وموضوع تفكيره فكانت الثمرة ثراء البحوث النحوية بظهور تفسيرات جديدة، ربما كانت عونًا على فهم جديد لمشاكل نحو الظاهر ... وقد نبهنا إلى ذلك في شروحنا في مواضع شتى.

وقد أدت الأقواس « » و () أدوارًا مهمة في الشروح، فالأولى للقرآن والحديث والأسانيد، والثانية لما له أهمية في عملية التنظير والمقايسة.

ونعتذر إذا لم يتم ذلك عند الطبع على وجه الكمال.

وأخيرًا. فإنه للوهلة الأولى قد يحسب القارئ أننا قد وقعنا في ورطة التكرار في الشروح، ولكن ليس في الأمر تكرار مطلقًا، فطبيعة الموضوع تفرض أن يطل الشيء برأسه في أبواب النحو أكثر من مرة أو من مرتين ... خذ مثلًا (المرفوع) ومعناها في العبارة (و الإشارة)، فهذا الاصطلاح يتكرر بلفظه في المبنى والمعرب وفي الاسم وفي المبتدأ والخبر واسم كان وخبر إن الفاعل ونائب الفاعل ... فإذا كان الأصل أن
(المرفوع) له الرفعة لأنه ليس فضلة وأنه أساس أو عمدة أو ... أو ... فاستحق (الضم) الذي هو أثقل الحركات، لأن المهام تتلاءم مع أصحابها ... إلى آخر ذلك فإن من المتوقع أن يكرر الشيخ ذات الملاحظة في المتن وفي الإشارة، وقد تغلبنا على هذه المشكلة – خوفًا على القارئ من الملالة – فكنا نسعى إلى التماس جديد نضيفه في هذه المواقف التي تكاد تتشابه، بحيث بدا الأمر وكأنه لا تكرار، وكانت ذخيرتنا في ذلك المقتطفات التي نستجلبها من كتب الشيخ الأخرى



أو من أقوال الشيوخ أو من شعر الإنشاء والإنشاد عند الصوفية ... المهم عندنا أن نضيف جديدًا يفيد ويمتع.

رابعًا – صاحب الكتاب

عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد القشيري. وكنيته أبو القاسم ولقبه زين الإسلام وشهرته القشيري وأمه سلمية. وكان ميلاده في (أستوا) إحدى قرى مدينة نيسابور. وتلقى تعليمه الأول ودراساته الدينية في قريته.

وهو عربي النسب من جهة أبيه ومن جهة أمه، فهو بهذه العروبة التي تجري في دمائه أحسن الردود على من يتهمون التصوف بأنه نتاج عناصر أجنبية غريبة عن العرب والعروبة.

ترك القشيري قريته استوا وذهب إلى نيسابور ليتعلم الحساب كي يشارك مع لفيف من أهل قريته في إصلاح موازين الاقتصاد بها بعد ما اختلفت نتيجة ثقل الخراج المفروض عليها.

ولكنه في نيسابور غير مسار حياته للمرة الأولى، وذلك حينما وجد نفسه في بيئة علمية خصبة شدت كل اهتمامه، ودعته للانغماس فيها، والتزود بزاد العلم في المعقول والمنقول، تلقى الفقه على يدي الإمام العظيم الإسفرايين وأصول الفقه على ابن فورك، والمذهب الشافعي على يدي أبي بكر الطوسي. وإلى جانب ذلك غشي مجالس اللغة والأدب والنحو والعروض وكتب دروسها، كما قرأ مصنفات الباقلاني.

ومعنى هذا أنه تسلح بسلاح الثقافة المألوفة في عصره عند أوثق أربابها، ومعنى هذا أيضًا أنه قبل أن يلج حومة التصوف كان معدًا أحسن إعداد لفهم الشريعة والحقيقة وما يتصل بهما من معارف وضعية وهذا أيضًا من أحسن الردود على من يتهمون الصوفية وكتاب التصوف



بالجهل والشطط والبعد عن الجادة، وإنهم يأمرون تلامذتهم بكسر محابرهم!

وتلعب الصدفة وحدها لتغيير حياته للمرة الثانية ...

فقد كان ذات ليلة يحضر مجلس الشيخ أبي علي الدقاق الذي كان يتحدث في « علم القلوب » ومذهب أصحاب الأحوال والمذاقات والمواجيد، والشريعة والحقيقة وما بينهما من تواصل واتصال ... إلخ، وإذا بالرجل والحديث يستوليان عليه على نحو عجيب غريب. ولم يستطع بعد ذلك مفارقة هذا المجلس وصاحبه ... وهو يستمع على الدوام إلى هاتف من أعماقه: أنك لهذا خلقت!

وحينما اقترب من الشيخ وبسط له بعض حاله، وشكا إليه أنه يعجز عن التوفيق بين مجلسه ومجالس العلوم العقلية والنقلية أشار عليه الشيخ أن يواصل إتقان هذه العلوم إلى درجة الاكتمال ...

ومن هذه النصيحة نعرف عنصرًا مهمًا في المذهب الصوفي للشيخ القشيري فيما بعد: هو وجوب تصحيح البداية وتكريس الإيمان بقدر الوسع من الثقافة المنقولة والمعقولة قبل الولوج إلى عالم التصوف حتى يكون البنيان سليم الأساس.

ومن هنا نعرف أيضًا – بالنسبة لكتابنا هذا – أن صاحبه جدير بحمل أمانة علم « كالنحو »، فهو متقن له أشد الإتقان، ومتمكن من أصوله وفروعه بقدر يسمح له أن يوظفه لخدمة أرباب الحقائق على نحو مأمون.

ولم يستطع الشاب الافتراق عن الشيخ ... وبادله الشيخ حبًا بحب، وأولاه عنايته ورعايته، وأعجب بسجاياه حتى جاء وقت رضي أن يزوجه بابنته الوحيدة فاطمة التي أنجب منها القشيري ستة أبناء كلهم عبادلة وكلهم أئمة وكلهم من أرباب الأحوال كما أنجب ابنته (أمة الرحيم) أم عبد الغافر الفارسي صاحب تاريخ نيسابور الشهير.

وكان أثر الدقاق في القشيري بعيدًا جدًا، وآية ذلك أن اسمه لا يغيب عنه في مصنفاته مشفوعًا بالتقدير وبالترحم.

وكان زواجه موفقًا وحياته الأسرية مستقرة ... الأمر الذي ساعده على أن يكون مفكرًا سوي المزاج، بعيدًا عن التعقيدات والصراعات، واضح الرؤية، مستمسكًا بآداب وقيم حافظ عليها طوال حياته وتظهر جلية في كل مصنفاته.

ثم يأتي التحول الثالث ... وهو هذه المرة يتمثل في قوة غاشمة ظالمة من خارج محيطه العائلي والعلمي والاجتماعي. ذلك أن القشيري – شأن الأشاعرة جميعًا – نكبوا ذات يوم نكبة داهمة، وكان ذلك حينما نجح الوزير اللعين الكندري في استصدار أمر من السلطان (طغول) بسب المبتدعة فأجاز له السلطان، وإذا بالكندري يضيف اسم أبي الحسن الأشعري إلى المبتدعة، ويجري ذلك على منابر نيسابور في وقت واحد. وحدثت فتنة هوجاء، وهاج الناس، وشارك الجيش في الصدام ... وتعرض القشيري وأصحابه للإهانة والضرب والتعذيب، وكان صدى هذه الفتنة لدى السلطان – حين تلقاه فاترًا، فخاب أمل الأشاعرة، ووجدوا أنه من الخير ترك الأهل والديار والنزوح إلى بعيد خارج الوطن.

وهو يشير إلى هذا الذي حدث له من بعيد في بعض مواضع من كتابه هذا خصوصًا في فصوله الأخيرة. وقد نوهنا بذلك في موضعه من الشروح.

واستقر المقام بالمنفيين إلى جوار المصطفى الحبيب صلوات الله عليه وسلامه، وظلوا على هذه الحال عشر سنوات كاملة.

وجاء وقت ... اتفق فيه الجمع علي أن يحسموا خلاف الرأي بينهم في العودة أو المنفى عن طريق اختيار واحد منهم يقول كلمته وتكون هي كلمة

الجمع التي لا نقاش فيها ... وتم ذلك، وكان المختار لهذه الكلمة الحاسمة المسموعة ... القشيري ... ولا أحد غيره.

وقف القشيري يخطب في الناس ولا يدري بماذا يشير ... وإذا به فجأة ينكشف له بفراسته على البعد أن (الكندري) قد انتهى عهده وسقط النظام كله (وجاء ألب أرسلان) ... فهتف فرحًا:

يا أهل خراسان بلادكم بلادُكم إني لأرى خصمكم يقطع الآن إربًا إربا ويرسل كل عضو منه إلى ناحية بعيدة ... هيا هيًا إلى خراسان!

ويقول السبكي في طبقات الشافعية: وضبط اليوم والتاريخ والساعة وإذا بدعاء الشيخ يستجاب وتتحقق الأماني.

وعاد القشيري إلى وطنه نيسابور وقضى السنوات الأخيرة من عمره من 445 هـ إلى 455 هـ في هدوء واستقرار وتتالت مصنفاته، وكثر تلاميذه، وعمت بركاته.

ودفن إلى جوار شيخه الدقاق في مدينته الحبيبة نيسابور في عام 465 هـ رحمه الله رحمة واسعة.

خامسًا – توثيق الكتاب ونسخه

أتيح وأنا أنقب عن آثار الشيخ إبان إعداد لأطروحة الدكتوراه أن أجد في كثير من كتب الببليوجرافيا والمصادر التي تحدثت أن له كتابين أحدهما باسم: نحو القلوب الصغير والآخر باسم نحو القلوب الكبير (تذكرة النوادر وكشف الظنون ومفتاح السعادة وطبقات الشافعية فضلًا عن بروكلمان) كما أشاروا إلى أن الأول صغير الحجم وتوجد منه نسخ قليلة مبعثرة في أرجاء العالم، أما بالنسبة للثاني فهو (سفر نفيس جليل القدر غير أنه مفقود).

وتحدث مصادفة عجيبة ... إذ أعثر ضمن سلاسل المجاميع على واحدة برقم (116) في دار الكتب بباب الخلق على كتيب يتألف من خمس ورقات مجهولة النسب فلا نعرف صاحبها ولا ناسخها ولكن بالقراءة المتأنية وجدنا تعويلات على الإمام القشيري وكيف أنه يرى كذا وكذا. وتدور هذه الآراء حول إخراج النحو الظاهري إلى نحو التصوف، والمقارنة بين الظواهر النحوية والمسائل القلبية. فاكتفينا من الكتاب بهذه النصوص القليلة المسندة لإبراز فكرة الشيخ في الموضوع برمته: التنظير بين النحويين وأدخلنا ذلك في حسابنا عند وصفه منهجه في التأليف بعامة.

وفي وقت متسع لاحق أمكن الحصول على بيانات كافية عن معظم ما يعرفه الناس عن مخطوطه « الصغير ».

فهو غالبًا ما يبدأ على هذا النحو:

كتاب نحو القلوب الصغير:

للأستاذ أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري المتوفى سنة 465 هـ.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أودع الحكمة أهلها، وعلم آدم الأسماء كلها ...

(المتن).

نذكر ذلك هنا حتى نعاون الباحثين على التمييز بين الكتابين، كما ننوه بإشارات خفيفة عن كل ما نعلم عن مخطوطات خمس للصغير حتى يزداد التيقن من توثيق الكبير ... الذي سنتحدث عنه بعد قليل.

مخطوطات « نحو القلوب الصغير »:

1 – مخطوطة بمكتبة أحمد تيمور رقم 196 تصوف تقع في 12 صفحة،

والصفحة 13 سطرًا والناسخ يرد اسمه في الصفحة الأولى وهو محمد بن حسني الشابي التونسي.

2 – مخطوطة بمكتبة طلعت رقم 242 مجاميع بدار الكتب المصرية ومنها ميكروفيلم بدار الكتب المصرية رقم 9655 من ورقة 17 – 22 وكتبت بخط حسين رضا الوزير في آخر ربيع الآخر عام 1319 هـ. ومتوسط سطور الصفة 10 أسطر، وخطها فارسي مضبوط، وتقع في مجموعة أنيقة تسمي (علبة الآداب) وفيها رسالتان إحداهما نحو القلوب الصغير للقشيري والأخرى رسالة في اللغة لأحد العلماء.

3 – مخطوطة حديثة العهد بدار الكتب المصرية برقم 24455 ب مساحتها 200 x 145 مم مربع. وتقع في ست صفحات بكل صفحة خمسة أسطر، وعناوينها بالمداد الأحمر، وعلى صفحتها الأولى اسم الناسخ: وهو محمود الجبالي.

4 – مخطوطة للناسخ السابق، على ورق سميك أصفر، ومكتوبة بخط الرقعة بالمداد الأسود ومؤرخة بالثالث من رمضان 1344 هـ الموافق 17 مارس 1936 م وهي خالية من الترقيم.

5 – مخطوطة بمكتبة (عارف حكمت) بالمدينة المنورة رقم 26 مجاميع وتقع في ثلاث ورقات ضمت سبع رسائل خطية بالنسخ الجميل ومطرزة الصفحات بإطار من الخطوط السوداء المذهبة.

وقد حقق هذا الكتاب الدكتور أحمد علم الدين الجندي – وطبع في مدينو تونس 1397 م – 1977 م.

مخطوطات « نحو القلوب الكبير »

تتفق جميع النسخ التي بين أيدينا على أن البداية الحقة للكتاب هي:

« النحو في اللغة القصد إلى صواب الكلام.

يقال: نحوت نحوه أي قصدت قصده، فنحو القلب القصد إلى حميد القول ... إلخ ».

أما الاختلاف فيقع فيما بين البسملة وهذه البداية، وهو خلاف لا يؤثر، لأنه راجع إلى الناسخ الذي يكرم الكتاب أو صاحبه حسبما يرى، أو ربما لصاحب النسخة أو أحد قرائها.

وإليك النسخ ومصادرها وكلمة قصيرة عن كل منهما، ولكنها كافية في التعريف بها وتوثيقها.

1 – نسخة:

برقم 1593 تصوف، مكتبة طلعت ونرمز لها بالرمز (ط) وهي ضمن مجموعة، وتأتي تالية لكتاب بعنوان:

« شرح محاسن المجالس والرفيق المؤانس ».

للشيخ الإمام ابن العريف الصوفي } ونفع به آمين ويليه بعد ذلك كتابنا: (نحو القلوب) للإمام القشيري } وتسير ديباجته على هذا النسق:

كتاب نحو القلوب. تأليف الأستاذ الإمام الأوحد، والشيخ القدوة:

جمال الإسلام أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن محمد بن طلحة القشيري النيسابوري } آمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

بسم الله الرحمن الرحيم وبه ثقتي

قال الأستاذ أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري رحمه الله وبه ثقتي:

النحو في اللغة القصد إلى صواب الكلام ...

2 – نسخة تركية:

وقد رمزنا إليها بالرمز (ب) إشارة إلي (بورصة) وهي قرية صغيرة تقع على مقربة من البحر الأسود في تركيا. والنسخة محفوظة بمكتبة خراججي أو غلو زاده، برقم 109.

وهي تأتي تالية لكتاب بعنوان « مفتاح التنزيل في خلاصة التأويل » لأبي الفضل محمد بن محمد بن أبي القاسم البقالي وهي خالية من التنقيط ورديئة الخط، ومضغوطة الحروف وبالتالي فهي عسيرة في القراءة، وفيها بعض سقوط في المتن، ولكنا أفادت فيما يمكن أن يكون في غيرها من اشتباه أو حذف، وتقع في إحدى عشر ورقة من الحجم الكبير.

3 – النسخة التونسية:

وقد رمزنا لها بالحرف (ت)

وهي أكثر وضوحًا من سابقتيها وتبدأ على النحو التالي:

« بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم، قال الإمام المحقق الجليل أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري تغمده الله برحمته آمين:

النحو هو القصد إلى صواب الكلام ...

4 – النسخة السورية:

ونرمز لها بالرمز (س)

وديباجتها بعد البسملة والحمدلة: قال الأستاذ الإمام زين الإسلام وناصر السنة، وناصح الأمة أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري رحمه الله رحمة واسعة:

« النحو في اللغة: القصد إلى صواب الكلام »

5 – نسخة الإسكندرية:

ونرمز لها بالرمز (ك)

وتحمل صفحتها الأولى رقم ورود الكتاب إلى كتبخانة الإسكندرية التابعة لمجلسها البلدي شارع محرم، وهو 7632 والرقم المسلسل 2129 د وعلى الصفحة ذاتها نقرأ هذه الكلمات:

« الأصول في نحو أرباب القلوب تصنيف الإمام العالم الأستاذ أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري } وأرضاه ».

وتبدأ الصفحة التالية بالبسملة ثم الحمدلة ثم الصلاة على سيدنا محمد خاتم النبيين ثم: قال الأستاذ أبو القاسم عبد الكريم القشيري رحمه الله تعالى: النحو هو القصد إلى صواب الكلام ...

وهكذا يتأكد لنا توثيق الكتاب من ناحية وتمييزه عن « الصغير » من ناحية أخرى، وتتأكد لنا نسبته إلى صاحبه، وقد تضافرت النسخ بعضها مع بعض في توضيح المتن، ونحمد الله أن كثرتها قد جنبتنا كثير من الصعاب وحالت دون ظهور المشتبهات.

ولم نحاول أن نخرق الهوامش في أثناء التحقيق بتعليقات طويلة حتى لا نرهق القارئ، وأحلنا ذلك على باب الشروح.



صورة

الصفحة الأولى من النسخة التركية « طلعت » تصوف رقم 1593 ونرمز لها بحرف (ط)

صورة

مقدمة النسخة التركية « طلعت » تصوف رقم 3951 ونرمز لها بحرف (ط)

صورة

مقدمة النسخة التونسية ونرمز لها بحرف (ت)

صورة

مقدمة النسخة السورية ونرمز لها بحرف (س)

القسم الأول

تحقيق الكتاب

النسخة	الرمز
نسخة (طلعت)	ط
النسخة التركية (بورصة)	ب
النسخة التونسية:	ت
نسخة الإسكندرية:	ك
النسخة السورية:	س

تنبيه: يرجع إلى الفهارس طلبًا لمعرفة الصفحة المطلوبة لشرح المتن عند نقطة بعينها.

ومع ذلك فإن المتن معاد في قسم الشروح تسهيلًا على القارئ.

بسم الله الرحمن الرحيم

(وبه ثقتي) [1]

الحمد لله رب العالمين، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم. قال الأستاذ أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري – رحمه الله:

فصل [1]

النحو (في اللغة) [2] هو القصد إلى صواب الكلام، يقال:

نحوت نحوه أي قصدت قصده (وهذا النوع في العربية يسمى نحوًا لأنه القصد إلى صواب الكلام) [3].

فنحو القلب القصد إلى حميد القول بالقلب [4] وحميد القول مخاطبة الحق بلسان القلب، وينقسم ذلك إلى:

المناداة والمناجاة، فالمناداة صفة العابدين، والمناجاة نعت الواجدين، المناداة على الباب، والمناجاة على بساط القرب [5]، فموقف العابد أبواب الخدمة، ومربع [.] [6] الواجد بساط القربة [..].

---

(1) لم ترد في بقية النسخ، ولا نستبعد وجودها في الأصل جريًا على عادة الإمام القشيري في إرداف البسملة بدعاء من هذا القبيل (انظر اللطائف مثلًا حيث تتلو البسملة عبارة: رب يسر).
(2) لم ترد في بقية النسخ.
(3) لم ترد في بقية النسخ.
(4) هكذا أيضًا في ك و ت ولكنها في س (باللب) ونحن نرجح (بالقلب) لأن الشيخ في بقية مصنفاته يتحدث في هذا السياق عن ذكر اللسان وذكر القلب.
(5) في س (الاقتراب) وهي وإن كانت تراعي الفاصلة إلا أننا آثرنا التقيد بمصطلحين للأحوال: (البعد والقرب).
(6) بفتح الميم وفتح الباء، في س (مرتع) وكلاهما مقبول في السياق.
(.) بفتح الميم والباء. (..) بضم القاف.



فصل [2]:

الكلام اسم، وفعل، وحرف جاء لمعنى:

وفي نحو (القلوب) [1]: الاسم هو الله [2] والفعل ما كان من الله، والحرف إما [3] يختص بالاسم فيوجب له حكمًا، أو يختص بالفعل فيقتضي له نسبة، وكما أن الحرف [4] إذا دخل على اسم أوجب له إما حكم النصب أو الخفض أو غيره، فالوصف الذي هو العلم (مثلًا) يوجب الله حكم العالم ... وكذلك القدرة والحياة [5] وسائر صفات الذات.

وكما أن من الحروف ما يوجب للفعل حكم النصب [6] والجزم فوقوع أفعال الحق على أوصاف يوجب له نعت الاسم [7] في الخلق.

---

(1) وردت (القلب) في بقية النسخ.
(2) أردف لفظ الجلالة بـ (تعالى) في س.
(3) جاءت (ما) في س و ت والصواب ما أثبتناه في المتن.
(4) في س (الحروف) والسياق يقتضي الإفراد.
(5) في س (إلى سائر) وهي مقبولة في السياق أيضًا.
(6) في س (أ و).
(7) هكذا في بقية النسخ ما عدا (ت) فهي (الكسب)، والصواب أن تكون (الاسم) لأن الكسب للعباد وليس لله الذي هو (الاسم) كما قال في مفتتح الفترة (الاسم هو الله).

فصل [3]:

والاسم في نحو القلب ما كان مخبرًا عنه في مخاطبة الحق [1]، والفعل ما كان خبرًا في مخاطبة العبد مع الحق.

والحروف رباطات تتم بها فوائد نطق القلب.

فصل [4]:

والكلام المفيد ما كان اسمًا واسمًا [2]، أو فعلًا واسمًا وما عداه من الأقسام غير مفيد.

وفي نحو [3] القلب مفيد وغير مفيد، فغير المفيد ما ليس لله، والمفيد ما يسمع من الحق أو يخاطب [0] [4] به الحق، وما سواه فلغو.

ويقال [5]: المفيد إما دل على الذات، أو أشار إلى الصفات، أو كان عبارة [6] عن المصنوعات ... هذا هو التقسيم الحاوي لجميع المعاني، لا يشذ عنه قسم من أقسام الخطابات الذي هو مفيد.

---

(1) مشطوبة في ك ثم صححها الناسخ (الحق) وهذا هو الصواب.
(2) في ك (اسمان) وهي خطأ – كم لا يخفى.
(3) في ك (وفي نطق) القلب.
(4) يمكن بناء على مقدمة الفقرة في مسألة الخطاب، وبناء على ما سيأتي من توضيح في الفقرة التالية. أن نضبطها (يخاطب) بكسر الطاء وفتحها، فالعبد يخاطب الحق بالصلاة والنجوى والذكر والدعاء ونحو ذلك، والحق سبحانه يخاطب العبد بالوحي إن كان نبيًا وبالكشوفات إن كان وليًا.
(.) بفتح الطاء.
(5) ننبه إلى أن قوله (ويقال) لا يعني إيرادًا لرأي باحث غير المصنف، وإنما هي عادة عند الشيخ حينما يرى رأيًا جديدًا يختلف عن الوجه الذي ذكره.
(6) يقصد بها (تعبيرًا) عن المصنوعات.



الإعراب والبناء

فصل [5]:

الكلام ينقسم إلى معرب ومبني، والإعراب تغير آخر الكلمة لاختلاف العامل إما بحركة أو سكون أو حذف.

والبناء أن يلزم آخر اللفظة إما حركة أو سكون.

ونطق [2] القلب إما بلفظ [3] يراعى فيه توقيف الحق، أو قالة [4] أذن [.] فيها الحق تصريف الخلق [..]، فالأول ما تسمع بقلبك فتقف عند ذلك بلا تكلف منك [5]، والثاني ما تناجي به مولاك على مقتضى ما تجد فيه من إشارة البسط، فأحدهما حال جمع، والثاني حال فرق.

---

(1) في ت (باختلاف) وهي مقبولة أيضًا.
(2) في ت (ويكون بالقلب) أي ويكون الإعراب والبناء في نحو القلب.
(3) في س (نطق القلب ينقسم إما ...) وفي ك (ونطق القلب إما لفظ).
(4) في ك (ما له) وهي غير ذات معنى، أما في ت فهي (حالة) ونحن نؤيد قالة أو حالة على أساس أن الأذن بالقول في حال الفرق – أي عند الرد إلى حال العبودية والتصريف حتى يستكمل العبد ما تتطلبه الشريعة منه وهو في حال جمع الجمع – يربط القالة بالحالة.
(.) بفتح الهمزة وكسر الذال.
(..) بفتح الخاء وسكون اللام.
(5) هذه هي الصواب، وقد استعملها القشيري في (رسالته) ولهذا فنحن نستبعد ما جاء في ك (بلا تكلف منكر) فالراء زائدة في الخط.

فصل [6]:

وجوه الإعراب أربعة: الرفع والنصب والخفض والجزم. وللقلوب هذه الأقسام، فرفع القلوب قد يكون بأن ترفع قلبك عن الدنيا وهو نعت الزهاد. وقد يكون بأن ترفع قلبك عن إتباع الشهوات [1] والمنى. وهو نعت العباد [.] وأصحاب الأوراد والاجتهاد.

وقد يكون بأن ترفع قلبك عنك وتعتقد أنه لا يجئ [2] منك شيء – وهذا نعت أصحاب الانكسار [3]، وأرباب الخضوع والافتقار.

وقد يكون [4] برفع القلب إلى الحق، وتصفيته عن شهود الخلق.

وقد يكون برفع يدك عن الحرم ثم برفع ما تضمره من إثبات الأنام [5] ثم ترفع يدك إلى الله بسؤال الحاجات [6]، ثم ترفع الحاجات عن إحكام المحبة حتى تكون بالله لله، تمحو ما سوى الله [6].

---

(1) هكذا في كل النسخ ما عدا ت فقد سقطت عبارة (وقد يكون بأن ترفع قلبك عن إتباع الشهوات).
(.) بضم العين وتشديد الباء.
(2) سقطت (لا) في ت والسياق يتطلبها.
(3) في ت (الأذكار) وربما تقبلها السياق أيضًا.
(4) (وقد يكون وقد يكون) مكررة هكذا في ك ولا ضرورة لهذا التكرار.
(5) هكذا في ك أيضًا ولكنها في س و ت (الآثام) والصواب ما أثبتناه لأن السياق يتطلب تجنب العبد تعويله في الاحتياج على الغير، والمقصود هو نفي هذه الغيرية فالتصوف حسب أحد تعريفاته: قطع العلائق واليأس مما في أيدي الخلائق.
(6) في س (الحالات) والأصوب حسب السياق ما أثبتناه.
(7) أرجع في (أحكام المحبة) إلى رسالة القشيري ص 158.



وأما نصب القلوب فيكون بانتصاب البدن [1] على بساط الوفاق، ثم بانتصاب القلب في محل الشهود بحسن [2] الإطراق، ثم بانتصاب السر بوصف الانفراد.

والتنقي [3] عن دقائق الافتراق.

وقد يكون العبد منصوبًا لجريان [4] حكم المقادير من غير أن يكون [5] له اختيار، ولا له فيما هو به إيثار [6]، أو منه فيه اشتغال [7]، ولما يلقى به استثقال، ولما ينتظره استقبال، ولا لما يوعد [8] به استعجال.

ليس لهؤلاء فيهم حظ ولا نصيب، ينصبهم الحق لحقه لا لحظهم فهم غياث [.] الخلق، قائمون للحق بالحق.

وأما خفض القلوب فيكون باستشعار الخجل، واستدامة الوجل، ولزوم الذل [9] وإيثار الخمول، وملازمة الخشوع، وإلقاء النفس في ذبائح الجهاد.

وقد يكون بخفض الجناح – لكل من طالبك [10] بشيء ليس في الشرع له نكر [..] من غير رد ولا نزاع [11]، ولا إبرام لا استكراه.

---

(1) هكذا في بقية النسخ ولكنها في س (البدل) هي خطأ من الناسخ.
(2) هكذا في ط و س ولكنها في ت و ك (لحسن).
(3) جاءت في س بدون نقط على التاء والنون، وهي بتشديد القاف وكسرها.
(4) في ط (يجريان) وهي مقبولة في السياق أيضًا.
(5) في س يوجد بياض بعد يكون ... إلى (ولا له).
(6) بدون نقط في ك.
(7) بدون نقط في ك.
(8) وهي في س و ت (يدعو) وقد آثرنا (يوعد) حسب تذوقنا الخاص للسياق. وهي بفتح العين.
(.) بكسر الغين.
(9) سقطت (الذل) في ط ووردت في بقية النسخ.
(10) جاء بعدها في ط (أو يدوسك بقدميه).
(11) جاء بعدها في ط (ولا استشعار بعار).
(..) بضم النون وسكون الكاف.

وهكذا [1] العارف يستقل [2] أعقاب (.) [3] الكافة مستحقرًا لقدره (..) [4] مستقذرًا لنفسه وفعله في عاجله وآجله.

وأما جزم القلوب، فالجزم القطع، ويكون بحذف العلائق، والسكون تحت جريان أحكام [5] الحقيقة من غير إخلال بشيء – من آداب الشريعة.

ويكون جزم القلوب قطعها عن خطرات المنى (...)، فإن الأماني، والمعاني متضادة [6] فيقطع أعناق المطالبات والإرادات والاختيارات [7] بسيوف اليأس، ثم يسكن بالله لله مع الله، فإن رجع إلى ابتغاء [8] الرخص شهدت عليه الطريقة بالشرك والردة [9].

---

(1) جاءت في ط و ت (وكذلك).
(2) هكذا في س و (استقل = مضى وارتحل) ويكون المعنى ارتحل في أعقاب الناس لتواضعه، وكره التصدر والتقدم طلبًا للصيت والشهرة.
(3) هكذا في النسخ الثلاث أما في ط فقد جاءت بدون ألف، وأعقاب جمع عقب وهي هنا تعرب ظرف زمان فيكون المعنى كما جاء ف الهامش السابق أن العارف يؤثر السير خلف الناس تخفيًا وانكسارًا، حتى يزل دائمًا مستشعر الخمول في كنف إرادة مولاه.
(4) مشتبهة في ط وواضحة في بقية النسخ.
(5) سقطت (أحكام في س ووردت في بقية النسخ، والسياق يتطلب إثباتها.
(6) مشتبهة في ط وواضحة في بقية النسخ.
(7) في س (الاختيارات بالباء والصحيح كان أثبتناها وكما وردت في بقية النسخ لأن المقصود هو سقوط اختيار العبد وتفويض الأمر كله لله، فلا يكون للعبد من نفسه في نفسه إرادة أو (اختيار).
(8) هكذا في النسخ الثلاث ولكنها في ت (انتماء) والأصوب (ابتغاء) لأن المقصود ألا يلتمس العبد الترخص بل يلجأ إلى الأشق – وذلك واحد من أصول مذهب الشيخ رضوان الله عليه.
(9) ربما تبدو الكلمتان (الشرك والردة) مثيرتين للفزع ها هنا، ولكن هذا - كما ذكرنا في الهامش السابق -أصل عند الشيخ في كل مصنفاته.
انظر مثلًا الرسالة ص 203 (فإن نقض العهد في طريق الإرادة كالردة عن الدين لأهل الظاهر) و (من لجأ إلى الرخص فقد فسخ عقده مع الله).
(.) بفتح الباء. (..) بفتح القاف وسكون الدال وكسر الراء.
(...) بضم الميم وفتح النون.

فصل [7]:

وجوه البناء في النحو [1] أربعة: الضمة والفتحة والكسرة والسكون، والبواطن على لسان أهل الحقائق هذه الأقسام:

فضم الأسرار صونها عن الأغيار، وفتحة القلوب تنقيتها [2] من الكروب بمفاتحات [3] الغيوب، وكسرة القلوب سجودها عند بغتة الشهود ومفاجآت [4] الالتقاء، وسكون البواطن سكونها [.] إلى الحق بنعت الاستئناس [5] على وصف الدوام في عموم الأحوال.

وفي المعرب والمبني إشارات أخر [6]:

فالمعرب يتغير آخره باختلاف العوامل، والمبني ما يكون على صيغة [7] واحدة ... وكذلك صفات العبد منها ما يقبل التغير والتأثير [8]. وهي ما كان مجموعًا [9] بتصرفه [...] وتكلفه، ومنها ما لا يقبل التحويل والتبديل وهي موضوعات الحق – سبحانه – فيه من أخلاقه، ويكون ذلك بحسب ما سبق له من أرزاقه، وكذلك من

---

(1) (في النحو) موجودة في س وغير موجودة في النسخ الثلاث ولا ضير من إثباتها حتى يتضح التنظير بين نحو الظاهر ونحو الباطن.
(2) في س (تثنيتها) وهي مرفوضة في السياق.
(3) هكذا في س و ط وهي في ك (بفاتحات) وفي ت (بمفاتيح).
(4) في ك (بمفاجأة) وفي س (ومقاساة). (.) بضم النون.
(5) في ك (الإياس) وربما كانت الإيناس، وهي بهذا الاحتمال الأخير مقبولة في السياق أيضًا.
(6) سقطت (أخر) من ت.
(7) في ت (صفة) وهي مقبولة في السياق – وإن كانت (صيغة) أكثر دقة في وصف المبني.
(8) في ت (والتلاشي) وهي غير مرفوضة في السياق إذا ناظرنا بين ما يستطيع المرء (حذفه) من الأخلاق الرديئة وبين (حذف) حرف العلة – فكلاهما يحدث الخلاص منه (والتلاشي) له.
(9) وردت (مجموعات) في ط و ك.
(..) بتشديد الراء وكسر الفاء.
(...) بتشديد اللام وكسر الفاء.

أحكامه فيما وجب له من سابق أقسامه، فمن شقي نفذ [1] بالرد [2] قضاؤه، ولم ينفعه كده [.] وعناؤه، ومن سعد مضى بالقبول حكمه، فلم يخرجه عن محكومة السعادة جرمه [..].

ومن أقسام البناء ما يبنى على الكسر، فصاحبه أبدًا مكسور لا ينجبر [3] كسره، ولا يتغير فقره، ولا يزول ضره، ولا يصلح قط أمره، صباحه بلاء، ورواحه شقاء [4]، وجده منكوس، وحظه مبخوس، ونجمه منحوس [5]، وقصده معكوس ... إن ورد نهرًا غيض ماؤه، وإن وجد درًا [...] قرب فقده.

ومن ذلك ما بني على الفتح فصاحبه لا يزول نعيمه، ولا يبرح مقيمه، يسطح من البعد نسيمه، ويسعد على القرب نديمه، ولا يتكدر بغيبته [6] مشربه، ولا يتغير – بطول حجبته [7] مذهبه.

الصدر له فرغ وإن أبطأ في حضوره، والشمس ظلام عند تلألئ نوره [....]، والبدر يخجل [8] لفجأة [9] ظهوره.

---

(1) مشتبهة في ط وواضحة في بقية النسخ.
(2) في ت (بالوعد) وهي غير مقبولة في السياق، لأن الشقي مردود لا موعود. وهي بتشديد الدال.
(3) هكذا في النسخ الثلاث وهي في ط (لا يجبر) وهي مقبولة أيضًا.
(4) هكذا في النسخ الثلاث ولكنها في ك (سعاء) بدون نقط.
(5) (وحظه منجوس ونجمه منجوس) ساقطة في س.
(6) في ت (لغيبته).
(7) في ك (حجته) وهي مرفوضة في السياق لأن المقصود هو احتجاب أنوار الكشف بعض الوقت.
(8) هكذا في النسخ ما عدا ت فهي (خجل) والسياق لا يرفضها إذ تنسجم عبارة (البدر خجل) مع (الشمس ظلام) التي سبقت.
(9) مشتبهة في ط لأن الرسم فيها بدون نقط، والفجأة اصطلاح صوفي (انظر باب ألفاظ تدور بين هذه الطائفة بالرسالة القشيرية).
(.) بتشديد الدال.
(..) بضم الميم.
(...) بكسر الراء.
(....) بضم الدال وتشديد الراء.



ومن ذلك ما بني على الضم [1]، فصاحبه مرفوع عنه كلفة الاختيار [2]، غير [3] معاتب على اختلاف الأطوار، ولا متلون الحكم عند تفاوت الآثار، فالعتب [4] عنه [5] مرفوع، والعذر [6] عنه موضوع، فلا له عقل فيلزمه تكليف، ولا له أو منه – في الشرع [7] – فعل فيتوجه عليه نضيف ... هؤلاء بأسر [8] القدرة، مشكل بين الورى حديثهم [.]، ملتبس على الكافة أمرهم.

ومن ذلك ما بني على السكون فصاحبه على مكانه موقوف، وعن قصده مصروف، لا يغني عند جده [..]، ولا يسعده جده [...]، يطول به الزمان، وتتوالى عليه الحدثان، وهو من أوله حاله إلى نهاية مآله لا يجاوز سورة الإخلاص، ولا يخرج إلى صورة [9] الانتقاص.

كذلك الأحكام [10]: مختلفة الأقسام، متفاوتة الأدوار.

---

(1) هكذا في ك وهي في بقية النسخ على (الرفع) ونحن نرجح ما أثبتناه لأن البناء يكون على الضم، كما يتفق هذا مع السياق الذي يسير عليه المصنف حيث عرض فيما سبق للمبني على الكسر وعلى (الفتح) وسيتحدث بعدئذ عن المبني على (السكون).
(2) في ك (الإحسان) وهي مرفوضة لأن التكلف الإنساني مرجعه إلى (الاختيار).
(3) (غير) ساقطة في ت.
(4) في ط (فالغيب) وهي مرفوضة.
(5) سقطت (عنه) في س.
(6) في ط (والوزن) والمعنى يرفضها.
(7) هنا مساحة كبيرة من السقوط في ت.
(8) واضحة في س ومشتبهة في بقية النسخ والمعنى يتقبلها.
(9) في النسخ (سورة) ولكننا رأينا أن (صورة) ألبق، وربما كانت (سورة) بفتح السين وسكون الواو.
(10) كذلك الأحكام ... إلخ تتصل بالسبب كله وهي غير موجودة في ب.
(.) بضم الثاء.
(..) بكسر الجيم وتشديد الدال.
(...) بفتح الجيم.

فصل [8]:

الأسماء على ضربين: اسم معرفة، واسم نكرة.

وفي الإشارة: الخلق كذلك، فمن صاحب (.) معرفة، ومن صاحب نكرة، ولكل حد (..) ووصف. فالاسم النكرة يصير معرفة – ولا رتبة فوق أن صار معرفة. كذلك لا رتبة [1] للعبد فوق العرفان ... قال المشايخ: ما رجع من (...) وجع إلا من الطريق [2]، أما من وصل فما رجع.

---

(1) في ط مشتبهة وهي واضحة في ك و س.

(2) المقصود أن الارتداد عن الطريق يكون للمبتدئين الذين وصلوا إلى بعض أجزاء هذا الطريق، أما الذين أتاح لهم الحق سبحانه اجتياز كل عقباته، وتمرسوا بكل مقاماته، وتذوقوا جل أحواله ولاحت لهم في مرحلة ما أنوار الوصول وكشوفات العرفان فإنهم لا يعودون ولا يرتدون.

(.) بالكسر مع التنوين.

(..) بتشديد الدال مع التنوين.

(...) بفتح الميم.



فصل [9]:

الاسم المفرد إذا ثنيته (.) ألحقته (1) ألفا في حال الرفـع، ويـاء فـي حـالي النصـب والجر ونونًا بعد الألف والياء.

ونون التثنية مكسورة، وهي تسقط عند الإضافة.

والإشارة من ذلك: أن الواحد لا تثنيه له من لفظ الواحد، و (الاثنان) لا واحد لـه من لفظه، فلا يقال من (الواحد) واحدان، ولا من (اثنين) اثن، وهذا محال في التقدير (2).

كذلك الذي هو (واحد) في الحقيقة (3) يستحيل أن تـزول عنـه وحدانيتـه. تقـديرًا ووجودًا. والـذي يصـح أن يكـون (اثنـين) فمـن المحـال أن يصـير فـردًا لا ثـاني لـه. تقديرًا. قال الله تعالى:

« ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون (..)» (4) الآية.

---

(1) في س (ألحقت به).
(2) (وهذا محال في التقدير) موجودة في ط و ك وغير موجودة في س.
(3) المقصود هو المولى سبحانه وتعالى.
(4) سقطت (شيء) في س وهذا خطأ (الآية 49 من سورة الذاريات)، أما الأخرى فهي قوله تعـالى: (قلنـا احمل فيها من كل زوجين اثنين) آية 40 من سورة هود.
(.) بتشديد النون وسكون الياء.
(..) بتشديد الكاف وفتحها.

فصل [10]:

وما دام الواحد من الأسماء واحدًا فهو بصفته في حروفه، فإذا انضم إليه غيره حتى يصير اثنين وقع في التغير:

فمرة مرفوعًا بالألف، ومرة منصوبًا أو مخفوضًا بالياء – كذلك العبد ما دام بقلبه مفردًا (.) مجردًا (.) فهو في أسمى نعوته (1)، فإذا حصلت علاقة المواصلات (2) وقع في التلوين فمرة ومرة.

ونون التثنية أبدًا مكسورة، كذلك صاحب العلاقات مكسور الجناح يطرح نفسه كل مطرح.

ونون التثنية تسقط عند الإضافة، لأنها بدل من التنوين في الواحد، والتنوين والإضافة أمارتان للمعرفة فلا يجتمعان كذلك صفة العارف إذا غلبت عليه صفة من صفات المعرفة فالصفحة التي في مقابلتها تكون مغمورة مستورة – فإذا كان الغالب عليه القبض فبسطه مستور، وإذا كان الغالب عليه القبض فبسط مستور، وإذا كان الغالب عليه البسط فقبضه مغمور، وإذا كان الغالب عليه (3) الأنس (..) فالهيبة كالمقابل (4)، وإذا كان غالبه الهيبة فالأنس كالزائل (5) ... وعلى هذا النحو جميع أوصافه.

---

(1) في ط (نحواه) وربما كانت (نجواه) ويكون المعنى أن تكون نجواه تفريدًا وتجريدًا للحق سبحانه.
(.) بتشديد الراء وكسرها.
(2) لأن الأصل في التجريد والتفريد إسقاط العلاقات والعائقات فهي آفات الطريق وإذا وجد شيئًا من ذلك فهو نقص في التوحيد، فلا اثنينية في التوحيد، ولأن التوحيد إسقاط السوى.
(3) مكررة مرتين في س.
(..) بضم الهمزة.
(4) في س (كالقالب) والمعنى قد لا يتقبلها لأن المقصود أن تكون الهيبة كالمقابل أي كالمغلوب عندما يكون الأنس غالبًا.
(5) في س (كالزايل) وفي ك والياء بدون نقط وفي ط توجد واو برأس صغيرة جدًا.

فصل [11]:

الجمع بين ضربين: جمع سلامة وجمع تكسير [1].

وفي الإشارة كذلك: ما يسميه [2] القوم [3] الجمع على قسمين: جمع سلم صاحبه، وهو ما حفظ عليه الشرع في وقت غلبات الجمع.

وجمع صاحبه مكسور [4] الصحة، وهو ما لا يحفظ [.] على مدعيه [..] آداب [5] العلم.

والفرق بين جمع أقسام النحو في الخطاب وأقسام جمع نحو القلوب: أن كلا الجمعين [6] في الخطاب – في مسائل النحو – صحيح، أما في نحو القلوب فأحدهما صواب والثاني غير صواب.

الإشارة: جمع السلامة ما يسلم فيه لفظ الواحد كذلك جمع سلامة هذا الطريق ما يسلم العقل فيه من الشبهة، والفعل من البدعة، والنفس من الشهوة، والقلب من الغفلة والغيبة، والسر [...] من الحجبة.

وجمع التكسير ما تكسر فيه لفظ الواحد: كذلك المدخول [7] من جمع القوم ما ينول [8] عن عقود الحقيقة، ويزيغ عن حدود [9] الشريعة.

---

(1) هكذا في ط و ك ولكنها في س (جمع تكسير وجمع سلامة) ولكن النسق الذي سارت عليه الفقرة فيما بعد يقتضي ما أثبتناه.
(2) مشتبهة في ط.
(3) سقطت (القوم) في ط والمقصود الصوفية.
(4) في ط (مكسور) والخطأ واضح.
(.) بفتح الياء.
(..) بتشديد الدال.
(5) في ط (أذن) وفي س (آداب) وهي وإن كانت مقبولة إلا أننا رجحنا (أدب) الموجودة في ك للتشابه في عدد الحروف بينها وبين (أذن) مما يجعلنا نقترب من الأصل.
(6) هكذا في س ولكنها في ك (إن كل الجمع).
(7) أي الذي فيه (دخل) أي شبهة وارتياب على أية صورة.
(8) في ط (يدول) والتصحيف واضح.
(9) في ك (معدود) والأرجح استعمال (حدود الشريعة) كما جرت عادة الشيخ.
(...) بتشديد السين مع كسرها.

فصل [12]:

إذا جمعت اسمًا مذكرًا جمع السلامة فيما يعقل [1] ألحقت بآخره واوًا في حال الرفع، وياء في حالي النصب والخفض، ونونًا بعد الواو أو الباء – وهي مفتوحة، وتسقط عند الإضافة.

والإشارة: إذا صار الاسم إلى حال الجمع وقع في كل هذا التلوين والتغيير [2] ... فمرة ومرة، من زيادة ونقصان، وتبديل وتحويل – كذلك صاحب الجمع زال [3] حكمه عن نفسه، فمرة يظهره الحق في وديان [4] التقريب، ومرة ينصبه في نعت الإبعاد ... وهو محو عن الاختيار « وتحسبهم أيقاظًا وهم رقود » [5].

خرج الشلبي يومًا في زي رث [.] فقيل له في ذلك فقال:

فيومًا ترانا في الحرير نجره [..] * ويومًا ترانا في الحديد عوابسا

ويمًا ترانا والثريد نلته [..] * ويومًا ترانا نأكل الخبز يابسًا [6]

وكان النبي > يقول مرة:

« **إني لست كأحدكم، إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني** » [7].

وقال مرة: « **أنا ابن امرأة تأكل القديد** » [8].

---

(1) في س (يفعل) وهي غير صحيح إذ المقصود أن الجمع السالم للعقلاء أو لوصف العقلاء.
(2) في س (والتغير) وهي مقبولة وقد سبقت في فصل سابق ولكننا هنا آثرنا ما جاء في بقية النسخ (التغيير) لتنسجم مع (التلوين).
(3) في ك (وجدان) وفي ط (واحدان).
(4) في ك (نحو) وهي خطأ.
(5) آية 18 سورة الكهف.
(6) انظر: حياة الشبلي في كتب الطبقات.
(7) رواه مالك والشيخان والترمذي عن أنس.
(8) (كانت تأكل) رواه الحاكم من حديث جرير، وقال: صحيح على شرط الشيخين.
(.) بتشديد الثاء.
(..) بتشديد الراء والتاء.

ومرة حكم لعشرة بالجنة، ومرة يقول: **« إنه ليغان على قلبي »** (1).

وجمع السلامة له قياس (2)، وجمع التكسير كثير الفنون مختلف القياس شكل (3) المباني (4).

كذلك من حفظ (.) بوصف العلم فهو – مقامًا - سيد (..) وقته وإمام زمانه. والذي هو في هذه الطريقة جمع تكسير فصاحب بلاء لا يهتدي إليه أحد، مردود عند من لا نصيب له من الطريقة، لكنه مستور في الحقيقة أمره، وهو في عين التشريف. ومن هو على جانب من هذا الحديث (5) يظنه من أهل التكليف.

فصاحب هذه الحال مشكل الحال، ملتبس الوقت، لا تهجم على محله جوامع (6) القياس، ولا تشرف (....) على غوامض نعته ثواقب التقدير (7).

---

(1) عن أغر مزينة } قال: قال رسول الله > : إنه ليغان على قلبي حتى استغفر الله في اليوم والليلة مائة مرة. أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي، وفي رواية لمسلم: « توبوا إلى ربكم، فوالله إني لأتوب إلى ربي تبارك وتعالى في اليوم مائة مرة ».

(2) في ط (ليس) له قياس وهذه الزيادة خطأ من الناسخ.

(3) في ك و ط (مشكل) بضم الميم وسكون الشين وهي صواب أيضًا: فهي مثل (شكل) في المعنى، بفتح الشين وكسر الكاف.

(4) هكذا في ك و ط في س (مجوزات) القياس، والكلمتان وإن اختلفتا في الرسم إلا أن الفهم الدقيق لأحوال جمع التكسير وصوره المتعددة التي تستعصي في بعض الأحيان على القياس.

(5) يقصد بـ (من هو على جانب من هذا الحديث) أي الذي له صلة بهذا العلم، علم التصوف بمقاماته وأحواله وكشوفاته ومعارفه ... إلخ.

(.) بضم الحاء وكسر الفاء. (..) بضم الدال. (...) بضم التاء.

(6) كذا في ط و ك وهي في س (التدبير) ومع أنه كان من الواجب أن نختارها على أساس أن المتصوفة يرون أن التقدير لله والتدبير للعبد إلا أننا آثرنا هنا اختيار (التقدير) في ضوء تذوقنا للعبارة أن المقصود هو: إعطاء الناس (قدرًا) لمثل صاحب هذه الحال لا يكون صائبًا – لجهلهم بشأنه – مهما كانت (تقديراتهم) ثاقبة.

(....) بضم التاء.

(7) (والتقدير) في هذا المجال اصطلاح نحوي مقبول ووارد، فإن تعريف جمع التكسير كما يذكره النحاة: هو الاسم الدال على أكثر من اثنين بتغيير ظاهر أو (مقدر) ... وربما كان هذا التنظير الدقيق من مرامي الشيخ.

فصل [13]:

من الأسماء أسماء مخصوصة أفردت عن أشكالها بجعل رفعها بالواو، ونصبها بالألف، وكسرها بالباء، وهي ستة أسماء: أبوك وأخوك وهنوك وحموك وفوك وذو مال.

الإشارة: كذلك من الناس من خص (.) عن أمثاله، وأفرد بالأحكام من بين أضرابه وأشكاله:

قال أحدهم: ليس كل بشر بشرًا [1].

فصل [14]:

الأفعال على ضربين: لازم ومتعد (.) [3].

وفي الإشارة كذلك: أفعال العبد على قسمين: لازم ومتعد، فاللازم ما تكون بركاته على صاحبه مقصورة، والمتعدي ما تتعدى خيراته إلى الغير.

والفعل المتعدي على أقسام : منها ما يتعدى (..) إلى مفعول واحد، ومنها ما يتعدى إلى مفعولين، ومنها ما يتعدى إلى ثلاثة مفاعيل.

---

(1) بشر – الأولى بفتح الباء والشين. والثانية بكسر الباء وسكون الشين والمقصود (ببشر) هنا هو (بشر الحافي) بكسر فسكون فقد وردت هذه العبارة عنه في بعض التراجم التي تحدثت عنه وانظر: ترجمة بشر الحافي في الرسالة القشيرية. ط: الحلبي.

(2) (باين حكمه ... إلخ) هذا السطر غير موجود في ط و ك وجاء في س، وهو يضيف أو يوضح المعنى أن بشرًا وإن استوى مع بقية مع بقية أقرانه من البشر إلا أنه مختلف عنهم في جوهره، ومباين لهم في الحظوة والمكانة.

(.) بضم الخاء.

(3) في ط (متعد ولازم) ونسق الكلام بعد ذلك يقتضي البدء باللازم.

(.) بتشديد الدال وكسرها.

(..) بتشديد الدال وفتحها.

والإشارة: كذلك العبد قد تتعدى بركاته [1] إلى عالم من الناس حتى قال الشيوخ: لو أن وليًا من أولياء الله اجتاز ببلد لغفر الله لأهل هذا البلد.

وفي الأثر: لو أن محزونًا [2] بكى في أمة (...) لرحم الله تلك الأمة [3].

فصل [15]:

خمسة أمثلة من الأفعال رفعها بالنون، ونصبها وجزمها [4] بسقوط النون وهي: يفعلان وتفعلان ويفعلون وتفعلون وأنت [5] تفعلين.

وفي الإشارة كذلك: من الأفعال ما يكون مخصوصًا، ولا تقبل إلا بزيادة تقترن بها، فيؤتى بها بشرط قران (.) ينضم إليها [6]: كرمي الجمار مثلًا: لا يكون طاعة إلا في الحج، كما أن السعي بين الصفا والمروة لا يكون عبادة إلا في الحج والعمرة، فمن قيض (..) لأجل شيخ من الشيوخ أو عارف أو ولي لنفع له منه حتى إذا مضى وقت ذلك الشيخ فلا قدر (...) لذلك الشخص [7].

---

(1) في ط (أفعاله).
(2) ك تشبه أن تكون (مجذوبًا) وليس في مصنفات القشيري – في حدود علمنا – استعمال لهذه اللفظة.
(3) في س يقع ترتيب الأثر قبل مقولة الشيوخ، وفي ب يوجد الأثر ولا توجد مقولة الشيوخ. وعلى كل حال فالمقولة « لو أن محزونًا ... » لسفيان بن عيينة. الرسالة القشيرية ص 71.
(...) بضم الهمزة وتشديد الميم.
(4) في ك (وحذفها) وهي خطأ من الناسخ ومصححه في الهامش تصحيح مراجعة.
(5) ورد ضمير المخاطبة في ط و ك ولم يرد في س.
(6) في س (فهي يؤتى بها لأصول تنضم إليها) ويمكن تقبلها على أساس أن الفعل أصل. وأما ثبوت النون أو حذفها فزيادة، وقارنته قرانًا أي صاحبته، وقرن بين الحج والعمرة يقرن قرانا أي جمع بينهما، والمقصود من (شرط القرآن) هنا شرط مصاحبته الألف والواو والياء فهذا هو الأصل في تركيب الأمثلة الخمسة التي هي موضوع الفصل.
(7) ابتداء من (فمن قيض إلى نهاية الفصل) ساقط في ك و ط و ب و ثابت في س.
(.) بكسر القاف
(..) بضم القاف وتشديد الياء.
(...) بفتح القاف وسكون الدال.

فصل [16]:

الأفعال على أقسام: صحيح ومعتل ومضاعف [1].

الإشارة: كذلك أفعال المكلفين على أقسام [2]: صحيح ومعتل، وكما أن الصحيح من الأفعال ما سلم من حروف العلم فالصحيح من أفعال العباد ما سلم من صنوف العلة. وحروف العلة ثلاثة:

الواو والألف والياء، وصنوف العلة الرياء والإعجاب والمساكنة [3].

وبعض حروف العلة أضعف وبعضها أقوى، كذلك فإن بعض صنوف علل [4] الأفعال ألطف [5] وبعضها أبدى [.] [6].

ومن الأفعال ما يكون حرف العلة في أوله وهو المثال، كذلك من أفعال العبد ما كانت العلة في أوله وهو ألا يكون الدخول فيه على حد الإخلاص [7].

ومنها ما هو أجوف ... وهو الذي حشوه حرف علة، كذلك من أفعال العبد ما هو أجوف وهو الذي داخله زلة كالغيبة والغفلة [8].

---

(1) (ومضاعف) موجودة في س و ب وغير موجودة في بقية النسخ وهي مقبولة بل ضرورية إذ أن القشيري يتحدث بعد ذلك عن الصحيح والمعتل.
(2) هكذا في س وهي في بقية النسخ (قسمين).
(3) في ك (والساكن) وهي خطأ من الناسخ.
(4) في س (على) وهي خطأ من الناسخ.
(5) أي أخفى.
(6) في ط و ك (أجلى) وكلاهما بمعنى.
(7) (ومن الأفعال ... الإخلاص) موجود في ب بعد المضعف وغير موجود في النسخ الأخرى، وقد آثرنا وضعهما هنا في المقدمة حسب الترتيب المألوف في كتب النحو.
(8) (كالغيبة والغفلة) موجودتان في ب وغير موجودتين في بقية النسخ.
(.) بسكون الباء وفتح الدال.

ومنها ما هو ناقص وهو الذي يكون في آخره حرف علة، كذلك من أفعال العبد ما هو ناقص وهو الذي تعقبه آفة، فإن قبول القرب [1] موقوف على وفاء العواقب.

ومن الأفعال ما هو لفيف، وهو الذي اجتمع فيه حرفان من حروف العلة إما مقترنين أو مفترقين [2]، كذلك من الأفعال ما تتوالى عليه الآفات، فصاحبه يعتريه الرياء ويلحقه الإعجاب.

ومن الأفعال ما هو مضعف (.)، وذلك ما اجتمع فيه حرفان متجانسان [3] فأدغم أحدهما في الآخر، كذلك من أفعال العبد ما ضوعف لصاحبه أجره، أو ضوعف عليه وزره، وذلك ما اجتمع فيه حق (..) الحق وحق الخلق فضوعف حكمه في الأجر والوزر (...).

فصل [17]:

الإدغام الإخفاء، فالحرفان في التقدير موجودان وإن كانا على اللسان بوصف الإنفراد. وفي هذا إشارة إلى ما يقوله القوم في وصف الجمع وجمع الجمع [4].

والمدغم من الحروف قد يكون له حال بروز [5] في بعض أحوال التصريف [6] ... كذلك صاحب الجمع له رجوع ورد (.) في بعض الأحايين إلى عين الفرق.

---

(1) في ك (العدل) وهي خطأ من الناسخ، وربما كانت (العمل) لأن الأعمال بخواتيمها كما يريد السياق، والقرب، بضم القاف.
(2) في ك (مقرنتين ومفترقتين) وتاء التأنيث فيهما زائدة لأن الكلام عن الحرفين.
(.) بتشديد العين.
(3) مشتبهة في ط وواضحة في بقية النسخ.
(..) بتشديد القاف.
(...) بكسر الواو وسكون الزاي.
(4) في ك (وعين جمع الجمع) انظر القسم الثالث من هذا الكتاب.
(5) في ط (بروز) بدون نقط ولكنها واضحة في ك و س.
(6) في ك و ط (في بعض الأحوال) فقط.
(.) بتشديد الدال.

ومن أقسام الفعل المهموز (..) ... والهمزة مد [1] (...) في الحلق (....) ... كذلك قد يصعد بعض الأفعال زيادة على ما يصعد غيره من حيث القبول.

فصل [18]:

الاسم المبتدأ شرطه إن يكون مصدرًا [2] للإخبار عنه، مجردًا عن العوامل اللفظية.

وإنما يكون الاسم مبتدأ إذا لم يعمل فيه عامل ظاهر، فإذا سلم من العوامل الظاهرة سلم له صدر الخطاب. فكذلك من سلم من تأثير الأطماع فيه، ولم تعمل فيه الشهوات والإرادات سلم له التقدم، ومن أسرته (.) المنى والمطالبات تسفل (..) في الأعقاب، ووقع في صف النعال [3].

فصل [19]:

العوامل على قسمين: لفظي ومعنوي، فالاسم المبتدأ: العامل فيه معنى الابتداء، وهو غير لفظي، وإنما هو وقوعه مبتدأ.

---

(1) هكذا في ك و ط وهي في س (أثر) وفي ب (نبر) وكلاهما مقبول في السياق ولكننا آثرنا (مد) فالمد زيادة وعندئذ يقوى الانسجام في التنظير بين النحو والإشارة.

(..) بضم الزاي.

(...) بتشديد الدال من التنوين.

(....)بسكون اللام.

(2) بتشديد الدال. في ط (مرصدًا) ولا معنى لها، فإن المبتدأ حقه التصدير، وكذلك بدليل ما سيأتي (سلم له صدر الخطاب).

(3) مشتبهة في ط و ك، وهي هنا تعطي معنى انحدار قيمة العبد إلى مرتبة (النعال) التي تخلع قبل الدخول على بساط القرب على عتبات الأبواب (للقشيري تصور لدرجات الداخلين يتضح في الشروح من هذا الكتاب).

(.) بسكون التاء وضم الهاء.

(..) بتشديد الفاء.

كذلك في الإشارة: العامل في العبد [1] نوعان: ظاهر يهتدى إليه كل أحد، ومستور لا يظهر إلا بعد مدة، قال الجنيد [2] رحمه الله: « من أراد أن يضع سرًا [2] عند أحد فليضعه عند رويم [3]، فإنه صحبنا كذا وكذا سنة وفي قلبه حب [..] إلينا [5] ولم نبصره فيه ».

فصل [20]:

ومن فصول باب الابتداء أنه خص المبتدأ بالرفع – وهو أقوى الحركات – لمصادفته حل لجام التكلم [6] كذلك في الإشارة من تخلص من تأثير المطالبات فيه، وتحرر من الإرادات قوي في حاله فخص [...] بأقوى الأثقال [7]، وحمل [....] أثقل الأمور لأنه يحمله بقوة، فأقواهم حالًا يخص بأثقل الأمور، قال الله تعالى لنبيه > :

« إنا سنلقي عليك قولًا ثقيلًا » [8].

---

(1) (في العبد) غير مذكورة في ط و ك.
(2) الجنيد هو أبو القاسم الجنيد بن محمد سيد هذه الطائفة وأمامهم، أصله من نهاوند ومنشؤه ومولده بالعراق، وكان أبوه زجاجًا ولذا قيل له القواديري، وكان فقيهًا على مذهب أبي ثور صحب السري السقطي والحارث المحاسبي والقصاب ومات سنة سبع وتسعين ومائتين من الهجرة.
(3) هو أبو محمد رويم بن أحمد بغدادي النشأة وكان فقيهًا على مذهب داود، توفى سنة 303 هـ.
(4) في س (كذا سنة) فقط.
(5) في ب و س (الدنيا) وهي خطأ في النسخ لأن السياق يتطلب أنه أحب الجنيد ومجلس علمه حبًا مكتومًا، وقد سيق الشاهد دليلًا على العامل الخفي.
(راجع قضية الإفصاح والكتمان عند الصوفية في كتاب نشأة التصوف الإسلامي ط دار المعارف لإبراهيم بسيوني).
(.) بتشديد الراء.
(..) بتشديد الباء.
(6) (حل لجام التكلم) واضحة في س ومشتبهة في بقية النسخ.
(7) ابتداء من (كذلك في الإشارة ... حتى الأثقال) موجود في س وغير موجود في بقية النسخ.
(8) آية 5 سورة المزمل.
(...) بضم الخاء وتشديد الصاد.
(....) بضم الحاء وتشديد وكسر الميم.

وقال > : « **الناس كإبل (هائمة)** [1] **لا تكاد تجد فيها راحلة** » [2].

وكان الشبلي يقول: « أشعر [...] أني مأخوذ [3] بجرائم الخلق » [....].

فصل [21]:

لا بد للمبتدأ من الخبر [4] ... والخبر ما تتم به فائدة الخطاب، فإذا حصل الابتداء فلا بد مما تتم به فائدة الخطاب وإلا كان لغوًا [5].

كذلك الابتداء في العرفان، فلا بد مما تتم به الفائدة وهو استدامته إلى حال الانتهاء، فإذا حصل الابتداء بالطاعات فلا بد من تمامها: قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: « **الأمور بخواتيمها** » [6].

وكذلك على لسان الجمع: إذا حصل منه (سبحانه) [7] ابتداء القسمة [8]

إن الكــريم إذا حبــاك بــوده [.] * ستر القبيح وأظهر [9] الإحسانا

وكــذا الملــول إذا أراد قطيعــة * ستر المليح وقال كان وكانا [10]

---

(1) بياض في س.
(2) والحديث غير موجود في بقية النسخ أي أنه في س وحدها وبعده إضافة: الراحلة هي الناقلة التي يحمل عليها ما يعجز عنها كل إبل.
ورواية الشيخان والترمذي: « إنما الناس كالإبل الهائمة، لا تكاد تجد فيها راحلة ».
(3) هكذا في ك و ط و هي في س (المؤاخذ).
(...) بسكون الشين وضم العين والراء.
(....) بفتح الخاء وسكون اللام.
(4) وفي ط (لا بد للمبتدأ في الأسماء من الأخبار) والمعنى واحد.
(5) (وإلا كان لغوًا) موجودة في س وغير موجودة في بقية النسخ والسياق يتدعم بها.
(6) ولهذا جرت عادة الألسنة بقولها « واختم لنا بخاتمة السعادة أجمعين ».
(7) (سبحانه) زيادة من عندنا وجدناها ضرورية لتوضيح المقصود.
(8) في ك (القسم) ويمكن تقبلها بشرط كسر القاف حتى تكون صيغة جمع.
(9) هكذا في ط وهي في ك و س (وأكمل) وقد رشحا (واظهر) لتقابل (ستر).
(10) البيت الثاني غير موجودة إلا في ب وإن كانت (المليح) قد وردت خطأ (القبيح).
(.) بتشديد الدال وكسرها.

بالرحمة فلا بد في الانتهاء والمآل من المنة والنعمة، وإذا سبق منه الابتداء بالولاء فلا محالة ينعم بحفظه في الانتهاء، ولذلك قيل:

فصل [22]:

خبر [1] المبتدأ على أقسام وبالكل [2] تحصل فائدة الخطاب.

كذلك لو سلكت للحق طريقًا، أو ابتدأت بأمر فلا تنصرف ما لم تتم ذلك سواء كان سلوكك سبيل للعبادة، أو طريق الإرادة [3]، أو طريق العلم، أو طريق الزهد فإن قدر [.] [4] الأمور بالاستقامة فيها، فإذا ابتدأت بأمر فاعلم أنه لا تتم الفائدة [5] إلا بإتمامه.

تجرد [..] إلى الدنيا فإنك إنما * سقطت إلى الدنيا وأنت مجرد [..] (1)

فصل [23]:

خبر المبتدأ قد يكون مثل المبتدأ كقولك: زيد [...] منطلق، ويكون جملة إما فعلًا وفاعلًا، أو شرطًا وجزاء [7]، أو ظرفًا ... وبجميع ذلك تحصل فائدة الخطاب.

---

(1) من هنا تبدأ النسخة ت بعد المساحة الساقطة منها.
(2) هكذا في النسخ الأربع وهي في س (وبالجميع).
(3) (أو طريق الإرادة) غير موجودة في ط وموجودة في بقية النسخ وهي ضرورية حسبما جرت عادة القشيري في هذا المجال.
(4) في ط زحفت الدال على الراء فأصبح الرسم (قلد) ولا معنى لها، أما في ك فهي (قلة) والخطأ واضح من الناسخ أما في ت فهي (قلب) أي هناك نقطة تحت المد ... ومن كل ذلك رشحنا (قدر) الواضحة في س لأنها ملائمة للمقصود في نظرنا.
(5) سقطت (الفائدة) في ت.
(6) هذا البيت موجود في ب وغير موجود في بقية النسخ، ومع أنه يحتمل أن يكون زيادة من عند الناسخ لتوضيح الأمر لنفسه إلا أن السياق لا يرفضه، ويقوي ذلك كلامه عن (التجرد) في الفصل القادم.
(.) بسكون الدال.
(..) بتشديد الراء وفتحها.
(...) برفع المبتدأ والخبر.
(7) واضحة في س و ك و ت و ب ومشتبهة في (ط).

كذلك إذا ابتدأت بأمر فيكون تمامه بتجردك لذلك الأمر كما ابتدأت به، فتكون اليوم فيه كما كنت بالأمس [1]. وقد [2] لا تحصل الفائدة إلا بجملة من الأفعال والصفات تزيد على حالتك الأولى، إذ لو لم تضفها إلى [..] ما سبق منك بالأمس لا تحصل الفائدة.

فصل [24]:

الفاعل مرفوع [3]، وقيل: علة الرفع مشابهته للمبتدأ، وقيل: لقوة حاله خص [.] بأقوى الحركات.

وقيل: للفرق بينه وبين المفعول – والرفع [4] أقوى الحركات.

وفي الإشارة: استحقاق الرفعة والعلو للحق سبحانه وتعالى، لأنه الفاعل على الحقيقة، وليس لغيره القدرة على الاختراع. ولأن الابتداء في الأمور منه فهو الأول السابق، واستحقاق الرفعة [5] والعظمة له.

فصل [25]:

المفعول منصوب، والنصب أخف من الرفع، والمفعول أنقص رتبة من الفاعل فخص [.] بما هو الأخف من الحركات.

---

(1) أي من حيث التجرد لذلك الأمر، ولكن تبقى بعد ذلك إضافات جديدة لكي يستمر الطموح إلا الاتمام.
(2) هكذا في النسخ الأربع وهي في ت (وهنا لا تحصل).
(..) بضم التاء.
(3) في ت و س (رفع). بضم الراء وكسر الفاء.
(4) (والرفع أقوى الحركات) زيادة في س.
(5) في س (الرتبة) وفي بقية النسخ (الرفعة) وهي أليق بالسياق إذ الكلام يدور حول الرفع.
(.) بضم الخاء وتشديد الصاد.

كذلك الخلق هم المفعولون، فلهم حالة العجز والنقص، لأنهم في أسر القدرة وتصريف القبضة.

وقيل:

فاصبر لمر [..] العناء * فقد خلقت [...] ممر [....] القضاء [1]

فصل [26]:

المفعول على أقسام: مفعول مطلق، ومفعول به، ومفعول له، ومفعول فيه، ومفعول معه.

كذلك المفعولات على أقسام: فالجمادات مفعولات على الإطلاق، والحيوانات مفعول بها، تجري عليها أحكامه – سبحانه – في النفع والضر. والمكلفون مفعول لهم، خلق [2] لأجلهم الجنة والنار. وأحوال [3] المكلفين مفعول فيها لأنهم يعملون بالمعاصي والطاعات فيها. والبلاء مفعول معه لأن بني آدم خلقوا [4] والبلاء والعناء معهم. قال الله تعالى: « لقد خلقنا الإنسان في كبد » [5].

ويصح أن يقال: الأرزاق مفعول معه لأنها لازمة لأوليائه، فلا يكون لله ولي : [.] إلا وهو مكفي [..] الشغل، قال الله تعالى:

(1) هذا البيت غير موجود إلا في ب.
(..) بكسر اللام وضم الميم وتشديد الراء.
(...) بضم الخاء وسكون القاف.
(....) بفتح الميم وتشديد الراء.
(2) بفتح الخاء واللام، سقطت (خلق) من ط وهي موجودة في بقية النسخ، ومن الضروري إثباتها حيث ترتبط بقضية كلامية مهمة هي (هل الجنة والنار حادثتان أم غير حادثتين؟).
(3) هي في س (أفعال) ونرجح ما أثبتنا لقربها إلى السياق.
(4) هذه العبارة موجودة في ط هكذا: (والبلاء مفعول معه لأبناء آدم، تلقوا العناء والبلاء معهم).
(5) آية 4 سورة البلد.
(.) بفتح الواو وكسر اللام.
(..) بفتح الميم وسكون الكاف.

« وهو يتولى (...) الصالحين (1)».

فصل [27]:

ما لم يسم فاعله مرفوع، لأنه لم يذكر فاعله فأقيم المفعول مقام الفاعل، فأعرب إعراب الفاعل، لأن الفعل لا بد له من فاعل، فيقال: ضرب (.) زيد.

الإشارة: إذا التبس إثبات الصانع على أهل الغفلة نسبوا (..) الأفعال إلى المفعولين فتوهموا للمفعول استحقاق رتبة (2) الفاعل فيضيفون الكائنات إليهم، لأن العلم – بأن هذه الحوادث لا بد لها من محدث على الجملة – ضرورة.

فإذ (3) لم يثبتوا الصانع توهموا الفعل من المفعولين، فواحد أقام الطبع مقام الفاعل في التوهم، وآخر النجم، وآخر الفلك، وآخر الجد (...) والبخت (....)، وآخر الدولة (4) وآخر (5) الدهر وآخر زيدًا، وآخر عمروًا ...

فكما أن إعراب الرفع لم يسم فاعله ليس بحقيقة كذلك توهم (.....) أن الحادثات من المفعولات والمفعولين لا حقيقة له.

(...) بتشديد اللام المفتوحة.
(1) آية 196 من سورة الأعراف.
(2) في ط (زينة).
(3) في ط (فإذا) والصواب ما أثبتناه لأنها بمعنى (فحيث).
(4) سقطت في ط وموجودة في بقية النسخ (بتشديد الدال وضمها وفتح الواو).
(5) غير مذكورة في ب وتوجد واو العطف فقط قبل لفظة (الدهر).
(.) بضم الضاد وكسر الراء.
(..) بفتح النون.
(...) بفتح الجيم.
(....)بسكون الخاء.
(.....) بضم التاء وتشديد الهاء وكسرها.

فصل [28]:

المضاف إليه له الخفض، تقول: دار زيد (.).

والإشارة: أن الخفض أضعف الحركات: عندما كانا لاسم مفردًا، كان له أقوى الحركات، فلما جاءت الإضافة صارت له أضعف الحركات. كذلك العبد ما دام مجردًا فله أقوى الحالات، فإذا جاءت العلاقة صار إلى أضعف الحالات [1].

فصل [29]:

كان وصار ... إلى آخر هذه الأفعال ألفاظ ترفع الأسماء وتنصب الأخبار، تقول: كان زيد قائمًا ...

فهذه مشبهة (.) بأفعال وليست بأفعال محضة، والإشارة: أنها لما ضارعت الأفعال أجريت مجرى الأفعال الحقيقة، فكما أن الفاعل رفع والمفعول به نصب فكذلك اسم كان مرفوع وخبره منصوب، ولكن ينادى (..) عليها [2] أنها [3] ليست بأفعال محضة، فكذلك من تشبه بقوم يجري مجراهم، ويحكم له – في الظاهر – بحكمهم ولكن ينادى عليه بأنه متشبه (...) بهم وليس منهم حقًا.

---

(1) في س (إلى أضعف الحركات والحالات) ونظن أن الحركات هنا زائدة، وهي غير موجودة في بقية النسخ، وقد آثرنا الاكتفاء (بالحالات) لأن انتقال الشيخ إلى الإشارة يتطلب التنويه بما في الطريق من (أحوال)، وبتعبير آخر نؤثر أن تبقى (الحركات) لنحو الظاهر وتبقى (الحالات) لنحو القلوب.
(.) بتنوين الدال بالكسر.
(2) في ت (ولكن ينادى عليه).
(3) (فيقال ليست بأفعال محضة) هكذا في ت، ولا خلاف في المعنى.
(.) بضم الميم وفتح الشين وتشديد الباء وفتحها.
(..) بضم الياء.
(...) بتشديد الباء وكسرها.

قال الشاعر في هذا المعنى:

إذا انسكبت دموع في خدود

تبين (....) من بكى ممن تباكى (1)

فصل [30]:

الحروف التي تنصب الأسماء وترفع الأخبار معدودة محصورة (2) وهي: إن وأن وكأن ولكن وليت ولعل.

وعمل هذه الحروف – في الحقيقة – في الأسماء دون الأخبار (3)، لأن الأخبار باقية على ما كانت عليه، وإنما تساهل النحويون فيه، فهذه الحروف أشبهت كان وأخواتها التي تعمل في الاسم والخبر جميعًا، ولما كانت هذه الحروف مشبهة (.) بالمشبه ضعفت عنه في العمل فعملت في الاسم دون الخبر (4).

كذلك كلما كان العبد أبعد من التحقيق (5) وأقرب من التلزيق والتلفيق كان أضعف في التأثير، وأخس (6) في المقدار.

---

(1) في س (اشتبكت دموع) وجاء الشرط الأول للبيت في ك على هذا النحو (إذا غرقت عيون في دموع ...).

(....)بتشديد الياء وفتحها.

(2) (معدودة محصورة) هكذا في س، وفي ط و ك (محصورة) فقط ولم ترد (معدودة) ولا (محصورة) في ت.

(3) (دون الأخبار) سقطت في ك ولكن جاء بها (لأن الأخبار) ويبدو أنه اشتبه على الناسخ رسم (دون) فظن هناك تكرارًا، ولكن السياق يتطلب الإثبات على نحو ما جاء في بقية النسخ، إذ يقصد القشيري إلى أن عمل الحروف الناسخة أقل قوة من عمل الأفعال الناسخة، وهذا ركن أساسي في استنباط الإشارة (انظر الشرح والدراسة في هذا الكتاب).

(4) وقع تكرار في بعض النسخ في هذه العبارة مما جعلها منبهمة وقد قومناها على نحو مفهوم.

(5) في ك (الحق) ثم حدث تصويب لها.

(6) في ك (أحسن) وهي خطأ من الناسخ، وهي في س (أخف) وربما يتقبلها السياق.

(.) بتشديد الباء وفتحها.

فصل [31]:

الفعل الماضي مبني على الفتح نحو: ضرب، والفتح أخف الحركات فلما كان الماضي بمضيه [1] له أضعف الحالات خص [.] بأضعف الحركات.

والإشارة: أضعفهم استحقاقًا أبخسهم نصيبًا.

قال الشيوخ: « إن لله عبادًا لم يرهم أهلًا لمعرفته فشغلهم بنوع من عبادته » [2].

فصل [32]:

الفعل المضارب مرفوع لمضارعته الاسم، فصل استحقاق الإعراب للاسم.

والإشارة: من [.] تشبه بقوم فهو منهم، ومن [3] أحب قومًا حشر معهم.

وقال الشيوخ: هم القوم لا يشقى بهم جليس [4].

وقالوا: من [.] تحقق بحاله (لم يمل) [..] [5] عنه حاضروه.

فصل [33]:

الحروف التي تجزم لفعل المستقبل معلومة [6] وهي:

لم ولما وأخواتهما. والتي تنصبه معلومة وهي:

---

(1) مشتبهة في ك وواضحة في بقية النسخ. (بتشديد الياء وكسرها).
(2) غير واضحة في ط.
(.) بضم الخاء.
(3) (ومن أحب قومًا حشر معهم) موجودة في ب وغير موجودة في بقية النسخ.
(4) هكذا في ب وهي في بقية النسخ (لا يشقى جليسهم) والمعنى واحد.
(5) حال إلى مكان آخر يحول حولاً وحولًا بكسر الحاء وفتح الواو أي تحول، وهي في س (لم يمل) بالميم.
(.) بفتح الميم.
(..) بضم الياء وفتح الحاء وسكون اللام.
(6) مذكورة عند أرباب العلوم تقديمًا للكلام في ذلك عند أرباب القلوب.

أن ولن وكي وإذن.

والإشارة منه: أن الفعل المضارع ما دام منفردًا كان له أقوى الحركات، فإذا عملت فيه العوامل تغير عن استحقاق أقوى الحركات، وآل [1] إلى حال الضعف.

وكذلك العبد عند تجرده [2] فهو بنعت استقلاله وقوته، فإذا عملت فيه الواردات من الرغبة والرهبة وغيرهما رد إلى الضعف، فبعد ما كان بالله مستقلًا [3] صار أسير حظ وصريع [4] نصيب [5]، ثم ... بعض العوامل فيه تنصبه فتعرضه لكل قاصد، وبعض العوامل فيه تجزمه فتقطع عنه الفوائد.

فصل [34]:

الأمر مبني على السكون، نحو قولهم: اذهب. والنهي مجزوم نحو: لا تفعل.

والإشارة: السكون يشير إلى الدوام، كما أن الحركة تعني [6] الزوال، فالأمر على الوجوب واللزوم، والنهي مجزوم إذ النهي عن الشيء يقطع عنك مرادك لتكون كما أمرت [.] به، وتقف عما نهيت عنه.

---

(1) في س تشبه (قال) وهي خطأ من الناسخ.
(2) في ت (تجره) بسقوط الدال، والدال واضحة في بقية النسخ وهذا هو الصواب.
(3) في ت (مشتغلًا) والمعنى وإن كان يتقبلها، إلا أن الكلام عن (الاستقلال) بالله عن (الغير والسوى).
(4) في ك و ت (سريع) بالسين وهي خطأ.
(5) بعد (نصيب) حدث سقوط هائل في ك امتد إلى منتصف الفصل الثامن والثلاثين عند قوله:
(استشهدوا بهذا البيت:
عجبت لسعي الدهر ...).
ومن حسن الحظ أن يكتمل النقص في بقية النسخ.
(6) في س و ت (عين) وهي في ط (تعني).
(.) بضم الهمزة وكسر الميم.

وجواب الأمر وجواب النهي مجزومان، إذ ليس للمأمور ولا للمنهي لسان الاعتراض، وما شأنهما إلا الاستسلام والتزام مقتضى الأمر أو النهي، فنعت المعارضة من المأمور والمنهي مجزوم، وغير [1] الانقياد والخضوع منهما معدوم.

فصل [35]:

النعت تابع للاسم، فإن كان الاسم مرفوعًا فالنعت مرفوع، وإن كان منصوبًا أو مخفوضًا فالنعت مثله [2].

والإشارة من الاسم إلى السر [3]، ومن النعت إلى الوصف [4]، وإن ما [5] يلوح على الظاهر ما يلقى به عن [6] السر، سألوا: من [.] العارف؟ فقال: « لون الماء من لون إنائه » [7].

وأنشدوا:

كيفمـــــا دارت الزجاجـــــة درنـــــا [..]

يحســـــب الجـــــاهلون أننـــــا جننـــــا [...]

---

(1) هكذا في س ولكنها في ت و ط (وعن) والمعنى يرفضها ويتقبل (غير) بناء على خبر المبتدأ (معدوم) فيكون المعنى أنه لا حيلة للمأمور أو المنهي فيما أمر به أو نهى (..) عنه، وينعدم منهما أي شيء غير الامتثال.
(2) في س (كمثلي) وربما كانت (كمثله).
(3) في ت (الشيء) وهي خطأ من الناسخ بدليل ما بعدها.
(4) في س (النفس) وهي مرفوضة إذ المطلوب (وصف) السر والوصف يتبع الاسم، انظر آخر الفقرة: (حكم كل تابع إنما هو حكم متبوعه).
(5) في س (وإنما) وقد آثرنا أن نجعلها (إن ما) لأن ذلك يظهر المقصود ويقويه.
(6) كذا في ت و ط وهي في س (من) والمعنى لا يرفضها، فالمهم في الأمر أن الظواهر تنم عن السرائر.
(7) هذه العبارة للجنيد (انظر رسالة القشيري ص 156).
(.) بفتح الميم.
(..) بضم الدال.
(...) بضم الجيم وكسر النون الأولى.

ولما كان النعت تابعًا كان حكمه حكم متبوعه، وهكذا حكم كل تابع إنما هو حكم متبوعه.

فصل [36]:

الشرط والجزاء مجزومان، وللشرط والجزاء حروف نحو: إن (.) ومن (..) ... وما أشبههما نحو قولك: إن تضرب أضرب.

والإشارة: الجزاء لا (...) يستحق إلا بحصول الشرط سواء بسواء كذلك في الشرع علق أشياء من أفضاله على أشياء من أفعالك، فإن (....) وفيت بالشرط استوجبت الجزاء، لذا قالوا [1]:

إن وجـــدنا لمـــا ادعيـــت شـــهودًا

لـــم تجـــدا عنـــدنا لحـــق جحـــودًا

وقال الله عز وجل: « وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم » [2].

فصل [37]:

حروف العطف عشرة: الفاء والواو وثم وأخواتها، وحكم المعطوف في الإعراب حكم المعطوف عليه.

---

(1) لا يوجد في ب بعد (قالوا) هذا البيت الشعري ولا الآية الكريمة، إنما يوجد بيتان آخران هما:
بقـدر الكـد تكتسـب المعـالي * ومـن طلـب العـلا سـهر الليـالي
تنـام الليـل ثـم تـروم عـزا * يغـوص البحـر مـن طلـب اللآلـي
وربما كان البيتان في الأصل، أو هما زيادة من الناسخ لتذكير نفسه بالمقصود.
(2) آية 40 من سورة البقرة.
(.) بكسر الهمزة وسكون النون.
(..) بفتح الميم.
(...) بضم الياء.
(....) بفتح الفاء وسكون الياء.



الإشارة: لما اشتركا في المعنى تشاكلًا في صورة الإعراب كذلك: من صحب قومًا، ووافقهم [1]، وانخرط في سلكهم، وعد [.] من زمرتهم فما استقبلهم استقبله [2]، وما يفتح له بهم يفرد [..] [3] له منه نصيب.

وفي الأثر: « جلساؤكم شركاؤكم ».

فصل [38]:

همزة الوصل تلحق بالأسماء والأفعال في أحوال مخصوصة، ولكنها إنما تلحق ما تلحق بنية الحذف عند الاستغناء عنها.

والإشارة منه: أن العبد ينصب [.] لمقام – والمقصود [4] غيره، فإذا زال ذلك المعنى، وحصل ذلك المقصود رد هذا المنصوب إلى ما يستحقه، وهذه محنة للأكباد مفتتة [..]، وفي معناه استشهدوا [5] بهذا البيت:

عجبت لسعي الدهر بيني وبينها
فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

وقال غيره:

سكنوا في ديارهم ثم قالوا * مالك – اليوم – عندنا من جواب
أطعمونا حتى إذا ما طعمنا * وجرت بيننا عرى الأسباب [6]

---

(1) هكذا في ت و س وهي في ط (ووافاهم) ولا ضير منها في السياق أيضًا.
(2) يوجد بعدها في س و ت زيادة هي (وما استعملهم استعمله) وربما كانت في الأصل على معنى: وما أثر فيهم من (عامل) يمتد تأثيره إليه بوصفه مشاركًا لهم في السراء والضراء.
(3) في ت (يفوز) ونرجح أنها ربما كانت (يفرز) أي يستخلص له – مما رزقوا – نصيب.
(.) بضم العين وتشديد الدال وفتحها.
(..) بضم الياء.
(4) في س (والمراد) ولا بأس بها في المعنى.
(5) من هنا تعود النسخة ك بعد السقوط الهائل الذي بدأ في الفصل (33) هامش رقم (6).
(6) في طي يأتي الشطر الثاني هكذا: (وجرى في نفوسنا الأسباب).
(.) بضم الياء.
(..) بضم الميم وفتح الفاء وتشديد التاء وكسرها.

وقد يمتحنون [1] بالتغافل عنهم، فبعد طول الغيبة ينشدون:

أدرجت [..] في أثواب نسيانكم * حتى كأنني ألف الوصل

ولما لم تكن ألف الوصل [2] أصلية لم تبق على دوام الأوقات، كذلك من لم تسبق قسمته بالجميل [3] فإلى محتوم [4] الأزل يئول [5] أمره.

فصل [39]:

الحروف التي تخفض الأسماء [6] محصورة نحو: من وإلى وفي والباء الزائدة والكاف الزائدة ... وأخواتها، وهذه الحروف تدخل على الأسماء وعملها الخفض.

كذلك: من الأسباب [7] الداخلة على العبد ما يعمل فيه الكسر والخضوع والوضع، فمن [.] داخله الطمع والحرص والتمني والشهوة وأمثالها من الخصال المذمومة والأخلاق الدنيئة أوجبت [..] له ضعة [8] الحال ونقصان الرتبة وخساسة المنزلة.

---

(1) سقطت في ت.
(...) بضم الهمزة وسكون الجيم.
(2) في ك (صحة) ألف الوصل وهي خطأ من الناسخ، وفي ط ألف (الوصال) وفي ط (صاحبه) وكلاهما خطأ أيضًا.
(3) في ت (بالجهل) وهي خطأ من الناسخ.
(4) في س (المحكوم).
(5) في ط (يصير) تحتها (يئول) فهي زيادة تفسيرية من الناسخ.
(6) هناك في س و ت زيادة بعدها وهي (وترفع الأخبار) وهي خطأ من الناسخ.
(7) وهي في س هكذا ولكنها في بقية النسخ (الأسماء) ولكن بناء على تذوقنا لأسلوب القشيري نؤثر (الأسباب).
(8) هي هكذا في ك وهي أيضًا هكذا في ط وإن كان يقابلها في الهامش (صغر) ويمكن أن تقرأ بكسر الصاد وفتح الغين، أما في ت فهي (ضعف) وهي مقبولة في السياق ولكننا آثرنا (ضعة) لتتمشى مع ما بعدها من (النقصان) و (الخساسة).
(.) بفتح الميم.
(..) بفتح الهمزة وسكون التاء.

فصل [40]:

ومن الحروف ما يدخل على الاسم المبتدأ ولا يغير معناه، ولا يوجب له تغير الإعراب وهي مثل: إنما، وكأنما وليتما، ولعلما وغيرها.

والإشارة: أن من الناس من لا تؤثر فيه الواردات بحال، فهو في حال ما دخل عليه مثله في حال تجرده عنها.

دخل أحدهم على بعض المشايخ وبالقرب منه ملاه (.) [1] فتوهم هذا الداخل أنه متغير بما يجري ولكنه رآه لا يؤثر فيه شيء من ذلك، ولا يشغله ما يجري عما كان به من الوقت [2] فقال: « فديت (..) [3] من لا تؤثر فيه الجبال والرواسي »!

فقال ذلك الشيخ: « يا فلان، إنا قد جردنا [4] عن رق (...) الأشياء في الأزل ».

فصل [41]:

جواب الأمر والنهي والدعاء والاستفهام والجحد والعرض [5] والتمني – بالفاء منصوب، ويجزم عند حذف الفاء [6].

---

(1) مشتبهة في ط وهي في ك و ت (ماء آسن) وهي في س (ملاه) وهي التي أثبتناها لأن السياق يقتضيها، فضلًا عن أن القصة واردة بكاملها في الرسالة (ص 35) والشيخ في القصة هو أبو بكر القحطي وكان ابنه هو الذي (يتعاطى ما يتعاطاه الشباب مع أقرانه).

(2) (من الوقت) سقطت في ط و ك و ت، ومثبتة في س. وقد أوردناها في المتن تمشيًا مع أسلوب القشيري في هذا الصدد (انظر اصطلاح الوقت في رسالته) وانظر أيضًا قسم الشرح والدراسة من هذا الكتاب.

(3) مشتبهة في ط وهي في ك (قدمت).

(4) هكذا في ك، وهي في ت (حررنا) وفي ط (تحررنا) وهما مقبولان في السياق ... فالتحرر والتجرد هنا بمعنى واحد ... خاصة وأن (التحرر) نقيض (الرق) ولكننا في النهاية آثرنا التجرد اعتمادًا على حرف الجر (عن)، أما التحرر فكان يتطلب (من).

(.) بفتح الميم وتنوين الهاء المكسورة.

(..) بفتح الفاء وضم التاء.

(...) بتشديد القاف وكسرها.

(5) والعرض بفتح العين وسكون الراء لم ترد في (ط) ووردت في بقية النسخ وهي لازمة.

(6) اخطأ الناسخ في س فقال (وبحذف الفاء منصوب) لأن الجواب في هذه الأحوال حقه الجزم.

الإشارة: لما حصلت الفاء واسطة بين الجواب وهذه الأشياء أخرج (.) الجواب عن واجب استحقاقه إلى (1) صفة أخرى (2)، فكذلك شرط الواسطة: تغير (..) حكم المدخول (3) عليه. فمن عاش مع الله تعالى بواسطة المعلوم تغير عليه حكم وا وجب له عند التجرد عن المعلوم.

أما (4) العيش مع الله بلا علاقة فيبقى (...) العبد على ما يجب (5) – من تحقيق الوصل – في الأصل.

فصل [42]:

المنادي على أقسام: فللمفرد المعرفة وصف، وللمضاف وصف، وللنكرة وصف.

كذلك من كان من العباد مفردًا ينادى (....) على وصف غير وصف ما ينادى (.....) وهو مضاف.

وكذلك من كان بوصف النكرة، والمفرد المعرفة من الأسماء مبني على

---

(1) في ط (إلا) وهي خطأ من الناسخ.
(2) سقطت (أخرى) في ت.
(3) هكذا في ت وهي في ط (المدلول) وفي س (الدخول) والصواب ما أثبتناه.
(4) أضفنا (أما) من عندنا ليتماسك المعنى ويزيد وضوحًا.
(5) هكذا في النسخ جميعها ما عدا س فهي مشتبهة فضلًا عن أنها ذات نقطة تحت الجيم (يجب)، وهي على هذا تكون مرفوضة لأن مذهب القشيري الأشعري يرى أنه لا (وجوب) على الله سبحانه.
(.) بضم الهمزة.
(..) بفتح التاء والغين وتشديد الياء وضمها.
(...) بضم الياء وكسر القاف.
(....) بفتح الدال.
(.....) بضم الياء وفتح الدال.

الضمة – والضمة أقوى الحركات ... وكذلك من كان أبدًا بنعت التفريد كان في [1] أعلى الحالات وأقوى الصفات [2].

والمنادي المضاف منصوب، وكذلك من أضيفت إليه العلائق فهو في أضعف الحالات – كما أن النصب أضعف الحركات.

والنكرة من الأسماء خص [...] بعلم آخر، كذلك صاحب النكرة وسم [....] برقم آخر.

فصل [43]:

ويقع في النداء الترخيم، وهو حذف بعض الاسم [3] من آخره على جهة الإيجاز، ولذلك في مسائل النحو شرح.

الإشارة: إلى أنه قد يكون في نحو القلب ترخيم المنادي، وهو أن ينادي [.] بالإشارة، فيحذف [..] بعض [...] التفسير [4] ويقتصر على ما هو المعلوم بين الأحباب ... قال عز وجل لنبيه:

« يس » [5]، جاء في بعض التفاسير أن معناه: يا سيد، وذلك على سنتهم في الحذف [6] والاختصار كما قال قائلهم:

---

(1) في س (على) أعلى.
(2) (أقوى الصفات) سقطت في ك و ت.
(...) بضم الخاء وتشديد الصاد.
(....)بضم الواو وكسر السين.
(3) في س (الأمم) وهي خطأ في النسخ.
(4) يقصد هنا الإيضاح.
(5) لم يرد الاستشهاد بالآية الكريمة إلا في النسخة س.
(6) في ط (الستر) وهي مقبولة في السياق أيضًا، لأن المقصود (بالحذف والاختصار) حسب رأي الشيخ هو التخاطب بين الأحباب بلغة يفهمونها دون سواهم إمعانًا في كتم الأسرار، ويؤيد ذلك ما يقوله في لطائف الإشارات في السياق نفسه « على سنة الأحباب في (ستر) الحال وإخفاء الأمر على الأجنبي من القصة » لطائف الإشارات جـ 1 ص 66.
(.) بفتح الدال.
(..) بضم الياء والفاء.
(...) بضم الضاد.



قلت لها: قفي فقالت: قاف [1]:

والاقتصار – على شطر [2] الكلام – في مذهب الأحباب أبلغ من الإتمام ... ولهذا قال بعضهم:

ليس من الظرف [.] امتحان [3] الحبيب بالوصف.

فصل [44]:

من الأفعال ما ليس [4] يتصرف تصرفًا تامًا مثل:

نعم [.] وبئس وعسى ولذلك أبواب في النحو وأحكام.

والإشارة منه: أن من الأفعال ما ليس بتام، فلا يتمكن العبد من التصرف فيه على حسب ما أراده، وبعضها به وإليه، فمن ذلك فتح [..] الجفن، والإصغاء [5]، إذ الإدراك – وهو البصر [6] والسمع – ليس بمكتسب للعبد، فإذا أتى بالإصغاء وفتح الجفن خلق الله الإدراك على مجرى العادة ... فذاك فعل ناقص التصرف فيه، فيرد [...] به الأمر والنهي، ويحصل عليه الثواب والعقاب.

فصل [45]:

ومن الألفاظ ما تكون صيغته واحدة ولها معان كثيرة كقولهم: « ما »

---

(1) قالت قاف – أي إني واقفة، فاستغنى بالحرف عن الجملة. وفي س (لي قاف).
(2) في ك (شرط) وهي خطأ في النسخ.
(3) الحاء تبدو في س كالهاء وربما كان القصد أن الخروج على هذه القاعدة (امتهان).
(.) بتشديد الظاء وفتحها.
(4) في س (ما لا يتصرف) وهي صحيحة أيضًا.
(5) في ك و ص (النظر والاستماع) وفي ت (النطق والاستماع) وهناك خطأ من الناسخ في (النطق) لأن نسق الكلام يسير حتى في النسخة ذاتها على (الرؤية والاستماع).
(6) في ك (النظر) وهي مقبولة أيضًا.
(.) بكسر النون وسكون العين.
(..) بفتح الفاء وضم الحاء.
(...) بفتح الياء وكسر الراء وضم الدال.

فيكون صلة ويكون للنفي ويكون بمعنى الذي: وبمعنى من (.) ... وغيره.

ويكون مشبهًا (..) بالمشبه بالفعل [1] فيقولون ما زيد قائمًا. إذ يشبهونه بليس. وقوم يرفعون خبره، وقوم ينصبونه.

ويتبين الفرق بين « ما » و « ليس » في تقديم الخبر وذلك لنقصان « ما » عن « ليس » ... كذلك الملتحق بالملتحق لا يبلغ شأو (...) المتحقق [3].

أمـــا الخيـــام فإنهـــا كخيـــامهم
وأرى نســـاء الحـــي غيـــر نســـائها

وفي قريب منه [3] قالوا:

فـــذر (....) عينيـــك وشـــأنيهما
أصـــبحت مشـــغولًا بمشـــغول

والمشغول بالمشغول أشدهم محنة، كذلك المتشبه (.....) بالمتشبه أضعفهم حالة.

فصل [46]:

الاسم المنفي بـ (لا) مبني على الفتح [4]، لأن « لا » نقيض [5] « إن »، فلما كانت « إن » - التي للتحقيق – تنصب الاسم فالمنفي بـ « لا » يبنى على

---

(1) المشبه بالفعل هو كان وأخواتها والمراد هنا (ليس) على وجه التحديد.
(2) في ط (لا يبلغ شيئًا كالمتحقق) ولكن الذي اخترناه أكثر دقة للوفاء بالمراد.
(3) ابتداء من (وفي قريب منه) إلى آخر الفصل ورد في س وحدها دون بقية النسخ.
(.) بفتح الميم.
(..) بتشديد الباء وفتحها.
(...) بفتح الشين وسكون الهمزة وفتح الواو.
(....) بسكون الراء.
(.....) بتشديد الباء وكسرها وضم الهاء.
(4) في س و ك و ت على (الفتحة)
(5) في س (نقيضة).

الفتح ... وهذا باب في النحو يجري (.) على المعنى [1] حكم نقيضه.

والإشارة أنه يوجد في الأحوال ذلك: فإن غاية الحزن توجب الضحك، ونهاية السرور توجب البكاء، وغاية الهجر تكون بترك العتاب، وحقيقة الود [2] تكون بالتجني وكثرة العتاب ... وأنشدوا:

ترك (..) العتاب – إذا استحق [3] أخ

منك العتاب – ذريعة (...) الهجر

وأنشدوا:

ولما غدت عيسهم للنوى * وظلت بأحداجها ترتك (....) [4]

ضحكت من البين مستعجبًا * وشر الشدائد ما يضحك

وقيل: أن يعقوب — لما رأى يوسف — بكى، فقيل له في ذلك، فقال: ذلك بكاء الحزن وهذا بكاء السرور.

فصل [47]:

ومن الألفاظ التي تقع على معان مختلفة: « كم »، فإنه يكون بمعنى

---

(1) في ب (المبنى) والصواب (المعنى) لأن القاعدة يراد لها العموم في النحو.
(2) (وحقيقة الود ... العتاب) مذكور في س و ت وحدهما، وهي في ت وحدها (وحقيقة المحنة)، وربما كانت (المحبة).
(3) في ط (استخراج) وهي خطأ من الناسخ.
(4) البيت الأول ساقط في س.
والحدج بكسر الحاء وسكون الدال: الحمل. ومن مراكب النساء يشبه المحفة، والجمع أحداج وحدوج، والراتكة من النوق التي تمشي وكأن برجليها قيدًا وتضرب بيديها، فإذا لاحظتها وجدت في مسيرتها اهتزازًا.
(.) بضم الياء.
(..) بسكون الراء وضم الكاف.
(...) بضم التاء.
(....) بفتح التاء وسكون الراء وكسر التاء وضم الكاف.

الاستفهام فينصب [1]. ويكون بمعنى « رب » فيخفض. والفرق [2] بين « كم » و « رب » اختصاص « كم » بالتكثير و « رب » بالتقليل، ويتميز أحدهما عن الآخر بالقرينة والعلامة [3].

والإشارة: كذلك من الناس من هو في صورة غيره، ولكن بالقرينة والأمارة تتميز [4] المقادير، فالزاهد في صورة الواجد، لكن [.] هذا قصده – من الحق – عطاؤه، وهذا موجب استقلاله بقاؤه [5].

وقد يجمع الطريق [6] سالكين [..] ولكن بالمقصد تتفاوت المقادير، فواحد يرجع إلى قصر [...] مملوك له، وآخر إلى حجرة بكراء [....].

فصل [48]:

حروف القسم تجر المقسم به بإضمار فعل، فقول القائل: بالله أي يمين [7] بالله أو حلفت بالله [8].

وبعض هذه الحروف أكثر تعرفًا وأعم دخولًا [9] كالباء، وبعضها أقل كالتاء والواو، وواسطة بين القليل والكثير ... والكل حروف للقسم.

---

(1) (فينصب) موجودة في س وغير موجودة في ط و ت و ك.
(2) (والفرق ... بالتقليل) وسقطت في س.
(3) في ط (والعلاقة) والصواب (والعلامة) بالميم لأن المقصود علامة الإعراب في الاستعمالين.
(4) في ط (تتمادى) وربما كانت (تتمايز) أو (تتماز).
(5) في ط (نقاؤه) وربما قبلت في السياق على أساس أنه (النقاء) من طلب الأعواض و (العطاء).
(6) يقصد الطريق الصوفي.
(.) بتشديد النون.
(..) بسكون الباء.
(...) بفتح القاف وسكون الصاد.
(....) بكسر الباء والكاف.
(7) في ط (مبنى) وفي ك (يمنع) وكلاهما خطأ في النسخ.
(8) (أو حلفت بالله) موجودة في س و ت وهي ضرورية لتوضيح قوله فيما سبق (بإضمار فعل).
(9) في ط و ك و ت (فعلًا) وقد آثرنا (دخولًا) لأن السياق أكثر قبولًا لها حيث إن التنظير يراعى فيما بعد مراتب القوم وهم (يدخلون) الدار.

والإشارة: الجميع من جملة الخدم، ولكن منهم من (.) يدخل الدار ويتمكن في الصدر، ومنهم من حده (..) أن يحضر الباب ويقف من البعد، قال تعالى: ﴿ **قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ** ﴾ (1).

فصل [49]:

الظروف على ضربين (2): ظرف زمان وظرف مكان، وكلاهما منصوب، لأنهما مفعول فيهما.

وفي نحو القلب: الظرف أيضًا على ضربين: ظرف الزمان وظرف المكان، فالزمان هو الوقت، والوقت ما أنت فيه، ولكن ظرف الزمان في نحو القلب مختلف باختلاف (3) ما فيه، فإن كان الذي في الوقت وفاق (.) الأمر فظرف صاحبه على الضمة، لأن الضمة أقوى الحركات.

وإن كان الذي في الوقت خلاف الأمر فظرف صاحبه مكسور – لأن الكسر أرق (4) الحركات. وإن (6) كان الذي في الوقت المباحات (..) فظرف صاحبه مفتوح - لأن الفتحة أخف الحركات، والمباح أخف الحالات.

وأما ظرف المكان: فإن كان الحق – سبحانه – بنعت الرضا عن صاحبه فظرفه مرفوع أو منصوب، وإن كان صاحبه برقم (6) الحظ (7) فظرفه مكسور. فإن لون الماء لون (...) إنائه (8).

(.) بفتح الميم. (..) بفتح الحاء وتشديد الدال وضمها.
(1) آية 60 من سورة البقرة، 160 من سورة الأعراف.
(2) في س (على قسمين). (3) في ط (لاختلاف).
(4) في س (لأن الكسر ما دون الحركات).
(5) (وإن كان الذي في الوقت المباحات ... الحالات) وردت في س ولم ترد في بقية النسخ، ونرجح وجودها في الأصل لكي تتم أنواع الظرف.
(6) هكذا في النسخ ما عدا س فهي (بنعت).
(7) بحظوظ نفسه وليس بحقوق مولاه.
(.) بفتح القاف. (..) بضم التاء.
(...) بفتح اللام وسكون الواو وضم النون.
(8) سقطت عبارة (فإن لون الماء ...) من س وهي شاهد قوي يوضح المعنى جدًا.

هذا هو الفرق بين ظرف نحو الخطاب وظرف نحو القلب.

فصل [50]:

من أبواب النحو [1] الاستثناء، وهو إخراج بعض ما تناوله اللفظ – بدليل [2] متصل- منه [3].

نحو: جاء القوم إلا زيدًا، وغير ذلك.

فلو لم يعقب [.] لفظ الاستثناء لكان اللفظ المتقدم يقتضي للمستثنى دخوله في جملة الأشياء المخبر عنها.

والإشارة: أنه قد يجمع الوقت [..] والطريقة قومًا لو لم يتعقب ما يميز [...] البعض [4] لاشترك الجميع في الحال، ولكن جاء الحكم فأخرج البعض من الكل:

إن الأحبة شمروا [....] وبقينا [5].

كذلك قال الشيوخ: إن في كل عصر ووقت [6] يدخل في هذه الطريقة من لا نهاية لهم، ثم يخرج الأكثرون عند حصول الابتلاء والامتحان، ويبقى [7] القليل منهم، ولقد قال الشيوخ: هم الأكثرون – وإن قلوا، ومواضع الأنس [.....] حيث حلوا [......].

---

(1) لم ترد (من أبواب النحو) في س.
(2) في س (بلفظ) بدلًا من (بدليل).
(3) في ط (فيه) والأصوب ما أثبتناه على أساس أن الاستثناء (إخراج من ...).
(4) ابتداء من (البعض) إلى (الحكم) ساقط في س وموجود في بقية النسخ وسلامة السياق تقتضيه.
(5) كتبناها منفردة لأنها شطر من بيت، وربما كانت بيتًا كاملًا.
(6) سقطت (ووقت) في س.
(7) مشتبهة في س.
(.) بضم الياء وتشديد القاف وفتحها.
(..) بضم التاء.
(...) بتشديد الياء وكسرها.
(....) بتشديد الميم وفتحها.
(.....) بضم الهمز.
(......) بضم اللام وتشديدها.

وينقسم الاستثناء إلى قسمين: استثناء الشيء من غير جنسه، ويقال لـه الاستثناء المنقطع.

واستثناء من جنسه. وفي الإشارة: من كان ضدًا (.) غير مجانس فلا بأس بسقوطه، ولا مبالاة بخروجه.

ومن كان محرمًا [1] للقوم ... فإن نفى (..) [2] عنهم، وأخرج من بين جملتهم فالحسرة أشد، والحياة أصعب [3].

فصل [51]:

من الحروف ما يلحق بغيره، والمقصود منه تمييز ذلك الغير مما سواه. كالواو الملحقة بعمرو في الخط لتكون فرقًا بين عمرو وعمر (.) ... وهذا الإلحاق لا يدوم عند الاستغناء عنه – وهو مثل همزة الوصل فيما ذكرنا من قبل.

والإشارة: أن من الناس من (..) يلحق بالطريق [4] لأجل الغير، ثم يطرح (...).

---

(1) بضم الميم وكسر الراء. أي يشعر (بالحرمة) والتجلة لهم وربما كانت (محترمًا)، يقول القشيري في ذلك: (ومن شرط المريد إذا زار شيخًا أن يدخل عليه بالحرمة وينظر إليه بالحشمة) الرسالة ص 201.

(2) القشيري هنا متأثر بما حدث له وللإمام البيهقي من نفي وتشريد على يد الكندري، فأصابهما ولفيف من الأئمة بمحنة عظيمة.
(انظر الشرح، وانظر سيرة القشيري عند بسيوني في الإمام القشيري وآثاره وتصوفه ط. مجمع البحوث الإسلامية).

(3) في س (فالمحنة أصعب والحسرة أشد) وهي مقبولة أيضًا.

(.) بتشديد الدال وفتحها.

(..) بضم النون وكسر الفاء.

(4) في ت (بالطريقة) وهي صحيحة أيضًا والمقصود الطريق الصوفي.

(.) بضم العين وفتح الميم.

(..) بفتح الميم.

(...) بسكون الطاء وفتح الراء.

وقد قال الشيوخ: إن الله قبض لهؤلاء القوم أحد رجلين: أما مؤمنًا موافقًا [1] وإما منافقًا مسخرًا [2].

وأنشدوا:

أيهـــا المـــدعي ســـليمي هواهـــا * لســـت منهـــا ولا قلامـــة ظفـــر

إنمـــا أنـــت فـــي هواهـــا كـــواو * ألحقت [..] في الهجاء ظلمًا بعمرو

فصل [52]:

الأسماء على ضربين: منها ما ينصرف – وهو الاسم المتمكن، فالذي ينصرف يجري بوجوه الإعراب، وما لا ينصرف ناقص النصيب من الإعراب.

الإشارة: كذلك الخلق [.]، منهم من [..] هو مجدود [2] في القسمة، يحظى بكل النعم [3]، من إقبال ووصال، وتحقيق آمال، وزكاء أفعال، وصفاء أحوال، بالنهار له توفيق، وبالليل لوصله تحقيق، يجرون على البساط كما يريدون:

« ولا يرهق وجوههم [...] قتر ولا ذلة » [4].

ومنهم من هو منحوس الحظ، إن قبل بالنهار أذيق [5] بالليل طعم الرد، وإن وافى بالليل لحكم [6] الاتفاق تجرع [....] بالغد كأس الصد.

---

(1) في س بعدها (موافقًا موفقًا).
(.) بتشديد الخاء وفتحها.
(..) بضم الهمز.
(2) في ك (محدود) والصحيح ما أثبتناه.
(3) هكذا في ط وهي في س (نعيم).
(4) آية 26 سورة يونس.
(5) مشتبهة في ط.
(6) في ك (بحكم) والمعنى يتقبلها، وربما كانت العبارة كلها في الأصل (وإن وافى بالليل حكم الاتفاق ... إلخ).
(.) بفتح الخاء وسكون اللام.
(..) بفتح الميم.
(...) بفتح الهاء الأولى وضم الثانية.
(....) بتشديد الراء وفتحها.

فصل [53]:

إذا (.) صغرت اسما ثلاثيًا زدت ياء فيه وضممت أوله، فتقول في تصغير حجر حجير، كذلك إذا أراد الحق تحقير عبد في الرتبة زاد له شاغلًا (..)، فيتوهمه ذلك البائس نعمة وفضلًا ورفعة على أشكاله [1]، وهو في الحقيقة إذلال له ونقصان لحاله ... وعلى هذا النحو تقاس أقسام التصغير.

---

(1) في ط و ت (أشكالا به) والمعنى يتقبلها حيث إن النعم الممنوحة له في هذه الحالة من قبيل الامتحان والابتلاء.

(.) بتشديد الغين وفتحها.

(..) بضم الشين.

فصل [54]:

يقال في التعجب: ما أحسن زيدًا!

وأحسن بزيد!

وزيد ما أحسنه!

فتنصب الاسم إذا تعجبت من صفته فتقول:

ما أحسن زيدًا! أي: أي شيء حسن (.) زيدًا.

والإشارة: النصب أضعف الحركات، فإذا (1) دخل التعجب على الاسم خص بالفتح الذي هو أضعف الحركات، كذلك إذا دخل الإعجاب على المرء آل إلى أضعف (2) الحالات، فإن الإعجاب أشد (..) (3) الآفات.

---

(1) (فإذا دخل التعجب ... الحركات) مستدركة في هامش ت.
(2) في ك (ضعف) وهي خطأ من الناسخ.
(3) في ك (ابتداء) وفي بقية النسخ (أشد) وهذه هي الأقرب.
(.) بتشديد السين.
(..) بتشديد الدال وضمها.

فصل [55]:

الحال منصوب ... تقول: جاء زيد فرحًا، ففرحًا نصب على الحال، واستحق [1] النصب لأنه مفعول. والحالي تأتي بعد تمام الكلام، فلما أتى بعد تمام الكلام [2] صار كالمستغنى (.) عنه، فنصب (..).

والإشارة المستغنى عنه له أضعف الحركات، وأقل نصيب من الاستحقاق، ولهذا قيل: علامة المخلوق أوصاف النقص، لأن المخلوق مستغنى (...) عنه، قال تعالى:

« والله الغني وأنتم الفقراء » [3].

وانشدوا:

وبعين مفتقر (....) إليك نظرتي * فحقرتني ورميت بي من حالق

والحال لا يكون إلا نكرة. (ولذلك) [4] فإن صاحب الحال من القول يجب ألا ينظر (.....).

أحاله، لأنه إذا عرف حاله لاحظها، وإذا لاحظها أعجب بها، وإذا أعجب بها تلاشت، وكان الأستاذ أبو علي الدقاق [5] يقول: « أخص الأحوال [6] ما استترت [7] عن صاحبها ».

---

(1) في ت (واستحسن) وهي خطأ من الناسخ.
(2) (فلما أتى بعد تمام الكلام) زيادة في ت وهي مقبولة.
(3) آية 38 من سورة محمد.
(4) زيادة من عندنا ليتماسك السياق.
(5) أبو علي الدقاق شيخ القشيري وصهره: كان لسان وقته وإمام عصره أخذ عن النصر اباذي، وله كرامات ظاهرة (الكواكب الدرية للمناوي).
(6) في س (الأوقات) والسياق يتقبل (الأحوال ليتضح).
(7) في ك مشتبهة وربما كانت (سترت).
(.) بفتح النون.
(..) بضم النون وكسر الصاد.
(...) بتنوين النون.
(....) بتنوين الراء وكسرها.
(.....) بفتح الياء.

فصل [56]:

التمييز [1] يوجب النصب، تقول: عشرون درهمًا ... تشبيهًا بالمفعول حيث [2] أتى بعد تمام الكلام.

والإشارة: أن المفعول – لنقصانه عن الفاعل – خص (.) بالنصب لضعف المفعول وضعف الفتحة.

---

(1) سقطت (التمييز) من ك.
(2) في ص (متى) وهي مقبولة أيضًا.
(.) بضم الخاء وتشديد الصاد.

فصل [57]:

الهاء تلحق بعدد المذكر فيما دون العشرة، وتحذف من عدد المؤنث ... تقول: ثلاثة رجال، وخمس نسوة، وتضيف العدد ها هنا إلى المعدود.

واعتبر هذا نوعًا من المعادلة [1]، فلما كان المؤنث أثقل من الذكر حذفت العلامة من لفظ عدده، ولما كان المذكر أخفف من المؤنث زيدت الهاء في لفظ عدده فقالوا: ثلاثة رجال – والإنصاف في كل شيء عزيز [2]، فإن كان في أحد ضعف يجب أن يقوى (.) بغيره، وإن كان شيء قوة (..) حمل (...) ما يحتمله، ولهذا أمر في الشريعة بمواساة الفقراء، وكذلك تحميل العاقلة في الدية [3].

وقد [4] يفسر العدد بالمعدود نحو قولهم أحد عشر رجلًا، والتفسير يأتي بعد تمام الكلام فأشبه ما ذكرنا (من المفعول) [5].

---

(1) في ت (المعتادات) وفي ك (المعاداة) وهما لا معنى لهما في السياق إذ انصرف السياق إلى (الإنصاف) في (المعادلة).
(2) في ك (عشرون) (وربما كانت (عشر) ثم ضم إليها في الكتاب الواو والنون اللتين في (وأن) بعدها).
(3) ارجع إلى كتاب العقول ص 181 في موطأ مالك جـ 2 ومن أمثلة ما يمكن إيراده هنا قوله: الكبير والصغير إذا قتلا رجلًا جميعًا عمدًا، أن على الكبير أن يقتل وعلى الصغير نصف الدية.
(4) (وقد يسفر ... ذكرنا) سقط هذا في س وموجود في بقية النسخ.
(5) (من المفعول) زيادة من عندنا تعريجًا على ما ذكرناه في الأبواب السابقة.
(.) بتشديد الواو وفتحها. (..) بتنوين التاء المرفوعة.
(...) بضم الحاء وتشديد الميم المكسورة.

فصل [58]:

من الأسماء ما هو اسم موصول [1] لا تتم الفائدة إلا بصلته نحو: ما ومن [.] والذي وأي.

والإشارة: كذلك من الناس من لا [2] يستقل بتدبيره، ولا يكون له بد [..] [3] من غيره، ثم إن أراد الله [4] به خيرًا سد [...] عليه طريق المخلوقين، وفتح عليه طريق [5] شهود الحق – سبحانه.

وإن أراد به سوءًا فالحال [6] بالضد [7] [8].

---

(1) وردت (موصوف) في ب وهي خطأ من الناسخ.
(2) سقطت (لا) في س والسياق يتطلبها.
(3) في ط (يد) بالياء وهي مرفوضة.
(4) في ك (عز وجل) بدلًا من لفظ الجلالة.
(5) سقطت طريق من ت.
(6) في ك (فالمال) ونرجح أنها (المآل) بالمد، وعندئذ فهي مقبولة.
(7) في ك (بالضد) أي غير كاملة الرسم، وهي في ت (الضد) بدون الباء، وهي مقبولة.
(8) السطران الأخيران بكاملهما ساقطان في ب، وبدونهما لا تكتمل الإشارة المستنبطة.
(.) بفتح الميم.
(..) بضم الباء وتشديد الدال مع التنوين.
(...) بفتح السين وتشديد الدال.

فصل [59]:

إذا نسبت اسمًا إلى اسم زدت في آخره ياء مشددة وأقر (.) (1) الأول بحاله، تقول في النسب إلى جعفر جعفري، وإلى عمر عمري ... وكذلك حروفه وأقسامه.

والمنسوب يختص بالمنسوب إليه، وقيمة كل منسوب ما ينسب إليه، وإنما ينسب الشيء إلى الشيء إذا كان بينهما اختصاص.

والإشارة: يجب أن يطالع كل إلى ماذا ينسب (..)؟ إن كان رجل ينسب إلى الدنيا يقال له (2) دنياوي (3) فقيمته الدنيا (4).

وإذا كان الغالب عليه حديث (5) الآخر نسب إلى الآخرة، فقيمته الآخرة.

كذلك جميع ما هو الغالب عليه، فلينظر (...) كل (6) غالبه (7) يعرف (....) قدره (.....).

---

(1) أي (وأبقى) أو (وأبقى) وهي في ك (وأمر).
(2) في س (يقال فلان دنياوي).
(3) في س (دنيوي).
(4) (فقيمته الدنيا) في س وليست موجودة في بقية النسخ.
(5) سقطت (حديث) في س.
(6) سقطت (كل) في ت.
(7) هي في س (عالمه) بفتح اللام. وهي مقبولة على أساس أن الحديث عن الدنيا والآخرة، ولكننا رشحنا (غالبه) على أساس أن الكلام عما يغالب على المرء.
(.) بضم الهمز وكسر القاف وتشديد الراء.
(..) بضم الياء.
(...) بسكون الراء.
(....) بسكون الفاء.
(.....) بسكون الداء وفتح الراء.

فصل [60]:

الجموع مختلفة، فمن جمع هو أقل الجمع، ومن جمع هو جمع الكثير، وأقسام الجمع تكثر [1]. كذلك أحكامه.

والجمع إنما يكون لأشكال تزدوج [2]، وأمثال تجتمع ثم يخبر [.] عن المجتمعات باسم واحد.

والإشارة: الإنسان [3] اسم شامل [4] لجملة مخصوصة لها بنية [..] مشهورة. فمن [...] كانت صفاته وخصاله وضيعة فجمعه جمع القليل، ومن [5] كانت خصاله شريفة فجمعه جمع الكثير، وباختلاف أحكامه، اختلاف مقداره ومقامه.

والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، فهذه فصول في نحو القلوب أنشأناها على وجه الإيجاز، وبالله توفيق الخلق أجمعين، وعليه التكلان، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم [6].

---

(1) في ط (تكسر) وربما كانت (تكسير) فالفصل كله يتحدث عن جمع التكسير.
(2) في ط وحدها (تزدري) ولا معنى لها، وربما قصد من (تزدوج) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ ومن كل جعلنا زوجين اثنين ﴾ بداية للتكاثر والتناسل.
(3) واضحة في س ومشتبهة في بقية النسخ، وقد رجحنا (الإنسان) فمهما تعددت الأشكال والألوان فماهية الإنسانية تجمعها.
(4) (اسم شامل) سقطت في س وموجودة في بقية النسخ وهي مهمة في توضيح السياق.
(5) في ت (وان) وهي مقبولة أيضًا.
(6) تنتهي س عند (والمآب)، وتنتهي ط بهذه النهاية كلها أي ابتداء من (فهذه فصول ... وسلم) أمات فتنتهي بسطر مشطوب وتوقف عند كلمة (ومقامه) أماب فيؤرخ الناس لعمله (بشعبان المبارك – دامت بركته – لسنة ثمان وسبعمائة من الهجرة).
(.) بضم الياء وفتح الباء.
(..) بكسر الباء وسكون النون.
(...) بفتح الفاء والميم.



القسم الثاني

شرح الكتاب ودراسته

تمهيد

بسم الله الرحمن الرحيم

فصل [1]:

النحو بين الظاهر والباطن

(الحمد لله رب العالمين، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم).

قال الأستاذ أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري – رحمه الله:

النحو (في اللغة) هو القصد إلى صواب الكلام، يقال: نحو تنحوه، أي قصدت قصده.

(وهذا النوع في العربية يسمى نحوًا لأنه القصد إلى صواب الكلام.

وأما نحو القلب فهو: القصد إلى حميد القول بالقلب، وحميد القول مخاطبة الحق بلسان القلب، وينقسم ذلك إلى:

المناداة والمناجاة: فالمناداة صفة العابدين، والمناجاة نعت الواجدين، المناداة على الباب، والمناجاة على بساط القرب).

التعريف عند أهل العبارة

كثيرًا ما تزخر مطولات النحو في بداياتها بتعريفات شتى للنحو تعبر عن اهتمام أصحابها بشيء أو بأشياء دون غيرها، فيبقى التعريف غالبًا قاصرًا عن بلوغ وصفه بالجامع المانع، ومع أن الشيخ لا يريد إضافة كتاب جديد في نحو أهل الظاهر إلا أنه أفاد فائدة عظيمة حين اختار هنا تعريفًا انتقائيًا يكفي للدلالة على المهمة الأساس من ناحية، ويكفي – رغم اختصاره – ليكون مدخلًا للإشارات التي يستنبطها الشيخ في كنفه. ولكي ندرك اتجاهه في هذه الخصوص نرانا مضطرين إلى فتح الباب أمام بعض التعريفات المشهورة لنتبين أن الشيخ قد اختار من جملة الآراء المعتمدة هناك الركيزة الثابتة المحددة المعالم التي رآها كافية لتحديد ماهية هذا العلم من ناحية، وتستلزم في الوقت ذاته الانطلاق منها إلى معارف في علوم (أخرى) لها طابعها الخاص ولكنها تتكامل ضروريًا لخدمة السياق – من ناحية أخرى. وهذا التصور لعلم النحو يمنع من التداخلات ... كما أنه يكفي لإطلاق الإشارة – للغرض المنشود من وضع هذا الكتاب.

ولكي نوضح الأمر ... فإن التعريف بـ (صواب الكلام) يدعو على الفور إلى سؤال: وهل كل صواب الكلام يحقق المقاصد؟ والجواب لا بد أن يكون هذا الكلام الصائب موافقًا لمقتضى الحال – وهنا يبرز دور علم البلاغة؟ هل استوفى هذا الكلام الصواب المقاييس الفنية الدلالية والصوتية؟ وهنا يبرز دور العلوم النقدية ... وهكذا.

نعود فنقول: في الوقت الحاضر يكفي الشيخ أن يختار مادة كافية للتنظير. فصواب الكلام في نحو الظاهر قضية يحكمها العقل والمنطق اللذان يشرعان قواعد ضابطة تتحكم في أواخر الألفاظ ... من هنا يصح له أن ينطلق نحو الإشارة ليبدأ حواره وتنظيره.

ولنتوقف قليلًا مع نحو الظاهر في المطولات، ولنلحظ قصور بعض التعريفات عن إدراك القاسم المشترك الأعظم للتعريف بالماهية.

يرى الجرجاني: « أن النحو علم بقوانين تعرف بها أحوال التراكيب العربية من الإعراب والبناء وغيرهما. فهو علم بأصول تعرف بها صحة الكلام وفساده » (1).

أما ابن دريد فيذهب إلى: « نحوت الشيء أنحوه إذا قصدته » (2).

على حين يذهب صاحب اللسان إلى أن: « نحا الشيء ينحوه إذا حرفه. والنحو يسمى كذلك لأنه يحرف الكلام إلى وجوه الإعراب » (3).

ويقول ابن سيده: « الانتحاء اعتماد الإبل في سيرها على الجانب الأيسر، ثم صار الانتحاء الميل والاعتماد في كل وجه » (4).

ويتجه ابن جني إلى أن « النحو انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره، كالتثنية والجمع، والتحقير والتكثير والإضافة والنسب ... إلى غيره ».

وفي شرح الأشموني على الألفية يقول: « إن النحو: هو العلم المستخرج بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب الموصلة إلى أحكام أجزائه التي ائتلف منها » (5).

ويعلق الصبان على الأشموني بأنه: « علم يبحث فيه عن أحوال آخر الكلمة ».

---

(1) التعريفات ص 214.
(2) الجمهرة جـ 2 ص 197.
(3) اللسان مادة ن ح و.
(4) الخصائص جـ 1 ص 34. ط دار الكتب.
(5) الأشموني جـ 1 ص 15.

وننهي هذا الموضوع برأي للسكاكي حيث يقول: « النحو هو أن تنحو معرفة كيفية التركيب فيما بين الكلمة » (6).

التعريف عند أهل الإشارة

هو القصد إلى حميد القول بالقلب في المناداة والمناجاة ونتوقف عند كل لفظ في التعريف لنلقي الضوء على المرامي البعيدة للشيخ من هذا العلم، ومن التنظير وبين نحو العبارة.

حميد القول بالقلب: ونبدأ بملاحظات لها أهميتها في الصياغة:

1 – حميد هنا يقابلها صواب هناك.

2 – استخدام القشيري هنا لفظ « القول » وتجنب لفظ « الكلام ».

3 – القلب هنا يناظره اللسان هناك.

معنى هذا أننا أمام متناظرين: صواب الكلام باللسان هناك، وحميد القول بالقلب هنا ... وهذا تنظير دقيق، لأنه إذا كان الأول علمًا مكتسبًا وضعيًا يقعد القواعد الضابطة لحفظ الكلام – مفردًا ومركبًا – من الخطأ والوقوع في الفساد، فإن الثاني نطق بالقلب غايته ذكر الله سبحانه بالقول الحميد من خلال المناداة والمناجاة.

فإذا كان « اللسان » في نحو الظاهر هو عمدة الأمر، ومناط الأمل. فإنه في نحو القلبي يأتي في درجة أدنى من ملكات أخرى هي القلب والروح (.) وسر السر ... على نحو ما نفصل في مواضع مختلفة من الشروح. وآية ذلك ما يقوله الشبلي:

---

(6) مفتاح العلوم ص 41.
(.) بتشديد الراء.

ذكرتـــك – لا أنـــي نســيتك لحظـــة

وأضــعف مــا فــي الــذكر ذكــر لســاني

ويقول الجنيد: « التوحيد قول القلب »:

وينظر الشيخ زكريا الأنصاري إلى ما يجري على اللسان عنده هذه الطائفة بأنه من قبيل المجاز، أما الحقيقة فهي لهذا الكلام النفسي الذي ينطق به القلب. ولماذا نذهب بعيدًا والدين يرشدنا إلى أن « الأعمال بالنيات » والنيات – بطبيعة الحال – موضعها القلب، وهي إذا انعقدت على شيء دفعت بالبدن كله إلى ممارسة الفعل ... فهي الأسبق وهي الأخطر.

لماذا تجنب الشيخ استخدام لفظ « الكلام » في نحو القلب؟

هذا سؤال يطرح نفسه ...

القشيري عالم من علماء الكلام، وهو يدرك أن « الكلام » على الحقيقة صفة إلهية قديمة قدم الذات كالوحدانية والسمع والبصر والإرادة والعلم والحياة.

ونحن لو تتبعنا دوران مادة (ك ل م) في القرآن الكريم لوجدناها تتحدث في غالبية المواضع التي وصلت إلى الخمسين موضعًا إما عن الله سبحانه أو عن إنسان في موقف غير عادي مألوف، أو أن يكون مأذونًا به من الرب سبحانه، أو للموتى ... ونحو ذلك من المواقف غير المألوفة في الطبيعة. لأجل هذا احترز القشيري في استخدامه لفظ البديل واختار قول القلب أو نطق القلب ... ولا ضير على أهل النحو التقليدي أن يستعملوا اللفظ كما جرت أعرافهم ... أما هنا فالدقة واجبة ... لأن التوجه هنا نحو المولى سبحانه، وظاهرة انتقاء الكلمات هنا بعناية فائقة ملمح من ملامح التأليف في هذا الكتاب ... لأن الاحتشام مطلوب في مقام الملوك!

هنا ... في كثير من الأحيان يكون الصمت أولى من الكلام، بل تكون العبادة تأملًا مديدًا في أرجاء الكون – يقول الحلاج:

فلمـــا رآنـــي الوجـــد أنـــك حاضـــري

شـــــهدتك موجـــــودًا بكـــــل مكـــــان

فخاطبـــــت موجـــــود بغيـــــر تكلـــــم

ولاحظـــت معلومًـــا بغيـــر عيـــان [7]

ويقول القشيري: « إذا ورد كشف خرست العبارات عند ذلك، وإنما يؤثر أرباب المجاهدات السكوت ... لأنهم علموا ما في الكلام من الآفات وحظ النفس، والميل إلى التميز عن الأشكال » [8].

والفصاحة هنا مخبأة وليست مكشوفة يزهو بها اللسان:

ســـر الفصـــاحة كـــامن فـــي المعـــدن

لخصـــــائص الأرواح لا للألســـــن [9]

الميل عن القصد في الحالين:

اشترك النحوان في لفظ « القصد »، وأوضحنا ذلك وشرائطه فيما سبق ... والآن نبحث مدى ما يحدث إذا أصيب كل منهما بما يبتعد به عن القصد.

الميل عن القصد في نحو الظاهر يؤدي إلى اللحن ... وهو خطأ، أما فيما يختص بنحو القلوب ... فهو خطيئة، لأن المسألة هنا تتصل بأذكار للمولى سبحانه، استمع مثلًا إلى قول القشيري عند الآية الكريمة:

(7) تاريخ بغداد، المجلد 14، ص 390.
(8) الرسالة ص 63.
(9) قوانين حكم الإشراق، ط الشروق.

« ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون ».

(سبحان من تعرف إلى أوليائه بنعوته وأسمائه فعرفهم (.) أنه هو وبأي وصف هو، وما الواجب في وصفه وما الجائز في نعته وما الممتنع في حقه وحكمه، فإن العقول محجوبة عند الهجوم بذواتها لما يصح إطلاقه في وصفه ... وأما قوله: « الذين يلحدون » فالإلحاد الميل عن القصد وذلك إما بالزيادة أو بالنقصان، فأهل التمثيل زادوا فألحدوا وأهل التعطيل نقصوا فألحدوا » [10].

والقشيري يقصد أم الممثلة والمشبهة فسروا القرآن على ظاهره فتصوروا الله أيد وأرجلًا ووجهًا وعيونًا ... إلخ لذلك قبحهم الله.

وأما المعطلة فهم الذين جردوا الذات من الصفات – إشارة إلى بعض المعتزلة – حتى لا تكون هناك إلا الذات زاعمين أن ذلك هو التوحيد المطلوب في حقه تعالى.

بين المناداة والمناجاة:

قبل أن نفهم معانيهما الاصطلاحية نوضح الجانب اللغوي لهما فإن هناك ارتباطًا وثيقًا بين الاصطلاح واللغة.

المناداة من النداء ... وهو رفع الصوت وظهوره. وأصل النداء من الندى أي الرطوبة. ويقال صوت ندي أي رفيع.

وناداه مناداة أي صاح به.

والمنتدى مجلس القوم وموضع حديثهم.

(.) بتشديد الراء.

(10) لطائف الإشارات تحقيق د. بسيوني، جـ 1 ص 591.

أما المناجاة: فهي واحدة من النجوى أي الحديث الخفي، وناجيته أي ساررته، وأصله أن تخلو به في نجوة من الأرض، ومن النجاة أي تعاونه على ما فيه خلاصه.

وتنجو بسرك من أن يطلع عليه أحد.

قال تعالى:

« ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض وما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ... ».

فالنجو السر بين اثنين، وكذا ناجيته.

أما في الاصطلاح:

فالمناداة: الصلاة المطلوبة من كافة المسلمين، فهي في جوهرها تبدأ بالنداء (الآذان) وينادى المصلي ربه طوال قيامه وركوعه وسجوده. فإذا زدنا الاصطلاح تحديدًا وجدنا أن المقصود بها هنا « المقامات ». فالتصوف مقامات وأحوال.

المقامات هي تلك الجهود الكسبية التي يمارسها العبد في المراحل الأولى من الرحلة الصوفية كالتوبة والزهد والورع والتوكل والصبر والرضا. وإذا كانت (المقامات) كلها من الجهود فإن (الأحوال) من عين الجود، أي من فضل الله وبه ... وسنتحدث عنهما كثيرًا جدًا في هذا الكتاب ... ولهذا نكتفي هنا بهذا القدر.

فنسمح لأنفسنا أن نقول إن الشيخ هنا يريد أن يحدد تعريف النحو بقوله: « وحميد القول مخاطبة الحق بلسان القلب بالمناداة والمناجاة ».

وهذه هي القاعدة الأساس للوصول إلى التوحيد – كما سنرى، ذلك لأن المناجاة تبدأ من طرف العبد ثم يأتي وقت يكون الرضا الإلهي قد وصل إليه، فتجري الأمور في المناجاة على شكل خطاب وجواب، أي منن

إلهية تنثال على عبده من الرجاء والخوف والأنس والهيبة والبسط والقبض ... إلخ.

ويجب أن يلتزم العبد أدب (السكون) والصمت عندما تتجلى (الهيبة) فلا يكون منه أو فيه حس ولا خبر [11]. لأنه لم يعد هناك إلا (واحد).

وإذا كانت المناداة محددة بمواقيت ومنازل ومراتب فإن المناجاة لا تخضع لشيء من ذلك لأنها مرتهنة بأفضال الله في البداية وفي الإيقاف وفي الاستمرار ... وأحيانًا – وهذه نكبة عظمى على أصحابها – يصدر الأمر بزوالها فترة قد تطول وقد تقصر ... وقد تتلاشى!

ومع أننا سنعود إلى حديث « المناداة والارتجال » في فصل قادم إلا أننا نشعر بضرورة الإفاضة هنا في هذا الموضوع حتى يكتمل فهم الفصول التالية مباشرة.

وقد اجتمعت المناداة والمناجاة في قوله تعالى حاكيًا عن موسى — :

« وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا ».

ويفسرها القشيري هكذا: « للنجوى مزية على النداء، وجمع لموسى الوصفين، النداء في بدايته، والنجوى والسماع في نهايته، فوقفه الحق وناداه، وفي جميع الحالين تولاه » [12].

ومن العبارة الأخيرة يتضح صواب ما استنبطناه من إشارة الشيخ هنا في هذا الفصل: فالمقصود بالمناداة والمناجاة: المقامات والأحوال.

والأحوال تعني أن العبد في كنف مولاه، هو الذي يسبغ عليه بمقدار استحقاقه، فعلى قدر الجهود يكون الجود.

---

(11) ترتيب السلوك للإمام القشيري تحقيق بسيوني.
(12) اللطائف جـ 2 ص 433.

والمناجاة وسيلة الصادقين إذا اشتدت بهم ؛ البلوى فهم يفزعون إلى الوقوف عند محلها على نحو ما يفصل الحلاج واصفًا هذا الحضور الدائم:

والله مـــا طلعـــت شـــمس ولا غربـــت

إلا وحبـــــك مقـــــرون بأنفاســــــي

ولا هممـــت بشـــرب المـــاء مـــن عطـــش

إلا رأيـــت خيـــالا منـــك فـــي الكـــاس

ولا خلـــوت إلـــى قـــوم أحـــدثهم

إلا وأنـــت حـــديثي بـــين جلاســـي (13)

هذه الملازمة أصبحت مبعث راحتهم ومناط آمالهم بل هي شفاؤهم وعلاجهم.

إذا مـــا تمنـــى النـــاس روحًـــا (.) وراحـــة

تمنيـــت أن أشـــكو إليـــك فتســـمعا

وهم في سبيل تحقق هذه المناجاة يجتهدون غاية الاجتهاد، ويستفرغون نهاية الوسع، وتراهم – رغم علو أقدارهم – ينزلون في السؤال والدعاء منزلة العصاة، ويقفون موقف المعتذر، ويخاطبون بلسان الاستغفار والتنصل:

ومـــا رمـــت (..) الـــدخول عليـــه حتـــى

حللـــــت محلـــــه العبـــــد الـــــذليل

---

(13) ديوان الحلاج المقطعة رقم 31.
(.) بسكون الواو.
(..) بضم التاء.

وهذه رابعة – بعد أن ملأت الليل كله بالدعاء والاستغفار – يعلو صراخها قائلة: « ما أحوج استغفاري إلى استغفار » ذلك لأنها قد تشعر في بعض الأوقات بدبيب خفي يتسرب إلى أعطافها فيجعلها تشعر أن عملها هو الذي أوصلها إلى شيء ما، فهي تسرع لكي تطارد هذا الدبيب الخفي، وتسقط عن نفسها التدبير، وتمتلئ بحقائق وأفضال التنوير – فالفضل الإلهي – وحده – هو مناط الرجاء في الوصول، وعمل

الإنسان – وإن كان مطلوبًا وضروريًا – إلا أنه أهل المناجاة ليس ذا بال. لا يكفي عمل العبد، بل لأن الحبيب هناك ينتظر الوجوه الناضرة التي ستبقى إلى ربها ناظرة. تقول ريحانة – وهي زاهدة عظيمة الشأن عاصرت إبراهيم بن أدهم:

بوجهـــــك لا تعـــــذبني فــــإني
أؤمــــل أن أفــــوز بخيـــر دار
وأنـــت مجـــاور الأبـــرار فيهـــا
ولـــولا أنـــت مـــا طـــاب المـــزار (.)

فإذا ما سارت المناجاة في طريقها على هذا النحو ضمنت للعبد ألا يتسرب إليه – وهو يحث خطاه – نسيان أو طغيان، أو تنتابه غفلة أو عصيان، ويكون المنتهي كما قلنا منذ قليل الوصول إلى التوحيد: « فإذا كوشف العبد بالتوحيد شهد أن القائم عليه والمجري عليه والممسك له والمتنقل (..) إياه من وصف إلى وصف – واحد لا يشاركه قسيم ولا يضارعه نديم. ومن علم أنه بالله علم أنه لله، فإذا علم أنه لله لم يبق فيه نصيب لغير الله، فهو مستسلم لحكم الله، لا معترض على تقدير الله، ولا معارض لاختيار الله، ولا معرض عن اعتناق أمر الله » [14].

(.) بسكون الراء.
(..) بضم الميم وتشديد القاف وكسرها.
(14) اللطائف المجلد الثاني.

وليكن بعد ذلك ما يكون، فإذا كانت المثوبة فيها، وإلا فمرحى بعقوبة المحبوب لحبيبه:

أريـــــد، لا أريـــــدك للثـــــواب
ولكنـــــي أريـــــدك للعقـــــاب
فكـــل مـــآربي قـــد نلـــت منهـــا
ســـوى ملـــذوذ وجـــدي بالعـــذاب

الوجد والواجد:

يفرق الشيخ في رسالته بين (التواجد والوجد والوجود) فالتواجد استدعاء الوجد



بضرب اختيار، وليس لصاحبه كمال الوجد، إذ لو كان لكان واجدًا. وباب (تفاعل) أكثره على إظهار الصفة والتكلف.

أما (الوجد) فهو يصادف قلبك، ويرد عليك من حزن أو طرب بلا تعمد أو تكلف. والمواجيد ثمرات الأوراد، فكل من ازدادت وظائفه ازدادت من الله تعالى لطائفه (والمواجيد جمع وجد على غير قياس كما يرى الشيخ زكريا في هامش الرسالة) عند الموضع ذاته.

أما (الوجود) فهو الارتقاء عن الوجد، إذ لا يكون (وجود) الحق إلا بعد خمود البشرية كما يخمد ضوء العين في ضوء الشمس، ولا تكون الغلبة إلا لضوء الشمس كذلك تخمد البشرية عند ظهور سلطان الحقيقة [15].

فالتواجد بداية، والوجد واسطة والوجود نهاية. وترتيبها كمن شهد البحر ثم ركب البحر ثم غرق في البحر ... اللهم اجعلنا من الغارقين!

فالمسألة على الترتيب التالي: قصود ثم وجود ثم شهود. ويحسن أن

---

(15) الرسالة ص 36.

نضيف هنا رأي الكلاباذي في الوجد: الوجد بشارات الحق بالترقي إلى مقامات المشاهدة، ونحس ذلك عن قرب من قول الجنيد (والحظ (.) المناجاة والوجد في النص):

وتحققـــــك فـــــي ســـــري (فناجـــــاك) لســـــاني

فاجتمعنـــــا لمعـــــان وافترقنـــــا لمعـــــاني

إن يكـــــن غيبـــــك (..) التعـــــظـــــيم عـــــن لحـــــظ عيـــــاني

فلقـــــد صـــــيرك (...) الوجـــــد مـــــن الأحشـــــائي دانـــــي [16]

وقبل أن نغادر هذا الموقع علينا أن ننبه إلى:

مقصود الشيخ بالباب والبساط كما جاء في المتن، فنقول إن ممارستنا الطويلة لأسلوبه في مصنفاته تكشف عن تصوره أن مراحل الدخول والتمكين تتدرج من الباب إلى البساط إلى العقوة أو الساحة ثم السدة (....) (انظر مثلًا لطائف الإشارات) [17] وهو تصور يراد به إفهام المريدين والمتذوقين ... لا أكثر حتى يعرف كل منهم موقعه في الخدمة، فلا ينبهر ولا يتجاوز ... بل يتأدب ويقف عند حده.

(.) بسكون اللام وفتح الحاء.
(..) بتشديد الياء وفتحها.
(...) بتشديد الياء وفتحها.
(16) التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي ص 135.
(17) لطائف الإشارات، المجلد الثاني ص 15.
(....) بضم السين وتشديدها.



فصل [2]:

أقسام الكلام – اسم – فعل – حرف

(الكلام اسم، وفعل، وحرف. جاء لمعنى:

وفي نحو (القلوب): الاسم هو الله والفعل ما كان من الله، والحرف إما يختص بالاسم فيوجب له حكمًا، أو يختص بالفعل فيقتضي له نسبة، وكما أن الحرف إذا دخل على الاسم أوجب له إما حكم النصب أو الخفض أو غيره، فالوصف الذي هو العلم يوجب لله حكم العالم (.) ... وكذلك القدرة والحياة وسائر صفات الذات.

وكما أن من الحروف ما يوجب للفعل حكم النصب والجزم فوقوع أفعال الحق على أوصاف يوجب له نعت الاسم في الخلق.

(.) بكسر اللام.

ربما يشعر القارئ غير المتمرس بأسلوب القشيري بشيء من عسر الفهم لهذا الفصل، وقد يسرع فيتهم الشيخ بالإلغاز، والحقيقة تخالف ذلك، فالشيخ هنا يضع دستورًا للذكر الصوفي وأبعاده إذا ارتبط بالتفكر في الأسماء والصفات الحسنى ... على النحو التالي:

1 – (الله) هو اسم الذات، وهو للتعلق دون التخلق، أي ليس لأحد من المخلوقين أن يتسمى به، وكذلك (الرحمن) « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ».

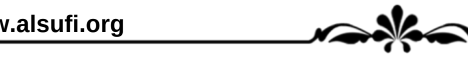
2 – صفات الذات، وهي تلك الصفات القديمة التي قامت بها الذات الإلهية منذ الأزل وهي: القدم والقدرة والإرادة والعلم والحياة والكلام والسمع والبصر.

3 – صفات الفعل، وهي تلك الصفات المعبرة عن فعله سبحانه في الكون: كالخالق الوهاب والزراق والمحيي والمميت والهادي والمنعم ... ونحوها، فهي تتجلى في الكون والعباد، وتنعكس آثار التجليات حسبما تقتضي الصفة من المعاني، فليس في الكون والطبيعة إلا مخلوق بيد الخالق، مرزوق من قبل الرازق، حي (.) أحياه المحيي ... إلخ.

وما دام الفاعل في الكون هو (الله) وحده، فإن الاسم – على الحقيقة – اسمه، قال تعالى معلمًا نبيه > كيفية الذكر: « واذكر اسم ربك »، وقال تعالى مذكرًا نبيه > رد (..) كل فعل لفاعله الأصيل: « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى »، وقال: « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ».

وقد اجتمع اسم الذات واسم الفعل في أول آية نزلت من القرآن الكريم: « اقرأ باسم ربك ... الذي خلق » الأولى عن الذات، والثانية عن الصفات، وهكذا فإنه إذا كان الاسم - على الحقيقة – هو (الله) فإن

(.) بتشديد الباء.
(..) بتشديد الدال وفتحها.



الفاعل على الحقيقة هو سبحانه والفعل على الحقيقة له سبحانه، فإذا صرفنا إلى الإنسان فعلًا في الكون فهذا من قبيل التسمية النسبية باعتبار الإنسان العلة القريبة أو السبب القريب، أما لو تغاضينا عن هذه النسبة لأرجعنا الأمر كله الله، « فكل شيء له وبه ومنه وإليه » - كما يقول القشيري. وأرجو القارئ أن يعيد قراءة هذه الجملة الأخيرة ليتضح له كيف تقوم (الحروف) بدور (الرباطات) كي تؤدي المعنى المراد الذي ينبغي استحضاره في كل لحظة. والمتصوفة بطبعهم يتذوقون هذا جيدًا فتراهم لا يحثون المريدين على القول: هذه لي أو مني أو بي ... ونحوها، لأنها في نظرهم تشير إلى دعوى النفس وأن العبد يأتي منه شيء، والمفروض أن يتخلص أحدهم من كل دعوة وادعاء، لأن الدعوى والإدعاء في نظرهم من قبيل الشرك الخفي [1]، فالمريد

– على الحقيقة – من ليس له إرادة، لأن: الإرادة بالكلية لله وحده، ولهذا فإن لفظ « الحق » أكثر الأوصاف جريانًا على ألسنة الطائفة. وبهذا التوضيح تظهر لنا أهمية الرؤية الصوفية للموضوع من كل جوانبه، وهم يحرصون على هذه الرؤية في سلوكهم ونصائحهم ووصاياهم لأنفسهم وفي تفسيراتهم الإشارية لكتاب الله الكريم.

ونشعر أن هذه النظرة الخاصة التي يتفرد بها الصوفية عن غيرهم من المفكرين كالمتكلمين والفلاسفة مثلًا بحاجة إلى متابعة وتأصيل. ففي رأينا أن ذلك من أجل [.] الإضافات التي تقدمها الحقيقة للشريعة كي يتدعما في نهاية الأمر، على عكس ما يظن البعض بدافع الجهل أو الغرض أو المرض من وجود تنافر بينهما، وذلك الاتهام الموجه للصوفية زور وبهتان.

ولنبدأ بتوضيح ذلك فيما يختص (بالذكر الصوفي): أطواره ومذاقاته – وعندئذ سيصبح معنى الفقرة واضحًا. إذا ما خلا الصوفي إلى ربه، ولزم

---

(1) انظر (التحبير في التذكير) تحقيق بسيوني. طبعة عالم الفكر.
(.) بتشديد اللام وكسرها.

الصمت، وبدأ التأمل المديد والتفكير والتدبر ... انطلق بلا حدود في سياحة لا نهائية، وأخذ يقفز ببصيرته متنقلًا في أرجاء الكون والطبيعة والإنسان يتابع عظمة الخالق المدبر الوهاب المنعم ... فيما خلق ودبر ووهب وأنعم ...، وهنا تكون الطبيعة أقرب إليه مما بعد الطبيعة، والمتاح أقرب من البعيد المنال. معنى هذا بكلمات أخرى تتفق مع كتابنا هنا: أن العبد يبدأ بمتابعة تجليات صفات (الفعل) الإلهي للفاعل (الحق) سبحانه.

ولكن التركيز ينتهي بهذه السياحة التأملية عند (صفة) واحدة فقط ولتكن (صفة) (المنعم) مثلًا، وهنا تنحصر الدائرة في: إنعام الله ... ما أكثر نعم الله على عباده في السماء وفي الفضاء وفي الماء وعلى الأرض وتحت الأرض ... أشياء لا تقع تحت حصر ولا حد ... ثم إنعام المنعم على الإنسان نفسه ... أفضال متلاحقة في كل نفسه يتردد في الصدر، بل إن هذا النفس في حد ذاته نعمة كبرى لأنه الحياة نفسها، بل هناك نعم أخرى تغيب عن وعي الكثيرين، وليست من قبيل المنح بل من قبيل المنع، ولو تفكر الإنسان لعرف أن نعم المنع أكثر عددًا من نعم المنح، فمثلًا: أنا هنا في هذا المكان، وكنت أزمع أن أصل إلى المكان الفلاني، ولكن شيئًا ما صعب علي الانتقال إلى هناك، فأصابني الجزع والضيق، ثم ما لبست حتى جاءت الأخبار بوقوع حادثة هناك أو في الطريق إلى هناك ... حمدًا لله ... لقد نجوت من الكارثة! إن الإنسان بطبعه يفرح لما يصيبه من نعمة المنح ... كالصحة والولد والمال ولكنه قليلًا ما يفطن إلى ما جنبه ربه من ويلات ... وإذًا فينبغي عند أهل الصفوة الشكر لله في كل حال مهما كانت الحال: منحًا أو منعًا.

ونعود إلى هذا العبد الذاكر فنجده قد مضى في الدروب إلى نقطة أبعد، إنه يتذكر (مصدر) هذه النعم، إنه (المنعم)، (ذاته)، ويتلبث وقتًا طويلًا غارقًا في هذا (الوصف)، ويبقى كذلك ما شاء له الله أن يبقى في الذكر والتأمل والتفكر ... ما معنى هذا كله؟



معناه أن (صفات الفعل) تؤخذ هنا كما تؤخذ عند الفلاسفة أو المتكلمين حيث يثيرون جدلًا نظريا فيه مهارات العقل ولكن فيه برودة الرخام، مناهج من التفكير لا تجدي في إنعاش الوجدان وتدفئة العاطفة.

إنها هنا أسلوب حياة، فالجماليات تؤدي إلى (الجميل) سبحانه، والجلاليات توصل إلى (الجليل) سبحانه، والأرزاق تنتهي إلى (الرزاق) سبحانه، والبدائع التي لا حصر لها تتصل (بالبديع) سبحانه ... وهكذا يرتبط الذكر بالسلوك. فإذا تحقق ذلك على وجوه تتضمنها تعاليم الصوفية وأورادهم انثالت الأنوار على خاطر المتأمل الذاكر المتفكر، وانفتحت له المغاليق، وحملته أجنحة نورانية إلى عوالم شفيفة لا قبل له، بها، وسمع وأبصر من وراء الغيب ما لم يخطر على قلب أو أذن أو عين، وعلى الجملة أصبح كل شيء (للحق)، وأصبح (الفاعل) الحقيقي (لفعل) هذا الإنسان الواصل المتصل هو (الحق)، هو السند وهو الوكيل، وهو القائم وهو المتصرف، لقد ذابت الإرادة الإنسانية في الإرادة الإلهية، ولم يعد هناك إلا واحد ... له الأمر في كل الأمر. وعندما يصل الذاكر إلى هذا الموقع « يجد له حلاوة في فيه وفي حلقه، ويجد منبع هذه الحلاوة في أصول أسنانه فيطبق فاه على هذا الشراب وهو حينئذ لا يخاف إلا من حائل يحلو بينه وبين هذا الشراب الذي يمتد إلى كل الجوارح » [2].

نماذج للذكر ومبناه:

يقول النوري متذكرًا وذاكرًا (قدرة القادر):

تأمل بعين الحق إن كنت ناظرًا
إلى (صفة) فيها بدائع فاطر

ولا تعط حظ النفس منها لما بها
وكن ناظرًا بالحق قدر قادر [3]

---

(2) ترتيب السلوك في طريق الله تعالى، تحقيق بسيوني ص 35.
(3) طبقات السلمي ص 155.

ويتحدث ذو النون المصير عن استحضارهم الدائم (لصفة الفعل) فيقول: « ما هممت بمعصية فذكرت (جلال) الله إلا استحييت منه » [4].

وقالوا: « الشكر هو الغيبة عن الشكر برؤية (المنعم) » [5].

ويقول القشيري عند قوله تعالى: « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون »: « إن كنت لا تصل إلى البر إلا بإنفاق محبوبك وهو المال فمتى تصل إلى (البار) وأنت تؤثر حظوظك؟ » [6].

وتتضح أهمية احتلال قضية (الذات وصفات الذات وصفات الفعل) في تفسيرهم الإشاري على نحو أخاذ في منهج القشيري في « لطائفه ».

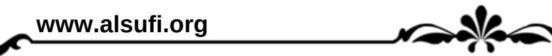
فيقول: « خوف (.) العوام بأفعاله فقال (واتقوا يومًا) و (اتقوا النار) موصولتين بوصفي العزيز ذي الانتقام، وخوف الخواص بصفاته: (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله) وقال: (وما تكون في شأن ... إلا كنا عليكم شهودًا)، وأما خاص الخاص فخوفهم بنفسه (ويحذركم الله نفسه) ».

ويكاد القشيري في أحد المواضع يضع صيغة لورد من أوراد الصوفية ينبني على ترديد (الاسم) الذي هو (الله) بصورة تهز مجامع القلب، وترتفع بالخواطر إلى آفاق بعيدة كل البعد، سامية كل السمو ... استمع إليه في كنف بمسلة (آل عمران):

و (الله) لفظ لو قرع أسماع أهل المعرفة لم تذهب (فهومهم (..)) ولا علومهم إلى معنى غير وجوده سبحانه وحقاه، وحق هذه القالة أن تكون مقرونة بشهود القلب، فإذا قال بلسانه (الله) أو سمع بآذانه شهد بقلبه

---

(4) التعرف للكلاباذي ص 82.
(5) التعرف للكلاباذي ص 119.
(6) اللطائف جـ 1 ص 270.
(.) بفتح الخاء وتشديد الواو وفتحها.
(..) بضم الفاء الميم.



(الله). وكما لا تدل هذه (الكلمة) على معنى سوى (الله) لا يكون مشهود قائلها إلا (الله) فيقول بلسانه: (الله) ويعلم بفؤاده (الله)، ويعرف بقلبه (الله)، ويحب بروحه (الله)، ويشهد بسره (الله)، ويتعلق بظاهره بين يدي (الله) ويتحقق بسره (الله) ويخلو بأحواله (الله) وفي الله، فلا يكون فيه نصيب لغير (الله)، وإذا أشرف على أن يصير محوًا في (الله) (لله) (بالله) تداركه الحق سبحانه برحمته فيكاشفه بقول (الرحمن الرحيم) استبقاء لمهجتهم أن تتلف، وإرادة (.) في قلوبهم أن تنقى، فالتلطف سنة منه سبحانه لئلا يفنى أولياؤه بالكلية » (7).

فإذا تم انشغال الذاكر باسم الله الأعظم دون سواه على هذا النحو أفاء الله عليه من أنواره وخيراته ففي حديث قدسي « من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين » (8).

ونتابع القشيري وهو يؤصل – تحت ظلال القرآن الكريم – هذه القاعدة الأساسية في (دستور الذكر) فنجده عند قوله تعالى:

« ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ».

يقول: « رزق الأشباح والظواهر من طيبات الغذاء، ورزق الأرواح والسرائر من صنوف الضياء، وحقيقة الشكر على هذه النعم تكون بالغيبة عنها بالاستغراق في شهود المنعم ».

وعند تفسير لفظة (السائحون) التي جاءت في سورة التوبة يقول: « السائحون الذين يسبحون في الأرض على جهة الاعتبار طلبًا للاستبصار،

---

(7) بسملة آل عمران، اللطائف جـ 1 ص 229، ومعنى (المحو) في الله حسب المنهج القشيري المحو في إرادة الله فقد جلت الصمدية عن أن ينمحي أحد فيها وسنعود لتوضيح هذا المعنى في مواضع كثيرة من شروحنا هنا.
(.) بفتحتين على التاء.
(8) التعرف ص 124.

ويسيحون بقلوبهم في مشارق الأرض ومغاربها بالتفكر في جوانبها ومناكبها، والاستدلال بتغيرها على منشئها، والتحقق بحكمة خالها بما يرون من الآيات فيها، ويسيحون بأسرارهم في الملكوت فيجدون روح (.) الوصال، ويعيشون بنسيم الأنس، والتحقق بشهود الحق » (9) وهو يرتب درجات أهل الذكر في الوصول إلى الله على هذا النحو:

« الترقي من شهود آياته إلى إثبات ذاته – سبحانه، فالتحقق بالآيات التي هي (أفعاله) ومراعاة ذلك وهي الأولى، ثم إثبات صفاته وهي الثانية، ثم التحقق بوجوده وذاته وذلك غاية الوصول » وهو يتناول المعنى نفسه من حيث (المدد) الإلهي المنثال على الذاكرين طبقًا لمراتبهم فيقول: « تعرف سبحانه إلى الخلق بآياته الظاهرة على قدرته وأفعاله، وتعرف إلى الخواص منهم بآياته الدالة على نصرته التي هي أفضاله وإقباله، وظهر لأسرار خواص الخواص بنعوته الذاتية التي هي جماله وجلاله ... فشتان بين قوم وقوم »، بل نراه وهو يستخرج لطائفه من معجزات الأنبياء عليهم السلام يطبق المنهج ذاته، فهو يتدرج من معجزة موسى — بحيث يجعلنا نلاحظ أن ما حدث لعصاه سبق ما حديث ليده وهي تخرج من جيبه بيضاء من غير سوء، « لأن العصا – وإن كانت معه من زمن – إلا أن يده أخص (..) به لأنها عضو له، فكاشفه أولًا برسم من رسمه، ثم أشهده من ذاته ما عرف أنه أولى به منه، فلما رأى انقلابًا وصف (...) في يده علم (....) أنه ليس بشيء من أمره بيده ».

وهنا نلحظ كيف تتصل المكاشفة أولًا بالصفات ثم بالذات، ونلحظ ثانيًا التأديب الإلهي لنبيه حتى لا يصيبه الغرور، وأنه ينبغي عليه أن يرد.

---

(9) اللطائف، المجلد الثاني ص 67.
(.) بسكون الواو.
(..) بتشديد الصاد وضمها.
(...) بتنوين الفاء وكسرها.
(....) بفتح العين وكسر اللام.

كل شيء سبحانه، ونلحظ أخيرًا التدرج من الفرق إلى الجمع – حسب المنهج الصوفي في الأحوال. دقة في الفهم والتدرج نلحظها على المستوى العام في كل مصنفات شيخنا – رضوان الله عليه.

فصل [3]:

تتمة في

الاسم والفعل والحرف

(والاسم في نحو القلب ما يكون مخبرًا عنه في مخاطبة الحق، والفعل ما كان خبرًا في مخاطبة العبد مع الحق.

والحروف رباطات تتم بها فوائد نطق القلب).

* * *

فصل [4]:

الكلام المفيد

(والكلام المفيد ما كان اسمًا واسمًا، أو فعلًا واسمًا وما عداه من الأقسام غير مفيد.

كذلك في نحو القلوب مفيد وغير مفيد، فغير المفيد ما ليس لله، والمفيد ما يسمع من الحق أو يخاطب (.) به الحق، وما سواه فلغو

ويقال [1]: إن المفيد إما دل على الذات، أو أشار إلى الصفات، أو كان عبارة عن المصنوعات ... هذا هو التقسيم الحاوي لجميع المعاني، لا يشذ عنه قسم من أقسام الخطاب الذي هو مفيد).

رأينا أن نضم الفصلين حتى يكتمل المراد، ويتضح ما قد يبدو في أولهما من غموض في ضوء ثانيهما.

ولنبدأ – كالعادة – برأي أصحاب نحو العبارة في معنى كل قسم من أقسام الكلام، ثم نشرح القصد عندهم من (الكلام المفيد) وبعدئذ نفرغ

(.) بفتح الطاء.
(1) هذه عادة القشيري عندما يسوق رأيًا جديدًا، وليس معناها بالضرورة إيراد رأي لآخرين.

لرأي شيخنا في مذهبه الإشاري المستنبط من ذلك، ولهذا فإننا لن ندخل في تفصيلات كثيرة بل سنكثف الاهتمام على ما هو مهم في استنباط الإشارة.

فالاسم ما دل على معنى في نفسه، غير مقترن بأحد الأزمنة الثلاثة، وهو ينقسم إلى اسم عين أي ذات: (الله) أو اسم معنى (القدرة) والاسم أصل لأنه يستغني بنفسه عن الفعل، والفعل فرع عن الاسم. والاسم أخف من الفعل، فهو أي الاسم يستتر في الفعل، والفعل لا يستتر في الاسم، ولهذا نجد صاحب الإنصاف يجعل المصدر أصلاً لأن المصدر اسم (مستغن بنفسه ولا يفتقر إلى غيره، وما هو كذلك يكون أصلاً لما لا يقوم بنفسه ويفتقر إلى غيره) [2].

أما الفعل (فهو ما دل على معنى في نفسه مقترن بأحد الأزمنة الثلاثة، وهو لا بد من الاسم وإلا لم يكن كلامًا) [3].

وأخيرًا ... فإن الحرف ما دل على معنى في غيره. فإذا اختص بالأسماء عمل فيها الجر، وسمت بحروف الجر لأنها تجر معاني الأفعال إلى الأسماء أي تضيفها وتوصل إليها. وذهب الكوفيون إلى تسميتها بحروف الإضافة، وهذا العمل يناظره في نحو القلب قول الشيخ (إن الحروف رباطات) وقد أوضحنا بعض هذا المراد فيما سبق وسنزيد الأمر إيضاحًا بعد قليل.

وننتقل إلى الإشارة:

فغير خاف مدى التوفيق الذي ناله القشيري وهو يصرف (الاسم) من البداية إلى (الله) سبحانه. فهو بهذا قد جعله أصلًا لا فرعا.

---

(2) الإنصاف 1 / 237.
(3) الكتاب لسيبويه 1 / 6.

وهو غير مشتق من شيء سبقه [4] لأنه لم يسبق بما يشتق منه، وهو قد جعله متحررًا من الزمانية بل فوق الزمانية، وبهذا ازداد اقتناعنا بتصوره لأسبقية (الاسم). ولم يكتف بذلك بل جعلنا نثير قضية استتار الاسم في الفعل ... وهذه في الحقيقة ذات دلالات عميقة، (فالله) خارج عن الكون بذاته لأن المطلق متسام عن التداخل في النسبي ولكنه داخل فيه بصفاته أي بتجلياته في الخلق والنعمة والرحمة والجمال والجلال والإحياء والإماتة - ... إلخ كما سبق أن شرحنا.

أما (الفعل) فهو تعبير عن الكون وما في الكون أي عن الخلوفات، وما يجري عليها من تصاريف إلهية مرتهنة بأزمان ومرتهنة بمقادير ومرتهنة قبل ذلك كله بعلم أزلي قديم يقدره (الاسم) بحكمته، فالملك ملكه، وله أن (يفعل) فيه ما يشاء (وقتما) يشاء، وهذا هو ارتباط (الفعل) بالزمانية، وإن شئت الدقة بالزمنية.

ومما سبق نفهم قول النحاة (الاسم يستتر في الفعل) فالحق خارج عن الكون بذاته متصل فيه بصفاته ... الخالقية والإبداع والرازقية والإحياء والإماتة والهداية ... إلخ.

أما الحروف فهي (رباطات تتم بها فوائد نطق القلب) فإذا قال الله سبحانه: مني ولي وبي ... تحققت الفائدة لأن الربط هنا على الأصل، لأن الإضافة منسوبة – حقًا وحقيقة – إلى من [.] يجب أن تضاف إليه [5].

أما إذا قال العبد: مني ولي وبي لم تتحقق الفائدة لأن الربط هنا على غير أصله، بل هنا بلغة الصوفية دعوى نفس، أي ادعاء نسبة. فلا فاعل

---

(4) انظر كتابنا (البسملة بين أهل العبارة وأله الإشارة). ط الدار القومية.
(.) بفتح الميم.
(5) انظر: نحو القلوب الصغير. للقشيري ص 87 و 138 تحقيق: أحمد علم الدين الجندي.

في الكون غير الله، وليس لأي غير أو سوى حق في الفاعلية والملكية ... إن في ذلك عدوانًا، فهو بهذا (لغو وليس فيه فائدة عن نحاة القلوب. ولو طلب إلينا أن نجمع كل هذه المعاني التي يريدها الشيخ من وراء الأقسام الثلاثة لقلنا في كلمة واحدة: التوحيد، وهو الهدف البعيد المرجو تحقيقه، وأما وسيلته فهي المناداة والمناجاة، ويكون الشيخ في فصول كتابه الأولى قد حدد (.) الإطار العام الذي يعمل فيه نحو الإشارة (توحيد المحبوب) ...

وينتقل الشيخ بعدئذ إلى الجملة فيقول: (والكلام المفيد ما كان اسمًا واسمًا أو فعلًا واسمًا، وما عداه من الأقسام غير مفيد).

أي هناك نوعان للجملة: جملة اسمية من مبتدأ وخبر.

وجملة فعلية من فعل وفاعل.

وتتحقق الفائدة من الإسناد الحاصل بين طرفي كل منهما. ويختلف النحاة فيما بينهم في أسبقية كل منهم عن الأخرى، وإذن القضية تطرح بشكل آخر أيهما أسبق الاسم أم الفعل، ويشتد الخلاف بينهم لشغل مساحات كبيرة من مصنفاتهم.

وفي رأينا هذا الخلاف يمكن أن ينفض لو أدخلنا في الاعتبار المتكلم ورغبته، فهو وحده الذي يعرف ما يريد إبرازه، فلو كان قاصدًا للثبات واللزوم استخدم الجملة الاسمية لخلو الاسم من الزمن، ولو كان قاصدًا إلى التحول والتغير استخدام الجملة الفعلية لتحمل الفعل للزمن ... ولسوف نعود إلى معالجة هذا الموضوع في فصول قادمة من الكتاب إن شاء الله.

وحينما تنقل القضية إلى نحو القلوب فإنها تتكيف بحسب المناخ الصوفي وتصبح (الفائدة) و (اللغو) و (مقتضى الحال أو المناسبة) ذات دلالات سلوكية ومعرفية لخصها الشيخ في:

(.) بفتح الأول وتشديد الثاني.

(نحو القلوب فيه مفيد وغير مفيد، فغير المفيد ما ليس لله) وبهذا التلخيص يكون الشيخ قد أرسى في حزم قاطع القواعد الأساسية للموضوع كله ... وبهذا فتح لنا الباب للشرح والدراسة:

يميز الصوفية بين شيئين: حقوق الله، وحظوظ العبد. فلو أراد العبد أن تتحقق له (الفائدة) في هذه الرحلة السنية، وأن يخطو أول خطوة في (القصد) إلى الله على نحو سديد فإن عليه أن يرفع هذا الشعار نصب عينيه من أول الطريق إلى منتهاه: مراعاة حقوق الله بأقصى ما في استطاعته، والتجافي عن حظوظ النفس والدنيا والهوى بأقصى ما في استطاعته. وأي تحيف (.) في هذا ينذر بخراب كل شيء، وكل غفلة عنه ينبغي تداركها على الفور، وإلا ولج الشيطان من أضيق المنافذ، وبدد كل محصول، ولم تعد هناك (فائدة) ترجى حتى على مرأى العين!

إن النفس – في اصطلاح القوم مركز المعلولات: كالحسد والكذب والرياء والخيانة والإعجاب والمساكنة والكبر ... ونحو ذلك. والقلب مركز المحمودات المنجيات من كل ذلك، والصراع من البداية قائم بين الطرفين قاصدًا إلى تنقية القلب – خلال المقامات – من كل الكدورات وتنحية قطاع الطريق وتجنب آفات العلائق ... وهكذا يستشرف القلب المنيب السليم من مرحلة (الروح) التي هي مركز المحبة، لأنها جبلت منذ يوم الميثاق على الاعتراف بربوبية الرب « ألست بربكم؟ قالوا: بلى » وعلى حبه، وعلى العودة إليه مبرأة من كل كدر. وهذه (الروح) بدورها تنقى خلال الأحوال: كالرجاء والخوف، والأنس والهيبة، والبسط والقبض، والفناء والبقاء ... إلخ لتستعد للاستشراف من منطقة أعظم ارتفاعًا في المعراج الروحي هي (السر) ثم (سر السر) حيث البصيرة الكاشفة، وحيث الأنوار المتتالية، وحيث المشاهد والعرفان ... وأخيرًا فوق قمة المم: التوحيد. وهكذا نعود

(.) بتشديد الياء وضمها.

إلى التوحيد مرة أخرى حتى يزداد القارئ تمكنًا من إدراك غاية الغايات عند أهل الصفاء.

هذه في اختصار علامات على الطريق نضعها في بداية شروحنا، ولنا إليها عودات كثيرات في ثنايا الكتاب حسبما تقتضيه الأحوال. وبهذا نستطيع الآن أن نميز بين (المفيد) و (غير المفيد) في نحو القوم. ولكي يكون موقفنا سليمًا نبدأ من البداية الصحيحة، فإذا استعرنا لغة أهل نحو الظاهر فإن (الابتداء) هنا هو (الله).

إنها بداية تختلف بالقطع عن سائر العلوم، فعلى حين تحتاج تلك العلوم إلى مهارات عقلية أو رياضية أو فنية أو لغوية ... إلى آخر ما نعرف من الاستعدادات الإنسانية المعينة على التخصص في لون من ألوان المعرفة – فإن البداية هنا هي بهذا (الاسم) الكريم ... ونحن نبني تصورنا للبداية على هذا النحو على أساس موضوعي علمي مستمد من طبيعة العلوم الصوفية في أصولها ووسائلها وغايتها.

فـ (الله) هو الذي يجتبي العبد المراد لكي يشق الطريق إليه، و (الله) هو الكفيل – حتى في المقامات التي هي جهود كسبية كالتوبة والصبر والتوكل – بتوفيق التائب إلى توبته والصابر على صبره والمتوكل في توكله. فالله في البداية هو الوسيلة ... وفي النهاية هو الغاية.

و (الله) هو صاحب الأمر في تقليب قلب العبد في (الأحوال): تلك الثنائيات التي لا تكاد تحصر، بل هي كما يرى أبو عبد الله الأنصاري الهروي بعدد أنفاس الخلق [.].

و (الله) هو الحفيظ لعبده حتى وهو في أعلى درجات الوصول، فهو الذي يرده مثلًا إلى حال (الفرق الثاني) وهو في قمة الجمع وجمع الجمع

(.) بفتح الأول وسكون الثاني.

كي يؤدي الفرائض التي تتطلبها الشريعة، لأن الحقيقة ما جاءت لتنال من الشريعة، بل هي مؤيدة لها، عاصمة لها، ناصرة لها. ذلكم هو (الكلام المفيد) في عرف أرباب القلوب.

ذلكم هو (خبر المبتدأ) الذي يحقق (الفائدة) عند أصحاب المواجيد. وهي عندهم ليست نزهة لينة بل هي معركة شاقة مضنية ربما استغرقت العمر كله ... ولكن أو ليست الآمال الكبيرة في حاجة إلى قلوب كبيرة وهمم كبيرة! وأي غاية أعظم وأروح من انتصار الإنسان على نفسه، ودنوه من الأنوار الكاشفة لبصيرته، وصعوده إلى زمان فوق الزمان، ومكان فوق المكان!

ولكن: أحقًا يستطيع القلب الإنساني خوض هذه المعركة، وتحقيق هذه (الفوائد) الجليلة؟

قلنا من قبل إن القلب مناط الأمل في الانتصار على النفس، ونضيف هنا شيئًا آخر ... إن القلب وريث (العقل) في المعرفة، ذلك لأن العقل بطبيعة اتصاله بالحواس والمادة وتحقيق المعرفة عن طريقهما سيجد نفسه في لحظة ما لا يستطيع الخوض في غيب بعد غيب، وهذه طبيعة تختلف عن طبيعته، فالحصان ليس مخلوقًا ليركض فوق ثبج الماء، والسفينة ليست مصنوعة لتمخر فوق اليابسة – كما يقول الصوفي الفارسي جلال الدين الرومي.

القلب مزود بطاقات الذوق والعاطفة والاستشفاف والتركيز في (الواحد)، وهذه أمور لا قبل للعقل بها، ونكتفي هنا بذلك، ونورد بعض أقوال الشيخ فيما نحن بصدده.

فابن القيم يعبر عن استطاعة لقلب إغاثة العبد بأخذ ما هو (مفيد) وطرح ما هو (غير مفيد) فيقول:

« في القلب قوتان: قوة العلم والتمييز، وقوة الإرادة والحب، ولهذا كان (الكمال) والصلاح باستعمال هاتين القوتين فيما (ينفعه) ويعود بصلاحه وسعادته، فكما له باستعمال قوة العلم في إدراك الحق ومعرفته والتمييز بينه وبين الباطل، واستعمال قوة الإرادة والمحبة في طلب الحق ومحبته وإيثاره على الباطل » [6].

ويبدأ القلب رحلته بالتيقظ، والاعتزام على نبذ الماضي والفرار من دواعي الدنيا والشيطان – كما أوضحنا. « فإذا صح صدق فراره منهما – كالصبي الذي يفزع مما يفزع منه الصبيان، فلا يهتدي إلى غير أمه، فإذا أتى إليها آوته إلى نفسها، وضمته إلى نحرها وألصقت خده بخدها – كذلك العبد إذا صدق في ابتهاله إلى الله ورجوعه إليه عن مخلفته آواه إلى كنف قربته، وتداركه بحسن لطفه » [7].

ويعبر سمنون المحب – وهو من أجلة شيوخ الصوفية عن هذه اللحظات ... لحظات بداية التعلق بمحبوبه الأسنى فيقول:

وكـــن فـــؤادي خاليًـــا قبـــل حـــبكم
وكـــان بـــذكر الخلـــق [.] يلهـــو ويمـــرح

فلمـــا دعـــا قلبـــي هـــواك أجابـــه
فلســـت آراه عـــن فنائـــك يبـــرح

وإن كـــان شـــيء فـــي الـــبلاد بأســـرها
إذا غبـــت عـــن عينـــي بعينـــي يملـــح

فـــإن شـــئت واصـــلني وإن شـــئت لا تصـــل
فلســـت أرى قلبـــي لغيـــرك يصـــلح [8]

---

(6) إغاثة اللهفان لابن القيم ص 13.
(7) اللطائف ص 310.
(8) تاريخ بغداد، المجلد التاسع ص 237.
(.) بسكون اللام.

بقي أن نوضح الرأي فيما هو (غير مفيد): السهو والحشو واللغو والبعد والكفر: وقد وردت كلها بمعانيها عند شيخنا في تفسيره لقوله تعالى: « والذين هم عن اللغو معرضين ».

فيقول: « ما يشغل عن الله تعالى فهو سهو، وما ليس لله فهو حشو، وما ليس بمسموع من الله. أو بمعقول مع الله فهو لغو، وما هو غير الحق سبحانه فهو كفر، وما ليس بتقريظ الله ومدحه من كلام خلقه والتعريج على شيء مما سبق ذكره فهو بعد (..) وهجر » (9).

الخلاصة عن تمام (الفائدة) وحصول (المفيد):

كما أنه في نحو الظاهر تتم (الفائدة) بإسناد الخبر إلى المبتدأ أو (بإسناد) الفعل إلى فاعل يتقدمه ... هنا أيضًا تتبنى الطريقة على أسس مفيدة، وتضر (.) بها ويصاحبها أشياء غير مفيدة، وكلها تدور حول (الذكر) الذي هو عماد هذا الطريق من بديته وفي وسطه وعند غايته. (فالمناداة والمناجاة) تأتلف من أذكار وأدعية، ومقامات وأحوال موضوعها جميعًا (الاسم) الأعلى وصفات (الذات) وصفات (الفعل) ولا ينبغي أن تخرج عن هذا بحال من الأحوال فالإسناد كله لله.

(الله) سبحانه هو المبتدأ وهو الخبر وهو الفاعل. وتجلياته في الكون هي (أفعاله) وأفضاله، والعلاقة به يجب أن ترتبط على أساس أنه (الحق الواحد المحبوب). ولنضرب من أقوال الشيخ ونظرائه أمثلة للتطبيق ننهي بها هذا الفصل.

(..) بضم الباء وسكون العين.
(9) اللطائف، المجلد الثاني ص 567.
(.) بفتح التاء وضم الضاد.



الخطاب والجواب « إذا (خاطب) العبد الحق سبحانه بلسان (نجواه) إما سائلًا أو داعيًا أو مثنيًا أو شاكرًا أو متنصلًا (..) أو مبتهلًا قام في محل (التفرقة). وإذا أصغى بسره إلى ما (يناجيه) به مولاه، واستمع بقلبه ما يخاطبه به فيما ناداه أو ناجاه أو عرفه (...) معناه، أو لوح لقلبه وأراه، فهو يشاهد الجميع » [10].

وعند هذه اللحظات النادرة يكون الحال « اقتراب (حال الهيبة وعنده يلزم العبد السكون التام ولا يأتي منه شيء كي تتحقق الفوائد » [11].

وليس هناك أوضح من وصف المناجاة وما تحتويه من خطاب وجواب من ذلك.

ولكنها حال نفيسة لا تتاح إلا (لمن يخرجون من ضيق رسوم الزمانية إلى سعة فناء السرمدية) [12].

وهي في الواقع إشارة: (وعلامة صدق الواصل أن يسمع من الحق بسره ثم ينطق – أي العبد – بلفظة [13] وآية هذا الصدق في التوجه أن يحفظ الله (لسانه) عن كل ما ينال منه، وهل تعرف لغة الأحباب غير ذلك؟

أما القشيري ذلك المفسر الإشاري فيجد في قصة يوسف ما يماثل هذا الموقف فعند قوله تعالى: « ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب » وأثر هذا التمدح نودي في سره: « ولا حين هممت! » (فأجاب) على الفور: « وما أبرئ نفسي » [14] وهذا نمط في الهمس لا يعرفه إلا المحبون.

(..) بضم الميم.
(...) بتشديد الراء.
(10) الرسالة حال الجمع.
(11) ترتيب السلوك في طريق الله تعالى ص 61.
(12) اللمع للسراج ص 49.
(13) اللطائف جـ 2، ص 382.
(14) اللطائف جـ 2، ص 190.

فصل [5]:

الإعراب والبناء

يقول الشيخ على نحو الظاهر:

(الكلام ينقسم إلى معرب ومبني، والإعراب تغير آخر الكلمة لاختلاف العامل إما بحركة أو سكون أو حذف.

والبناء أن يلزم آخر اللفظة إما حركة أو سكون).

ويستكمل الشيخ حديثه عن نحو الظاهر في بداية الفصل السادس فيقول:

(وجوه الإعراب أربعة: الرفع والنصب والخفض والجزم).

في الإعراب والبناء

عند نحاة الظاهر

تمهيد:

تقتضي سلامة المنهج أن نفصل الكلام في الإعراب والبناء في نحو العبارة على حدة إذا فرغنا من ذلك دخلنا إلى نحو الإشارة. وقد اتبعنا هذا المنهج حتى يصبح هذا الملمح بمثابة مرجع لكل بقية فصول الكتاب فنتحاشى بقدر الإمكان الوقوع في التكرار، لأن هذه الفصول تعتمد في الأساس على البناء والإعراب.

والواقع أننا نستمده من دراسة أعدت في عام 1971 م لتكون بين أيدي طلاب بكالوريوس اللغة العربية. لم نكن نتصور أن نجدها أن نجدها تطل برأسها مرة أخرى في كتاب عن التصوف، وهذا إن دل على شيء فإنما يثبت هذه النظرية التي ننادي بها دائمًا في الجامعة وفي المؤتمرات وفي الصحف وأدوات الإعلام أن التصوف في صميمه لغة وأدب وفن ... هكذا يجب أن يؤخذ، وهكذا عليه أن تترعرع الدراسات اللغوية والأدبية والنقدية في كنف التصوف والمتصوفة.

ونعاهد القارئ أن نبسط له الموضوع تبسيطًا يجمع بين الوفاء العلمي بأطراف الموضوع المهمة وبين التيسير المتجنب للتعقيدات والتفريعات ... وبكلمة أخرى الحصول على قدر ثقافي ضروري لا غنى عنه للقارئ الذي يحتاج إلى ذلك.

* * *

(الإعراب) في اللغة الإظهار والإبانة، وفي اصطلاح النحاة هو هذا التغير الحادث في أواخر الكلمة تبعًا لاختلاف العوامل الداخلية عليها لفظًا أو تقديرًا. وبهذا يكون الإعراب إعرابًا أي تبيينًا للمعاني المختلفة

التي يقصدها المتكلم، وهذا مأخوذ من قولهم: أعرب الرجل عن مراده أي أوضحه وبينه. ومن قوله > : **« الثيب تعرب عن نفسها »**. أي تبين وتوضح.

وارتباط التغير بالإعراب يجيئ من قولهم: عربت معدة الناقة أي تغيرت (.).

أما البناء لغة فهو وضع الشيء على جهة يراد بها الثبات واللزوم. واصطلاحًا: لزوم آخر الكلمة حالة واحدة لغير عامل ولا اعتلال.

وللإعراب والبناء علامات أو ألقاب، وقد آثر الشيخ أن يسميها (وجوهًا).

فالمعرب من أقسام الكلام هو الاسم، ومن الأفعال الفعل المضارع. والمبني هو قلة من الأسماء، والفعلان الماضي والأمر. وكذلك الحروف. والحق أن (الإعراب ضرورة تقتضيها أغراض المتكلمين والتمييز بين المعاني. فلو قال قائل: ما أحسن زيدًا غير معرب أو ضرب عمر زيد غير معرب، فإننا لا نستطيع أن نقف على مراده.

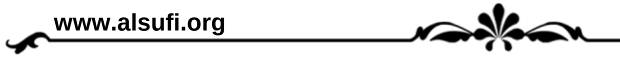
أما إذا قال ما أحسن زيد (..)، أو ما أحسن زيد (...)، أو ما أحسن زيدًا أبان الإعراب عن المعنى الذي يريده.

والمعرب في ذلك ما ليس لغيرها، فهم يفرقون بالحركات وغيرها عن المعاني) [1].

و (هذا الإعراب يفيد في الأدلة على المعاني ويجعلهم يتسعون في كلامهم، ويتصرفون بالتقديم أو بالتأخير عن احتياجاتهم [2].

---

(1) الصاحبي لابن فارس (ط المؤيد سنة 1328 هـ) ص 161.
(.) بتشديد الياء وبالفتح.
(..) بتنوين الدال مع الضم.
(...) بتنوين الدال والكسر.
(2) الإيضاح في علل النحو الزجاجي ص 69 وما بعدها.



1 – وعلامات الرفع أربع: الضمة (وهي الأصل) والواو والألف والنون.

2 – وعلامات النصب خمسة هي: الفتحة (وهي الأصل) والألف والياء والكسرة وحذف النون.

3 – وعلامات الجر ثلاث هي: الكسرة (وهي الأصل) والياء والفتحة.

4 – وعلامات الجزم ثلاث هي: السكون (وهو الأصل) وحذف الآخر وحذف النون.

5 – والفعل المعرب يتغير آخره بالرفع والنصب، والجزم بالسكون أو بحذف حرف العلة أو بحذف النون في الأفعال الخمسة جزمًا ونصبًا.

والاسم المعرب يتغير آخره بالرفع والنصب والجر.

وتنقسم هذه الوجوه إلى ثلاثة أقسام:

1 – قسم تشترك فيه الأسماء والأفعال: وهو الرفع والنصب.

2 – وقسم تختص به الأسماء وهو الجر.

3 – وقسم تختص به الأفعال وهو الجزم.

وقد استعمل شيخنا مصطلح « الخفض » - وهو مصطلح كوفي – بدل الجر عند البصريين وهو حين لجأ إلى هذا المصطلح لم يفعل ذلك مجاراة للكوفيين، وإنما قصد – كما نظن – ليقابل به المخفوض قدرًا في نحو الإشارة – على نحو ما سنرى في موضعه.

يقول الشيخ في المتن: (والمبنى أن يلزم آخر اللفظة إما حركة أو سكون) فآخر المبنى على حالة واحدة لا تتغير مهما غيرت العوامل المتقدمة عليه.

وعلامات البناء الأصلية هي الكسر (هؤلاء) والضم (حيث وكتبوا) والفتح (كتب وأين) والسكون (أكتب ولم).

وهناك علامات فرعية تنوب عن الأصلية.

وهناك ملحوظة لها أهميتها في الإشارة بعد قليل: أن المعرب والمبني يشتركان في ظاهرة واحدة أنهما يتعلقان بآخر اللفظة لا بصدرها أو أحشائها.

الحركات بين دلالات الصوت والمعنى:

كرس الشيخ رحمه الله نصيبًا كبيرًا من عنايته عند وضع هذا الكتاب على الربط بين صوتيات الحركات والوظائف المعنوية التي تؤديها في نحو الظاهر، ثم الانطلاق بعدئذ إلى التنظير بينها وبما يقابلها في نحو الباطن.

ويمكن استخدام هذه المحاولة في تفسير ظواهر لغوية ونحوية كانت العادة تجري على قبولها بلا إمعان في مناقشتها، وإنما يغلب أن يعاد بها إلى السماع عن العرب، ولكن البحوث الحديثة تحاول إخضاعها للتفسير على طريقتها الخاصة ... وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الشيخ حين التفت في كتابه هذا إلى هذا الجانب فإنما يعد رائدًا في خوض مجال غير مطروق اللهم إلا على استحياء، وليس هذا بمستغرب على متذوق إشاري، له تفسير ضخم يعتمد فيما يعتمد عند استنباط الإشارة على ما بين الجرس والمعنى ... وقد أبدينا إعجابنا به في مواضع جمة من « لطائفه » ومن كتابه (نحو (.) القلوب الصغير)، ونبهنا إلى ضرورة الالتفات إلى ذلك عند معالجة النص الأدبي وتحسس المواضع الفنية فيه.

وننبه إلى بعض الالتفاتات الصوتية المهمة ذات الأثر البعيد: -

1 – الضم والكسر ثقيلان، والضم أثقل لأنه في حاجة إلى جهد عضلي

(.) حققه وعلق عليه ونشره: د. أحمد علم الدين الجندي. ط تونس 1397 هـ - 1977 م.

أكثر من الكسر إذ يتم بتحريك أقصى اللسان بينما يتم الكسر بتحريك أدنى اللسان – وهو أيسر.

2 – السكون – وهو الأصل – ويسمى وقفًا فيه خفة لأنه يدل على توقف الحركة بين الاتجاه إلى أعلى والاتجاه إلى أسفل فكأنه اللا حركة.

أو أن السكون يدل على القطع أي قطع الصوت، ويتجلى هذا القطع بوضوح عند حذف حرف العلة وقطع الاستمرار الصوتي: لم يدع لم يسع، لم يجر.

3 – والألف التي هي الاستمرار الصوتي الممتد للفتحة – أخف الحروف.

ويستنتج سيبويه أن (الفتحة والألف كانتا أخف عليهم، ألا تراهم يفرون إلى الألف من الياء والواو إذا كانت العين قبل واحدة منهما مفتوحة، وفروا إليها في قولهم قد رضي (.) ونهى) (3).

ولخفة الفتحة أعطيت لما هو كثير في الاسم، وأعطيت الضمة لما هو قليل. فالفعل لا يحتاج إلى أكثر من فعل واحد بينما يتطلب مفعولًا وأحيانًا اثنين أو ثلاثة.

ويمكن أن يقال إن الرفع أعطى لما هو عمدة في الكلام، والعمد ما كان أحد ركني الإسناد كالمبتدأ وخبره والفاعل ونائبه. وعلى هذا يمكن القول إن الضمة علم الإسناد، ويؤسس بعض النجاة على ذلك أن الرفع أول الإعراب (4).

---

(3) الكتاب لسيبويه 2 / 290.
(.) بضم الأول وفتح الثاني.
(4) الإيضاح 124.

أما الجر فهو لا يخرج عن نطاق الإضافة، ولهذا يمكن أن يكون علمًا لها. أما النصب فعلامة على كون الكلمة فضلة، والفضلة ما ليس أحد ركني الإسناد كالمفاعيل والحال والتمييز والمستثنى، ولهذا فالفتحة علم ما ليس بإسناد ولا إضافة.

وإلى شيء من ذلك يذهب إبراهيم مصطفى [5] في استقراءاته مذهبًا بعيدًا حيث يقصر الحركة على اثنتين فقط هي الضمة بوصفها علم الإسناد والكسرة بوصفها علم الإضافة، أما الفتحة فيجعلها علامة استراحة واسترخاء، ففي رأيه أن العرب كانوا يستريحون بها كما نفعل نحن في لهجتنا المصرية حين نستريح بالسكون: رحت له [..]، وجيت من الجامعة [...].

ولو تابعنا القشيري في مصنفاته لأدهشنا أن نجده يوظف التقلب بين الحركات للحرف الواحد في الكلمة نحو آفاق عجيبة. انظر مثلًا:

(العزيز من صفاته سبحانه وهو إما من عز [.] يعز أو من يعز أو يعز أي بكسر العين أو فتحها أو ضمها ... ويترتب على فهم كل واحدة آداب وسلوك فإن قلنا إنه من يعز بكسر فالمعنى ...) [6].

---

(5) إحياء النحو لإبراهيم مصطفى.
(6) التحبير في التذكير للقشيري تحقيق د. بسيوني. طبعة عالم الفكر.
(.) بتشديد الزاي.
(..) بسكون الهاء.
(...) بسكون الهاء.

كيف تمت معرفة المعربات ومعرفة المبنيات؟

هذا سؤال يفرض نفسه، وله أهمية خاصة في نحو القلوب أيضًا الشيء البدهي أن العرب اضطرت إلى الإعراب لأن ذلك ضرورة فرضها العجز عن الوقوف بالساكن على أواخر الكلمات، ولهذا استعانت بالصوت لتميز معاني الكلمات وأدوارها في سياق التحدث والخطاب، ثم تطور الأمر ونضج، وأخذت المسألة شكلها الأخير عبر عصور طويلة. أما بالنسبة لنا فقد أصبح (السماع) عن العرب هو الفيصل في التمييز بين المعربات والمبنيات، وليس لنا الحق في تبديل أي قرار في هذا السماع – وهذه نقطة لها أهميتها في الإشارة كما سيتضح.

ولكن هذا لم يمنع الباحثين نتيجة الاستقراء من التماس تفاسير لهذه الظواهر.

فالاسم معظمه معرب، وذلك لكثرة دورانه في الاستعمال في مواقع مختلفة من الجملة، وفي معان متنوعة ليست في قدرة الفعل، وعلى هذا يمكن أن يقال دون حرج أن الاسم معرب على الأصل ومن هنا لسنا بحاجة إلى أن نتساءل عن علة إعرابه.

أما الفعل فهو – من هذه الناحية – أولى بالبناء، ولهذا بني الماضي والأمر، وفيما يتصل بالمضارع فهو كما يتضح من اسمه يضارع الاسم، إذ يتنقل في حرية لا حدود لها عبر الزمن بماضيه وحاضره ومستقبله، فلم يكن هناك مفر من إعرابه لتوضيح أبعاد هذه الحركة الطليقة. وأما الحرف فهو مبني دائمًا، وهذا بدهي لأن الحرف لا يعتوره من المعاني ما يحتاج معه إلى إعراب، بل إن مشابهة الاسم للحرف كافية في رأي ابن مالك لبنائه:

والاسم منه معرب ومبني * لشبه من الحروف مدني

كالشبه الوضعي في اسمي (جئتنا) * والمعنوي في متى وفي هنا

فإذا عدنا إلى الموضوع فالنظر إليه بمنظار جديد: وهو مدى نصيب كل من الاسم والفعل من الثقل والخفة – وهي رؤية لا تخلو من أهمية في استنباط الإشارة – لرأينا الزجاجي يعلل لثقل الفعل ولخفة الاسم على النحو التالي:

« إذا ذكر الاسم دل على مسمى تحته نحو: رجل وفرس ... ولا يطول فكر السامع فيه، أما الفعل فإذا ذكر لم يكن بد من الفكر في فاعله لأنه لا ينفك منه، ويستحيل وجوده من غير فاعل. وقال آخرون: إنما خف الاسم لأنه لا يدل إلا على مسمى تحته، وثقل الفعل لدلالته على الفاعل والمفعول والمفعولين والثلاثة والمصدر والظرفين من الزمان والمكان.

وقال الكسائي والفراء: الاسم أخف من الفعل لأن الاسم يستتر في الفعل والفعل لا يستتر في الاسم [7].

وقال أكثر الكوفيين: « لم تخفض الأفعال لثقلها، ولم تجزم الأسماء لخفتها ليعتدل الكلام » [8].

معنى هذا في تصورنا: أننا بإزاء مجتمع حي (.) يتألف من الأسماء والأفعال والحروف، وأن لكل منها دورًا يؤديه من نطاق هذا المجتمع، وهنا يكتسب أهميته من كثرة دورانه في الاستعمال أو توسطه أو ندرته، فتعلو قيمته كلما مست (..) الحاجة إليه، وكلما تبوأ في الجملة العربية لا مكانًا فقط بل مكانه أيضًا، وكما تخيل أفلاطون مدينته من طبقات: أعلاها في القمة المفكرون (وهم من عنصر الذهب) والجيش وهم (من الحديد)

---

(7) الإيضاح للزجاج ص 100 – 101.
(8) المرجع السابق ص 106.
(.) بتشديد الياء والتنوين.
(..) بتشديد السين.



وهكذا إلى أن نصل إلى الرقيق وهم (من المعادن الخسيسة) لأنهم خدام المجتمع يمكن أن نتخيل في ضوء هذا الفهم الأفلاطوني مجتمع الألفاظ العربية، فمن الأسماء ما هو عمدة كما ذكرنا، وذلك حين يكون عضوًا في التركيب الإسنادي فهذا حقه (الرفع) ومنها ما لا يقوم بذاته بل يسبقه الحرف وهذا نصيبه (الخفض) أما الفضلة الذي يمكن الاستغناء عنه دون حدوث ارتباك ملحوظ فهذا حقه (النصب).

وسنرى بعد قليل ... كيف استخدم الشيخ رضوان الله عليه هذه النظرة في مواقف السلوك والعرفان حسب الطريق الصوفي، ثم توظيف ذلك في مدارج السالكين الذاكرين إلى أن يصل إلى مراتب الموحدين المحبين.

بقيت في خاتمة هذا الملمح عن الإعراب والبناء حاشية موجزة لا تخلو أيضًا من ملحظ في الإشارة عند الشيخ:

وهي أن الإعراب على ثلاثة أقسام:

1 – لفظي وهو أثر ظاهر – وهذا هو الأصل.

2 – تقديري وهو أثر غير ظاهر، وتكون الحركة مقدرة لأنها غير ملحوظة ويكون في الاسم المقصور مثل (ليلى) وفي المنقوص مثل (القاضي)، وفي المضاف لياء المتكلم، وفي المضارع المعتل الآخر.

3 – محلي وذلك حين يقع أحد المبنيات موقع المرفوع أو المنصوب أو المجرور أو المجزوم فيكون رفعه أو نصبه أو جره اعتباريًا، ويسمى الإعراب المحلي مثل: فاز من (...) توكل على الله: من: فاعل مبني على السكون في محل رفع.

والآن ...

(..) انظر: نحو القلوب الصغير للقشيري، تحقيق. أحمد علم الدين الجندي ص 79 فما بعدها، ص 127 – 130. الدار العربية للكتاب.

(...) بفتح الميم.

نعود إلى الفصلين الخامس والسادس ... لنتحدث هذه المرة عن الإشارة: يقول الشيخ في الفصل الخامس:

(ونطق القلب إما بلفظ يراعى فيه توقيف الحق، أو قالة أذن فيها الحق تصريف الخلق، فالأول ما تسمع بقلبك فتقف عند ذلك بلا تكلف منك، والثاني ما تناجي به مولاك على مقتضى ما تجد فيه من إشارة البسط، فأحدهما حال جمع والثاني حال فرق).

نطق القلب في نحو الإشارة يناظر (الكلام المفيد) في نحو العبارة. وكما أن هناك عند العباريين متكلمًا وكلامًا فعند الإشاريين السالك والطريق ... فلنتناول الثلاثة بالإيضاح والدراسة:

أولًا – الصوفي السالك:

وضح مما سبق أن استقراء كلمات العربية يشير إلى أن هذه الكلمات لا تخضع جميعها بدرجة متساوية لنظام إعرابي واحد، بل منها ما يخضع ويسمى معربًا، ومنها ما لا يخضع ويسمى مبنيًا.

ثم إن المعربات تلتقي في داخل النظام الإعرابي على هيئة فصائل لها إعرابها الخاص، وهكذا أيضًا يلتقي المريدون حول الشيوخ حسب مناهج وطرق.

وكما أن النحاة يرون أنفسهم في مواطن كثيرة وقد توقفوا أمام، آحاد من الألفاظ يلزم لدراستها وضع نظام مستقل بكل منها بينما ينحاز عن بقية الأتراب (مثلًا: باب المنصوبات فصل ظرف الزمان وظرف المكان) كذلك أن السالكين لطريق التصوف ... فهم جميعًا سائرون على درب الرحلة إلى الحق، ولكنهم ليسوا في لحظة واحدة على درجة متساوية في الاستعداد الفطري ولا في التخليق ولا في التذوق ولا في التحقق، ولا في مدى تذويب الإرادة الإنسانية في الإرادة العليا، ولا مدى الصبر والمثابرة

على البلاء والفقد، ولا في الجنوح إلى التخفي أو الظهور ولا في الاستمساك بالطاعة أو التواضع، ولا في التوبة أو الزهد ... والخلاصة أنهم – كأية مجموعة بشرية تمارس نشاطًا ما – مختلفون فيما بينهم. ومع ذلك فهم يلتقون مثنى وثلاث ورباع وخماس – كما تلتقي فصول المعربات أو المبنيات في نحو الظاهر في تجمعات تكثر أو تقل.

ولهذا يجب على الشيوخ بادئ ذي بدء أن يتفهموا هذه الفروق الفردية حينما يكلفون الجماعة بواجب أو حفظ ورد (.) ونحو ذلك، كما ينبغي مراعاة العدل في الإثابة والعقوبة، فمنهم من يصلحه الإشفاق ومنهم من لا يصلحه إلا التعنيف، ومنهم من يأتي منه شيء إذا قرب (..) بعبارة مشجعة ... وأخيرًا منهم من يلزم إبعاده (وحذفه) على الفور. وبكلمات أخرى منهم (المرفوع) و (المنصوب) و (المخفوض) ... لأنه إذا صح ذلك في (الألفاظ) فهو في مجتمع (الإنسان) أولى.

ثانيًا. الطريق الصوفي ذاته:

إذا كان (الكلام المفيد) في نحو العبارة لا تتحقق منه نتائج إلا إذا استوقف (أواخر) ألفاظه النهايات الصحيحة والسليمة فكذلك الطريق الصوفي، فإن المريد لن تتحقق له (فائدة) إلا إذا سلك سبيله مرحلة بعد مرحلة خلال المقامات والأحوال، ولا يتسنى له الانتقال نقلة جديدة إلا إذا استوفى شرائط ما هو عليه في (الآن) أو على حد تعبيرهم في (الوقت) فالصوفي ابن وقته، معنى هذا أنه كما لا تتحقق فائدة من الكلام إلا إذا كان كله صحيحًا، وأن الفائدة المحققة مرجأة إلى الوصول إلى (تمام) الكلام. كذلك فإن العبرة في الطريق (بالخواتيم) ؛ لأن أي خلل في جزئية

(.) بكسر الأول وسكون الثاني.
(..) بضم الأول وتشديد وكسر الثاني.

ولو هينة قد ينسف الجهد كله، ويفسد مجمل النظام، مثال ذلك ما يراه القشيري في لجوء المريد إلى الرخصة، لأن الرخصة للكافة والمستضعفين، أما القوم فليس لهم شغل إلا مولاهم.

- فمن استرخص فقد فسخ عقده مع الله – على حد تعبيره في « الرسالة ».

ثالثًا. نطق القلب:

عندما يصل العبد الواجد إلى مرتبة (الوجود) التي هي حسب مصطلحه أعلى قدرًا من حالتي التواجد ثم الوجد تكون الإرادة الإنسانية قد ذابت بالكلية في الإرادة الإلهية، وهنا تتالى الأنوار من طوالع إلى لوامع إلى متوع النهار وتشرق شمس الشموس، وهذه حالة لها من الانبهار ما قد يوقع في أخطار، لأن (القلب إذا نطق) عندئذ بما يسمع وبما يشاهد فقد يتجاوز (اللسان) حدود نطق القلب). ولكن رحمة الله بعبده تحفظه من الوقوع في الاستشكال، ومن كان صادقًا في توجهها حفظه الله بمقدار صدقه عن الوقوع في المظنة، وهذا هو ما عناه الشيخ في المتن بقوله « بلفظ يراعى فيه توقيف الحق » وبقوله: « فتقف عند ذلك بلا تكلف منك ». وهذه الحالة تعرف عند أرباب الطريق بحال الجمع ويناظر القشيري بينها وبين (المبني) وبين (المبني) في نحو الظاهر.

ولكن العبد قد يرد (.) من الجمع إلى (الفرق) فيسمح له بأن يعبر عن الوجد الذي يغمره بكلمات تجري على لسانه قصدًا للمناجاة والدعاء والابتهال والتنصل والاستغفار، ويكون في هذه الحالة أشبه (بالمعرب).

(.) بضم الأول وفتح الثاني.



فما هو بتوقيف الحق يشبه (المبني) وما هو مأذون به من لدن الحق يشبه (المعرب). وكما تختلف المبنيات والمعربات بحسب أواخرها نتيجة مواقعها في التركيب اللفظي تختلف أحوال الواجدين بحسب أنصبتهم وبحسب جهودهم وصدقهم، وبالتالي تختلف (خواتيم الرحلة بين عبد وعبد وسيقوم القشيري بشرح ذلك كله من الفصول التالية).

ونكتفي هنا بالوقوف مع القارئ عند حدود المناجاة المسموح بها، وبضرب أمثلة مفيدة ومقتضبة لها، وسبيلنا إلى ذلك تعقب الموضوع خلال مصنفاته، يقول في لطفائه (ومن آداب المناجاة أن تعلم وأنت بين يدي مولاك من أنت؟ ومن تناجي؟ ومن الرقيب عليك؟ ومن القريب منك؟ [9].

ثم استمع إليه وهو يقول في كنف:

« ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ».

« أي بما شاء من معلوماته، والمعنى تقاصرت العلوم عن الإحاطة بمعلوماته إلا بإذنه، فأي طمع في الإحاطة بذاته وحقه سبحانه؟ وأنى تجوز الإحاطة عليه وهو لا يقطعه في عزه أحد، ولا يدركه أحد » [10].

وهذا كلام مهم جدًا وواضح جدًا، لأنه يخرس كل المزاعم ويحذف كل التجاوزات، ويغلق الباب على من يتطاول في حق الصمدانية تحت أي ادعاء، وهو أخيرًا يدافع عن الصوفية أمام أعدائهم، لأنه يرسم الحدود لمنتهى طموحاتهم.

وقد حفظت لنا المصادر أمثلة كثيرة من المناجاة، ولكنا نكتفي هنا بمثلين فقط:

---

(9) اللطائف المجلد الثاني ص 550.
(10) اللطائف الجزء الأول ص 209.

الأولى: في حلية الأولياء [11] تستغرق نحو خمس صفحات، وهي لعون ابن عبد الله بن عتبة (تابعي)، ونكتفي هنا ببعض سطورها:

- ويحي [.] إن حجبت [..] يوم القيامة عن ربي فلم يزكني ولم ينظر إليّ [...] ولم يكلمني، فأعوذ بنور ربي من خطيئتي.

- يا نفس لم تكرهين الموت؟ لم لا تذعنين وتحبين الحياة؟ لم لا تصنعين؟ تقولين في الدنيا قول الزاهدين وتعملين فيها عمل الراغبين!

- ويحي ... كيف أغفل ولا يغفل عني ؟! ويحي ... وهل أضرت غفلتي أحدًا سواي، ويحي، كأنه قد تصرم [....] أجلي ثم أعاد ربي خلقي [.....] كما بدأني.

- بأي وجه ألقاك؟ وبأي قدم أقف بين يديك؟ وبأي لسان أناطقك؟ وبأي عين أنظر إليك؟ فامنن علي [......] بطاعتك وبترك معاصيك ... أبدًا ما أبقيتني ... سبحانك فاقبل توبتي واستجب ودعوتي ...

- رب لا تسلطها علي ... رب إن نفسي لم ترحمني فارحمني رب إني أعذرها ولا تعذرني ... إنه إن يك خيرًا أخذلها ولا تخذلني، وإن يك شرًا أحبها وتحبني، رب ... فعافني منها وعافها مني حتى لا أظلمها ولا تظلمني، وأصلحني لها وأصلحها لي فلا أهلكها ولا تهلكني، ولا تكلني إليها ولا تكلها إليّ ...

وإذا صح أن تكون هذه المناجاة لأرباب المقامات، فلنستمع إلى مناجاة أليق بأرباب الأحوال، وهي لشهيدة الحب الإلهي رابعة العدوية:

---

(11) حلية الأولياء – لأبي نعيم الأصفهاني جـ 4 ص 255 – 280.
(.) بسكون الياء.
(..) بضم الأول والتاء.
(...) بتشديد الباء.
(....) بتشديد الراء وفتحها.
(.....) بتسكين اللام.
(......) بتشديد الياء.

إلهي ... أغرقني في حبك حتى لا يشغلني شيء عنك.

إلهي ... أنارت النجوم ونامت العيون وغلقت الملوك أبوابها، وخلا كل حبيب بحبيبه ... وهذا مقامي بين يديك.

إلهي ... هذا الليل قد أدبر، وهذا النهار قد أسفر ... فليت شعري أقبلت (.) مني ليلتي فأهنأ؟ أم رددتها علي فأعزي (..) ... فوعزتك هذا دأبي ما أحييتني وأعنتني، وعزتك لو طردتني عن بابك ما برحت عنه لما وقع في قلبي من محبتك.

إلهي ... اجعل الجنة لأحبائك والنار لأعدائك أما أنا فحسبي أنت!

والآن. وبعد التنظير بين المبنيات والمعربات في كلا النحوين نتوقف عند بعض آراء القشيري في بقية مصنفاته لنعرف مدى التغيرات الطارئة على العبد السالك. ومن الذي يقوم بها على الحقيقة، ونترك للقارئ أن يناظر بين الموقف العباري والموقف الإشاري وهو يقرأ هذه الآراء:

« العبد ما دام في الترقي فصاحب تلوين، يصح في نعته الزيادة والنقص في الأحول، فإذا وصل إلى (الحق) بانخناس البشرية مكنه الحق بألا يرده إلى معولات النفس فهو متمكن في حالة على حسب (محله) واستحقاقه، ثم ما يتحفه الحق سبحانه في كل نفس (...) فلا حد لمقدوراته فهو في الزيادات متلون بل ملون (..) وفي أصل حاله متمكن » [12].

ويقول في موضع آخر: « ما يكون كسبًا للعبد في إقامة العبودية ما يليق بأحوال البشرية فهو فرق، وما يكون من قبل (....) الحق من إبداء معان وإسداء لطف وإحسان (على مقتضى ما يجد فيه من البسط) فهو جمع،

(.) بفتح التاء.
(..) بتشديد الزاي وفتحها.
(...) بفتح الأول والثاني.
(12) الرسالة ص 45.
(....)بكسر الأول وفتح الثاني.

فإثبات الخلق من باب التفرقة، وإثبات الحق من نعت الجمع. ولا بد للعبد من الجمع والفرق، فإن من لا تفرقه (.) له لا عبودية له، ومن لا جمع له لا معرفة له ».

ويحرص الصوفية – مع كل ذلك التقسيم بين ما للرب وما للعبد – أن ينسبوا كل شيء لله سبحانه، فهو وحده سبحانه القائم بالفضل حتى في الجهود الكسبية، وهو وحده الذي (ينطق (..) قلبه) بما يقتضيه (الوقت) ... ولنستمع إلى ذلك:

يقول يحيى بن معاذ:

« اللهم إني أتقرب إليك، وبك أدل عليك » [13].

يقول ذو النون:

« عرفت ربي بربي. ولولا ربي ما عرفت ربي » [14].

ويقول أبو يزيد: « إني لا أفهم عنك إلا بك ».

ويقول الكلاباذي:

« لا يعرف الله سبحانه إلا من تعرف الله إليه » [15].

وهذا بالضبط ما عناه الشيخ في المتين: « إلا بإذن من الحق ».

وقوله: « وأن تسمع بقلبك وتقف عند ذلك بتكلف منك » فكل شيء منه وبه وله – سبحانه، وهذه هي جبرية الحب، وما أروعها من جبرية! إنها كل السعادة.

---

(13) اللمع للسراج ص 331.
(14) الرسالة ص 156.
(.) بضم الأول وفتح الثاني وتشديد الثالث وفتحه.
(..) بضم الياء وكسر الطاء.
(15) التعرف للكلاباذي ص 37.